

ابن الرومي

حكيانه من شعيره

بِقَائِمِ
عنايتهم العباد

منشورات المكتبة العصرية
طبيدا - بيروت



المكتبة العصرية للطباعة والنشر

ابن الرومي حكيانه من شعره



مركز تحقيقات التراث العربي

بِقَائِدِ

عنايس محمد العقاد

منشورات المكتبة العصرية
طيدا - بيروت



فصل اول: کلیات

۱-۱- تعاریف و اصطلاحات

۱-۲- اهداف و مقاصد

۱-۳- روش تحقیق

۱-۴- محدودیت‌ها

۱-۵- تعاریف

۱-۶- اصطلاحات

۱-۷- روش تحقیق

۱-۸- محدودیت‌ها

۱-۹- تعاریف

۱-۱۰- اصطلاحات

۱-۱۱- روش تحقیق

۱-۱۲- محدودیت‌ها

۱-۱۳- تعاریف

۱-۱۴- اصطلاحات

۱-۱۵- روش تحقیق

۱-۱۶- محدودیت‌ها

۱-۱۷- تعاریف

۱-۱۸- اصطلاحات

۱-۱۹- روش تحقیق

۱-۲۰- محدودیت‌ها

۱-۲۱- تعاریف

۱-۲۲- اصطلاحات

۱-۲۳- روش تحقیق

۱-۲۴- محدودیت‌ها

۱-۲۵- تعاریف

۱-۲۶- اصطلاحات

۱-۲۷- روش تحقیق

۱-۲۸- محدودیت‌ها

۱-۲۹- تعاریف

۱-۳۰- اصطلاحات

۱-۳۱- روش تحقیق

۱-۳۲- محدودیت‌ها

۱-۳۳- تعاریف

۱-۳۴- اصطلاحات

۱-۳۵- روش تحقیق

۱-۳۶- محدودیت‌ها

۱-۳۷- تعاریف

۱-۳۸- اصطلاحات

۱-۳۹- روش تحقیق

۱-۴۰- محدودیت‌ها

۱-۴۱- تعاریف

۱-۴۲- اصطلاحات

۱-۴۳- روش تحقیق

۱-۴۴- محدودیت‌ها

۱-۴۵- تعاریف

۱-۴۶- اصطلاحات

۱-۴۷- روش تحقیق

۱-۴۸- محدودیت‌ها

۱-۴۹- تعاریف

۱-۵۰- اصطلاحات

۱-۵۱- روش تحقیق

۱-۵۲- محدودیت‌ها

۱-۵۳- تعاریف

۱-۵۴- اصطلاحات

۱-۵۵- روش تحقیق

۱-۵۶- محدودیت‌ها

۱-۵۷- تعاریف

۱-۵۸- اصطلاحات

۱-۵۹- روش تحقیق

۱-۶۰- محدودیت‌ها

۱-۶۱- تعاریف

۱-۶۲- اصطلاحات

۱-۶۳- روش تحقیق

۱-۶۴- محدودیت‌ها

۱-۶۵- تعاریف

۱-۶۶- اصطلاحات

۱-۶۷- روش تحقیق

۱-۶۸- محدودیت‌ها

۱-۶۹- تعاریف

۱-۷۰- اصطلاحات

۱-۷۱- روش تحقیق

۱-۷۲- محدودیت‌ها

۱-۷۳- تعاریف

۱-۷۴- اصطلاحات

۱-۷۵- روش تحقیق

۱-۷۶- محدودیت‌ها

۱-۷۷- تعاریف

۱-۷۸- اصطلاحات

۱-۷۹- روش تحقیق

۱-۸۰- محدودیت‌ها

۱-۸۱- تعاریف

۱-۸۲- اصطلاحات

۱-۸۳- روش تحقیق

۱-۸۴- محدودیت‌ها

۱-۸۵- تعاریف

۱-۸۶- اصطلاحات

۱-۸۷- روش تحقیق

۱-۸۸- محدودیت‌ها

۱-۸۹- تعاریف

۱-۹۰- اصطلاحات

۱-۹۱- روش تحقیق

۱-۹۲- محدودیت‌ها

۱-۹۳- تعاریف

۱-۹۴- اصطلاحات

۱-۹۵- روش تحقیق

۱-۹۶- محدودیت‌ها

۱-۹۷- تعاریف

۱-۹۸- اصطلاحات

۱-۹۹- روش تحقیق

۱-۱۰۰- محدودیت‌ها

تمهید

هذه ترجمة وليست بترجمة

لأن الترجمة يغلب أن تكون قصة حياة ، وأما هذه فأحرى بها أن تسمى صورة حياة . ولأن تكون ترجمة ابن الرومي صورة خير من أن تكون قصة . لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال ، ولكننا اذا نظرنا في ديوانه وجدنا مرآة صادقة ووجدنا في المرأة صورة ناطقة لانظير لها فيما نعلم من دواوين الشعراء ، وتلك مزية تستحق من أجلها أن يكتب فيها كتاب .

ان مزايا الشعر كثيرة تتفرق بين الشعراء ويتفرق الاعجاب بها بين القراء . وقد يحرم الشاعر احداها أو أكثرها وهو بمسد شاعر لا غبار عليه ، لأنه يحسن نطقاً من الشعر ، تصح به الشعرية : كالجمال في الحسان يروقتنا في كل وجه بلون وسمة وهو في جميع الوجوه رائع جميل ، وكاللسحة الواحدة من ملامح الجمال تحلو في هذا الوجه وتحلو في ذلك ولا تشابه بينهما في غير الحلاوة . ففي العيون ألف عين جميلة لاتشبه الواحدة أختها ولا تنفق اثنتان منها في معاني النظرات ومحاسن الصفات وليس هناك الا جمال واحد عند الكلام على جوهر الجمال .

وكذلك الشعر . يعجبنا في كل شاعر بطراز مختلف وهو شعر سائغ مستلح في كل طراز . فالذي يعجبنا من المتنبي غير الذي يعجبنا من البحري ، والذي يعجبنا من هذين غير الذي يعجبنا من الشريف الرضي أو من أبي العلاء أو من أبي نواس أو من ابن زيدون ، والذي يستحق به كل واحد منهم صفة الشاعرية غير الذي يستحقها به البقية!

فقد تفرقت مزايا الشعر كما قلنا أيما تفرق ، وامتنع الإعجاب بها
جسماً على الحصر والتعريف .

غير أن المزية التي لاغنى عنها والتي لا يكون الشاعر شاعراً إلا
بنصيب منها هي مزية واحدة ، أو هي مزية نستطيع أن نسميها باسم
واحد : وتلك هي الطبيعة الفنية .

تعمد أن نقول أنها تسمى باسم واحد لأنها في الحقيقة أشياء
شتى تدخل في عموم هذه التسمية .

فالتبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بينة للاحساس بجوانب
الحياة المختلفة . وهنا ينتهي بنا الاجمال الى كلمة كأنها كلمات ، أو
كأنها معجم كامل من المصطلحات . أليست جوانب الحياة علمياً لا حد
لها في العدد ولا في الصفة ؟ ثم أليست أنواع اليقظة لتلك الجوانب
أشتاتاً وأخلاقاً لا تجتمع في حصر حاضر ؟ بلى ! فمن المتيقظين لجوانب
الحياة من هو عسيق الشعور بها ومن هو متوفر الشعور أو مهتاجه
أو مستفيضه أو محصورة أو مستقبسه أو منحرفه ، الى غير ذلك من
أنواع الشعور ودرجاته . فالذي تجمعه كلمة اليقظة هنيهة لاتلبث
أوصاف اليقظة أن تفرقه كل مفرق . فهل من سبيل الى اسلاس المعنى
وتقريب مفاده للتعريف والتوضيح ؟ نعم ! وسبيل ذلك غير عسيرة ،
فنحن نقول موجزين ان الطبيعة الفنية هي تلك الطبيعة التي تجعل فن
الشاعر جزءاً من حياته أي كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ومن
الثروة أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ . وتتمام هذه الطبيعة أن
تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الانسان الحي من
الانسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره
وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه
يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفى فيها ذكر خالصة ولاهاجسة
مما تتألف منه حياة الانسان ، ودون ذلك مراتب يكثُر فيها الاتفاق
بين حياة الشاعر وفنه أو يقل . كما يلتقي السيديقان أحياناً طواعية
واختياراً ، أو كما يلتقي الغريبان في الحين بعد الحين على كره

واضطرار . فالانسان والشاعر في هذه الحالة شخصان يلتقيان في المواعيد ثم يذهب كل منهما لطيته الى أن يتاح لهما اللقاء مرة أخرى بعد زمن طويل أو قصير ، وكأن الشعر عند هؤلاء الشعراء روح من تلك الأرواح التي تلبس صاحبها وتفارقه ثم تلبسه كلما استحضرها له مستحضر من الحوادث والأهواء ، فهو اذا لبسته شاعر يأخذ عنها ماتحسه وينقل عنها ماتقول ، وهو اذا فارقه فرد من هذا المملأ الذي لا يوحى اليه ولا يكشف عنه الحجاب .

ابن الرومي . واحد من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومي الشاعر فقد عرف ابن الرومي الانسان حق عرفانه ولم ينقص منه الا الفضول ، والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يعرف بعد وان عرفت له مزايا ونالت حسنات له حقها من الاعجاب



ليس من الصدق للتاريخ أن يقال ان ابن الرومي كان خاملاً في زمانه أو بعد زمانه بهذا المعنى الشائع من الخمول الذي يراد به سقوط المكانة الأدبية ونسيان الأثر بين المتأديين ، فلعله اذا قيس الى الشعراء الهجائين خليق أن يعد سعيد الحظ موفور الجزاء . فقد ذهب شعر بشار الا أقله وذهب شعر دعبل الا أقله وبقي ديوان ابن الرومي كله فلم يذهب منه الا أقله ! وهذه مجاباة من الشهرة لم يرزقها في العربية شاعر هجاء ولم يرزقها قبل عصر الطباعة الا أفراد معدودون بين سائر الشعراء . ثم جاء عصر الطباعة فلم يكن الخمول هو الذي جنى على ابن الرومي وأخر طبع ديوانه بعد الدواوين التي في طبقتة لأنه ذكر في كل كتاب متداول من كتب الأدب وحفظت له مختارات كثيرة في حيثما وردت مختارات الشعراء المبرزين والذين أهملوه - كصاحب الأغاني - انما تعمدوا ذلك حنقا عليه لا اصغاراً لشأنه ، فتأخر طبعه في العصر الحديث لأسباب غير الخمول والاهمال : تأخر لأن ديوانه أطول ديوان محفوظ في اللغة العربية من جهة ، ولأن نسخته - من

جهة أخرى - لم تكن ميسورة في البلاد السورية حيث طبعت بعض
الدواوين ، وربما كان الاقذاع في الهجاء سببا ثالثا مضافا الى ذينك
السيئين .

فليس من الصدق للتاريخ اذن أن يقال ان ابن الرومي كان خاملا
بذلك المعنى الشائع من الخمول ، ولكنه مع هذا كان خاملا وكان
خموله أظلم خمول يصاب به الأدباء ، لأنه الخمول الذي يحفظ ذكر
الأديب ولكنه يخفى أجمل فضائله وأكبر مزاياه ، وهذا هو الحيف
الذي أصاب ابن الرومي ولا يزال يصيبه عندنا بين جبهة الأدباء
والتأدين .

قال ابن خلكان يصفه ويقدره : « هو صاحب النظم العجيب
والتوليد الغريب ، يفوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها
ويرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره
ولا يبقى فيه بقية » .

وهذا وصف صادق كله ، ولكنه ليس بكل الوصف الذي ينبغي
أن يوصف به ويتم به تعريفه ، فهو تعريف ناقص . والناقص فيه هو
المهم وهو الأجدر بالتنويه . اذ هو هو المزية الكبرى في الشاعر وهو
هو الطبيعة الفنية التي تجعل الفن جزءا لا ينفصل من الحياة .

ما الفوص على المعاني النادرة ؟ وما النظم العجيب والتوليد الغريب
ان لم يكن ذلك كله مصحوبا بالطبيعة الحية والاحساس البالغ
والذخيرة الفنية التي تتطلب التعبير والافتنان فيه ؟ ان كثيرا من النظامين
ليفوصون على المعاني النادرة ليستخرجوا لنا أصدافا كأصداف ابن
نباتة وصفي الدين أو لآلئ رخيصة كلالئ ابن المعتز وابن خفاجة
واخوان هذا الطراز ، وان الفوص على المعاني النادرة لهو
لعب فارغ كلعب الحسوة والمشعوذين ان لم يكن صادق
التعبير مطبوع التمثيل والتصوير . وعلى الأوراق المائتة
رسوم ونقوش وأرقام وحروف ، ولكنها برستنومها
ونقوشها وأرقامها وحروفها لاتساوي درهما ان لم يكن وراءها الذهب

المودع فى خزانة المصرف ! فالاحساس هو الذهب المودع فى خزانة النفس وهو الثروة الشعرية التى يقاس بها سراة الكلام ، أما الرسوم والنقوش والأرقام والحروف فعلامة لا أكثر ولا أقل . وقد تبنى عنها علامة أخرى برقم ساذج وتوقيع بسيط !

نعم ما النظم العجيب والتوليد الغريب واستغراق المعنى حتى يتوفى الى آخره ولا تبقى فيه بقية ؟ ان هذا بقضه وقضيضه ان هو الا أدوات التعبير وليس هو التعبير المطلوب فى لبابه . فاذا لم يكن عند الشاعر ما يعبر عنه فكل معانيه وتوليداته ونوادره لنموا لا حاجة بنا اليه ، واذا كان عنده ما يعبر عنه واستطاع التعبير بغير توليد ولا اغراب ولا استغراق فقد أدى رسالته وأبلغ فى أدائها أكمل بلاغ . وهذه هى الرسالة المقصودة وهذا هو الشعر الجيد وهذه هى الطبيعة الفنية ، أما المعانى والتوليدات فهى وسائل الى غاية لا قيمة لها الا فيما تؤديه وتنتهى اليه ، ويستوى بعد ذلك من أدى اليك سريرة نفسه بتوليد واغراب ومن أداها اليك بكلام لا اغراب فيه ولا توليد .

وابن الرومى شاعر كثير التوليد غواص على المعانى مستغرق لمعانيه ، ولكننا لو سئلنا ما الدليل على شاعريته لكان غبنا له أن نحصر هذا الدليل فى التوليد والفصوص والاستغراق . فقد نحذف منه توليداته ومعانيه ولا نحذف منه عناصر الشاعرية والطبيعة الفنية ، فهو الشاعر من فرعه الى قدمه والشاعر فى جيده ورديته والشاعر فيما يحتفل به وفيما يلقيه على عواهنه . وليس الشعر عنده لباسا يلبسه للزينة فى مواسم الأيام ولا لباسا يلبسه للابتدال فى عامة الأيام . كلا ! بل هو اهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه . فلرديء منه مثل ما للجيد من الدلالة على نفسه والابانة عن صحته وسقمه . بل ربما كان بعض رديئه أدل عليه من بعض جيده وأدنى الى التعريف به والنفساذ اليه ، لأن موضوع فنه هو موضوع حياته . والمرء يحيى فى أحسن أوقاته ويحيا فى أسوأ أوقاته ، ولقد تكون حياته فى الأوقات السيئة أضعاف حياته فى أحسن الأوقات .

هذا الجانب من شاعرية ابن الرومي هو الجانب الخامل المجهول، وهو الجانب الذي وقفنا على التعرف به صفحات هذا الكتاب .
وعندنا أننا ننتصف كل شاعر - ولا ننتصف ابن الرومي وحده -
بتوضيح هذا الجانب من الشاعرية ، أو بتوضيح ما نسميه الطيمية الفنية . لأنه هو المقياس الذي لا يتم لنا أن نقدر شاعراً بغيره ، والذي نجهل الشعر كله والشعراء كلهم إذا نحن أغضينا عنه والتفتنا إلى سواء مما لا يستحق كبير التفات .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم إسلامي



الفصل الأول

عصر ابن الرومي

او القرن الثالث للهجرة

« كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان ، كان عصر الحكمة وكان عصر الجهالة ، كان عهد اليقين والايمان وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور وكان أوان الظلام ، كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط : بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا شيء قط ، وسيلنا جميعا الى سماء عليين وسيلنا جميعا الى قرار الجحيم . تلك أيام كأيامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علائها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات » .

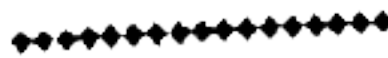
هذا هو عصر الثورة الفرنسية ، وهكذا استهل وصفه الكاتب الانجليزي « شارلس دكنز » في بداية قصة المدينتين ، الا أنك قد تنقل هذا الوصف الى أمة غير الأمة الفرنسية وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد وأنت لا تخرج به عن زمانه ومكانه وفجواه ، اذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور في تواريخ الانتقال والاضطراب ، ومن تلك العصور القرن الثالث للهجرة في دولة الاسلام الشرقية ، وهو القرن الذي لا يوصف في جملته الا ببطل هذا الوصف الغامض الجلي الذي كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصراً واحداً متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه في الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات ، وان اجتمعت في نطاق واحد من الزمان .

ان كان لكل دولة أوان للبذر وأوان للنماء وأوان للحصاد فالقرن

الثالث للهجرة كان أوان النماء للدولة العباسية جاء بعيد التمهيد وقبيل

النضج والذبول . ففيه نما وأزهر كل ما بذره مؤسسو الدولة من جرائم الخير والشر وعناصر الصلاح والفساد . وكانت الدولة في إبانه أشبه شيء بالمرج الأخضر الذي ينمو فيه الحب والفاكهة والشسوك والعشب المسموم : خضرة زاهية نضرة ولكنها وسيمة شائثة ومصالحة مهلكة ومرجوة مخشية ، ومختلط فيها الغذاء والسم اختلاطاً لا سبيل فيه الى التنقية والتمييز فهو العصر الذي بلغ كل شيء فيه أقصاه وأثمر كل عمل فيه نتاجه المحتوم ، أثمر فيه الخطأ كما أثمر فيه التوفيق وظهر فيه ما قدموا صالحاً أو طالها على السواء . فبدأ التمام وبدأ النقص في حين واحد ، واجتمع الخليط من حضارات العرب والفرس والروم الى الخليط من عوامل القوة والضعف والبشارة والانذار . فكان نسيجاً من ألوان الزمان لا تشبع منه عين الفنان ولا روية الحكيم .

وليس بنا أن نسهب في وصف هذا القرن واستقصاء تاريخه فانما يعنينا منه ما يحيط بفرد واحد هو الشاعر الذي تترجم لحياته . فحسبنا من تاريخ ذلك العصر ما نوضح به نواحي تلك الحياة ، والقليل الوجيه من ذلك التاريخ كاف لتوضيح ما يزيد في هذا المقام .



حالة الحكومة والسياسة

ولد ابن الرومي في سنة احدى وعشرين ومائتين وتوفي في سنة أربع وثمانين على قول بعض الرواة . فهو قد أدرك في طياته ثمانية خلفاء هم : الواثق والمتوكل والمتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتمد الذي توفي بعد ابن الرومي بضع سنوات . فاذا أردنا أن نحيط بالحالة التي كانت عليها الحكومة وسياسة الدولة يومذاك فلعلنا لانستطيع أن نعرض لذلك بيان هو أوجز من الالمام بالمصير الذي صار اليه بعض أولئك الخلفاء . فمنهم واحد قتل وهو المتوكل وثلاثة خلعوا وقتلوا بعد خلعهم وهم : المستعين والمعتز والمهتدي ، وقيل ان من الآخرين من مات مسموما . والبقية الذين ماتوا على سرير الملك لم يخل عصر أحدهم من فتنة أو انتقاض أو غارة خارجية ، ولم يكن حظ ولاية اليهود والأمراء والوزراء بخير من حظ الخلفاء ولا مصير أكثرهم بأسلم من هذا المصير . فقل بين هؤلاء من نجا من الخلع والسجن والتعذيب واستصفاة الأموال

وكان الخلفاء عرضة للفضب والكيد من الجند والوزراء ونساء القصور ، أما الأمراء والوزراء فكانوا عرضة للفضب والكيد من جميع هؤلاء ويزيد عليهم الخلفاء كلما قدروا على البطش وأمنوا على أنفسهم دسائس المشاغبين والمنافسين .

ان اطراد البطش بالخلفاء والوزراء لا يدل على أمان أو انتظام في سير الأمور ، ولكن هذا كله لا يزال ضعيف الدلالة على ما كانت عليه حقيقة الحال في حكومة تلك الأيام . فقد يعوزنا أن نعلم كيف كان المقتولون يقتلون والمخلوعون يخلعون لنعلم كيف كان الفساد يجرى في خلائق النفوس كما كان يجرى في سياسة الدولة وأعمال الدواوين . فخصاري ما يدل^(١١) على اطراد العسوان أن شريعة الحكم لاترعى وأن الحكام لاتتقى ، الا أن الحكومة قد تهزل هيبتها وتبطل شريعتها ثم تبقى للناس بعد ذلك حرمان أخرى يتقونها وآداب أخرى يحرصون

عليها . تبقى لهم حرمة المروءة وآداب العرف والدين أما في ذلك العهد فقد بلغ التنكيل والتبشيع في بعض حوادث الفتك مبلغا لحرمة معه لشرع ولا لدين ولا لمروءة .

فمن أمثلة ما كان يصيب الخلفاء ما حدث للمعتز حين طالبه الجند الأتراك بأرزاقهم فلم يجدوا عنده ولا عند كتابه ووزرائه مالا : قال الطبري في أخبار سنة خمس وخمسين ومائتين : « فلم يرعه الا صباح القوم من أهل الكرخ والدور واذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد ابن بغا المعروف بأبي نصر قد دخلوا في السلاح فجلسوا على باب المنزل . . . ثم بعثوا اليه أن اخرج الينا فبعث اليهم أني أخذت الدواء أمس وقد أجفنتي اثنتي عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف ، فان كان أمر لا بد منه فليدخل الي بعضكم ، فدخل اليه جماعة من أهل الكرخ والدور من خلفاء القواد فجزوا برجله الي باب الحجرة . قال : وأحسبهم كانوا قد تناولوه بالضرب بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق في مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه في الشمس .. فجعلت أنظر اليه يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي أقيم فيه . ورأيت بعضهم يلمطه وهو يتقى بيده فذكر أنه لما خلع دفع الي من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه ، ثم جصصوا سردابا بالجص السخين ثم أدخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه فأصبح ميتا ، وكانت وفاته لليلتين خلتا من شعبان في هذه السنة . فلما مات أشهد على موته بنو هاشم والقواد وأنه صحيح لا أثر فيه » . ومن أمثلة ما كان يصيب الوزراء ما حدث لمحمد بن عبد الملك الزيات في أيام المتوكل وذكره الطبري في أخبار سنة ثلاث وثلاثين ومائتين . قال بعد أن ذكر مصادرة الأموال ونهب الدور وضم الضياع : « لم يزل أياما في حبسه مطلقا ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع من الطعام وكان لا يذوق شيئا ، وكان شديد الجزع في حبسه كثير البكاء قليل الكلام كثير التفكير ، فمكث أياما ثم سهر ومنع من النوم : يساهر وينخص بمسلة . ثم ترك يوما وليلة فنام واتبه فاشتبه فاكهة وعبا فأنى

به فأكل ثم أعيد الى المساهرة ثم أتى بتور من خشب فيه مسامير حديد
... وكان هو أول من عمل ذلك فعذب به ابن أسباط المصرى حتى
استخرج منه جميع ما عنده ثم ابتلى به فعذب به أياما . وذكر عن
الدندانى عن الموكل بعذابه أنه قال : كنت أخرج وأقفل الباب عليه
فيديده الى السماء جميعا حتى يدق موضع كفيه ثم يدخل التنور
فيجلس ، والتنور فيه مسامير حديد وفى وسطه خشبة مترضة
يجلس عليها المعذب اذا أراد أن يستريح ، فيجلس على الخشبة ساعة
ثم يجيء الموكل به فاذا هو سمع صوت الباب يفتح قام قائما كما
كان ثم شدوا عليه ، قال المعذب لى : خاتلته يوما ورأيت أنه أقتلت
الباب ولم أقفله . انما أقتلته بالقفل ثم مكثت قليلا ثم دفعت الباب
غفلة فاذا هو قاعد فى التنور على الخشبة ، فقلت أراك تعمل هذا
العمل ؟ فكنت اذا خرجت بعد ذلك شددت خنقه فكان لا يقدر على
القيود واستلكت الخشبة حتى كانت تكون بين رجله فما مكث بعد
ذلك أياما حتى مات ، واختلف فى الذى قتل به فقيل بطح فضرب على
بطنه خمسين مفرعة ثم قلب فضرب على ظهره مثلها ، فمات وهو يضرب
وهم لا يعلمون . فأصبح ميتا قد التوت عنقه ومنت لحيته ، وقيل مات
بغير ضرب ، وذكر عن مبارك المغربى أنه قال : ما أظنه أكل فى طول
حبسه الا رغيفا واحدا ، وكان يأكل العنبة والعنبتين قال : وكنت أسعته
قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه يا محمد يا ابن عبد الملك ! لم
تقنعك النعمة والدواب الفره والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وأنت
فى عافية حتى طلبت الوزارة ! ذق ما عملت بنفسك ! فكان يكرر ذلك
على نفسه ، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسه فكان لا يزيد
على التشهد وذكر الله « والذى روى عن التمثيل بالمذنبين - ولا سيما
فى أيام المعتضد - أفزع من هذا وأعنف . وكأنما كان التقطيع بهم
فرجة يتفتنون فى ابتداع أشكالها وأساليبها ليلها بها النظارة
ويذكروها فيما يذكرون من مشاهد المجون والفكاهة !

أساس هذا الشر كله سببان غالبان هما القطيعة بين بنى العباس

والعرب : ونظام الاقطاع الذى تسادى فيه بنو العباس حتى انتهى الى تصدع العالم الاسلامى وتشعبه فى مدى قرنين اثنين بضع عشرة شعبة .

فبنو العباس كانوا قوما موتورين طال عليهم الظلم واحتسان المكاره وكانوا ينقمون على العرب أنهم خذلوا آل النبى فى نضائهم مع بنى أمية وباعوهم بيع السماح لما استمالهم الأمويون بالعطايا والوعود فلبثوا زمانا يسامون الذل ويلعنون على المنابر ويشهدون قتل رجالهم وسبى نساءهم وهم آل النبى الذى لم يسأل قومه على الهداية اجرا الا المودة فيهم ، وابتلوا بكل محنة فى دولة الأمويين ولا من يفضب لهم أو يجنح اليهم . ولقد كان بنو العباس شركاء بنى على فى الوتر وان كان المصاب فى معظبه مصاب هؤلاء ، لأنهم كانوا جميعا من آل البيت ينالهم من الذل ما ينال كل متهم اليه . ثم لما قامت لهم آخر الأمر دولة لم تقم على أيدي العرب وهم أولى الناس أن ينصروهم وتأخذهم الغيرة لهم ، وانما قامت على أيدي الفرس الذين كانوا ينقمون مثلهم على الدولة العربية . فامتلات نفوسهم حفيظة على العرب وانقطع ما بينهم وبينهم من صلة المودة والطائنية وشسعروا لهم فى نفوسهم بسا يشعروا به المظلوم لمن ظلوه أو أعانوا عليه ظالميه ، والموتور اذا خاب ظنه فى انصاف الناس وساء رأيه فى أماتهم واخلص طويتهم لم يعرف لهم حقا ولم يرع لهم ذمة ولم يجز الأمر بينه وبينهم الا على المنفعة والرهبه دون الثقة والمودة، ومن هنا كانت تلك السياسة النفعية الفاتكة التى اشتهر بها أساطين بنى العباس ومضى عليها خلفاؤهم من بعدهم ، وجاء اتصالهم بأجلاف الأعاجم من قبائل الترك والديلم فنقلوا عنهم ضروبا من المثلات التى تعودها هؤلاء الأعاجم فى وحشية البداوة .

قيل ان العباسيين انما قربوا اليهم الفرس والأعاجم واتخذوا منهم الأعوان والقواد مكافأة لهم على نصرهم اياهم وتأيدهم لهم على أعدائهم ... والحقيقة أن بنى العباس كانوا يتوجسون من العرب

قبل أن تقوم لهم دولة وتتنظم لهم عقدة ، وكان ابراهيم بن محمد بن علي صاحب الدعوة قبل السفاح يكتب الى أبي مسلم : « ان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربياً فافعل ، فأبما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتله » فهو الحذر من العرب الذي أبعد هؤلاء وأخلمهم في دولة بني العباس ، وليست مكافأة الفرس ومن اليهم ، ثم توالت الحوادث بما باعد الشقة بين العرب وأصحاب الدولة الجديدة ، فلما كان الخلاف بين الأمين والمأمون ذهب العرب مع الأمين لأن أمه عربية وذهب الفرس مع المأمون لأن أمه فارسية ، وقتل الأمين واتصر المأمون فحفظها للعرب وأمن في اقصائهم وتقريب الأعاجم على تعدد أجناسهم ، ثم جاء المعتصم - وكانت أمه تركية - فاعتمد على جنود الترك وكثر اختلاف الأجناس في جيش الدولة وولاة أمرها فضلا عن اختلاف الأجناس بين نساء القصور وأمهات الأمراء ، وتفاقت أسباب الدسائس بين الملوك والأمراء والقادة والوزراء وحاشية القصور من رجال ونساء ، وبلغ من تفاقمها أن أشفق منها الجند والقواد الذين هم مساعير فيرانها فشعب الجند على قوادهم وتنازع القواد أمرهم فودوا جميعا لو يملكهم خليفة قوى يخيفهم ويحسم أسباب النزاع بينهم كما قال بغا الكبير : «نجىء بمن نهباه ونفرقه فنبقى وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا » ثم اشتد اشفاقهم من تحاسدهم حتى طلبوا أن يتولى القيادة أمير من بيت الخلافة ولا يتولاها أحد منهم ، ولكن أسباب الشقاق كانت أكبر وأوسع من أن يحسها مثل هذا التدبير العاجل الذي لا يطول الاستقرار عليه .

كان أمر الدولة اذن قائما على سوء الظن والدسياسة ، وقد ألف المؤرخون أن يذكروا اخلاص الفرس لبني العباس حتى خيل الى بعض قراء التاريخ أن بني العباس كانوا خليقين أن يطمئنون الى جهة واحدة على الأقل من جهات الدولة ، وأن يسكنوا الى شعب واحد من شعوبها الكثيرة ، وما كان الأمر كذلك الا في الظاهر الذي لا يندفع به رجال

من المحنكين المنحدرين كرجال الدولة العباسية ، فما نظن أبا مسلم
نصير الدولة الأكبر الا كان طامعا في الخلافة متربصا بأوليائه الدائرة ،
ولهذا طمع الى مصاهرة بيت الملك وارتقى بنسبه الى العباس وبدأ
باسسه في مخاطبة الخليفة وأراد أن يؤم الناس في موسم الحج واستعد
للسلك استعداداه الذي لا يخفى على أوليائه ، وما نظن البرامكة الا
كانوا يفعلون فعل أبي مسلم في شيء من التبصر وطول الأناة .

ولم لا يطمع هؤلاء وغيرهم وما كانت تعوز العظماء في أمة الفرس
أسباب الدعوة والاتقاض ؟ فان كان الأمر أمر الطمع والقوة فهاهم
الفرس أصحاب القوة التي وصل بها العباسيون الى الخلافة ، وان
كان أمر الدين والغيرة على آل البيت فهاهم أبناء علي عندهم يدعون
لهم اذا شاءوا ويجدون من الناس مستمعا ومجيبا بعد ما أصاب
العلويين على أيدي بني العباس من قسوة وتنكيل وما أصاب العرب
في دولتهم من اهمال واطراح .

كان حكم بني العباس ~~حكما~~ الموتور المستريب ولا يكون الا
هكذا حكم الموتور المستريب . وأطبق نظام الاقطاع على هذه الآفة
فتمت به البلية وتشعبت المقاصد حتى فشا سوء الظن ولم يبق موضع
لثقة بين انسان وانسان من العاملين في الحكومة .



نظام الإقطاع :

فنظام الإقطاع نظام معيب ولكنه يبقى مستور العيون ما بقيت هبة الدولة وسطوة القائمين عليها . فإذا ضعفت وضعفوا فهو الشر المستطير يشقى به الحاكم والمحكوم وينخر في أركان الملك فلا يدعه الا وهو مفكك الأجزاء معتور بأسباب الفناء .

فكان الولاة - والخلافة العباسية مرهوبة الجانب والأمور مستقرة في عنفوانها - يؤدون المال الذي عليهم ويتعهدون الأرض والمرافق بالإصلاح لتغزر عندهم موارد الجباية وتدوم لهم وللناس منابع الثروة ، فلما تقلقت الخلافة وارتاب الولاة في أمرها وفي أمرهم أهملوا الإصلاح وتهاوتوا على جمع المال وجسوا أرزاق العمال وأغفلوا مرافق الرعية ، فخربت الأرض وعم السخط وفسدت طاعة الجند على ما بها من فساد الشقاق والدسياسة ، ولجأ الخلفاء الى اغتيال الولاة والكتاب وكل من بأيديهم مال الجباية . فأعملوا فيهم القتل واستصفاء الأموال واستخراج الدفائن والمخبات ، وأصبحت السكناية والوزارة وما اليها من وظائف الدولة كأنما هي رخصة بالظلم والنصب ريشا يحتاج الخلفاء الى ما جمعه الوزراء والكتاب فيجعلوا على المال من هذه الطريق ! وبلغ من شيوع الاختلاس أن الذين كانت بأيديهم خزائن الدولة شاركوا العمال وأصحاب الوظائف في أرزاقهم فكانوا لا يؤدون رزق عامل أو صاحب وظيفة الا اذا اقتطعوا منه اتاوة لأنفسهم واستكثبوه توقيعهم باستيفاء رزقه ، غير مستثنين من ذلك أحداً حتى اخوة الخليفة وأهل بيته . بل قد بلغ من شيوع الاختلاس أن أصبح سراً مذاعاً لا يكتفون في حضرة الخليفة نفسه ولا يبالي الوزير أو الكاتب أن يجهر بين يديه بفعله : فلما عرض الخليفة المهتدي لسليمان بن وهب بما كان يأخذه هذا من العمال « معجلاً ومؤجلاً » قال له سليمان : « يا أمير المؤمنين ! هذا قول لا يخلو من أن يكون حقاً أو باطلاً ، فان كان باطلاً فليس مثلك من يقوله ، وان كان حقاً وقد علست أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهني

من عمالي على بعض ما يصل اليهم من غير تحيف للرعية ولا نقص
للاموال ؟ » .

وراجت تجارة الارتشاء من العمال وعمال العمال حتى بلغت أقصى
ماعساه أن تبلغه في أواخر أيام الدولة ، فقبل عن الخافاتي فيما رواه
الفخري أنه ولي في يوم واحد تسعة عشر ناظراً على الكوفة وقبض من
كل واحد منهم رشوة ! فان كان قد بقي لحسن الظن بين ولاة الأمر
بقية فهذه السرقات والرشاوى والمصادرات والنكبات قد أتت على هذه
البقية ، فلم تدع بينهم الا علاقات الحذر والمساومة والتربص وفساد
الطوية . ولا جرم تبيض الفتنه وتفرخ في بيئة كهذه بين جند يشغبون
وعمال يدلسون وعرب يحنقون وعلويين يتحفزون ورعية تمزقها برائن
الرعاة وملوك لا يؤمنون على الملك ولا على الحياة .

وقد حضر ابن الروسى في زمانه بعض هذه الفتن وسمع بما تقدمه
وترك لنا في شعره مثلاً مما حدث في واحدة منها وهي فتنة الزنج التي
اختلفت فيها الأسباب السياسية والدينية والاجتماعية ، فقال يصف
ما حل بأهل البصرة على أيدي الثائرين .

كم أغصوا من شارب شراب	كم أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى	فقلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعاً	ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه	وهو يعلى بصارم صمصام
كم مفدى في أهله أسلموه	حين لم يحمه هنالك حمام
كم رضيع هناك قد فطموه	بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخساتم الله بكر	فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوا	بارزاً وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم	طول يوم كأنه ألف عام

ودرجت الأحوال على ذلك فلم يكن يهونها على الناس الا اتساع
أرجاء البلاد الاسلامية وتفرق الفتن في تلك الأرجاء ، والا فترات من

القوة يتاح فيها للدولة في الحين بعد الحين خليفة حازم الرأي نافذ
العزيمة فتسكن غوارب الفتنة بعض السكون ويستقيم الولاية والعمال
بعض الاستقامة وتعلو هيئته فيخشاه المغيرون على الدولة من داخلها
وخارجها وتفيء الرعية الى ظله زمناً حتى يحم أجله فتعود الأمور الى
ما كانت عليه .



مركز تحقيقات كميبيوتر علوم إسلامي



الحالة الاجتماعية :

تنتهى الفوضى السياسية - اذا تطاول بها الزمن - الى الخراب والعسر ونضوب الأرزاق بين جميع الطبقات عالياً وهابطها على السواء. ولكن الفوضى لا تمنع الترف اذا هي جاءت فى البداءة أو ترددت فى الفترة بعد الفترة ولم يطل بها زمن التخريب والافساد . فلا يندر أن يجتمع الترف والفوضى فى طبقات من الدول المتداعية التى ورثت السلطان القديم والثروة الواسعة ومظاهر الحضارة وأفانين المعيشة الفاخرة . بل كثيراً ما تكون الفوضى من أسباب الترف والمغريات به ، لتعويدها النفوس أن تخلد الى الدعة واغتنام اللذة وأن تحجم عن المساعى الجليلة والآمال الرفيعة يأماً من كل غاية وشكا فى مصير كل نعمة ، وطمأ بأن الحياة لا تجرى على وتيرة ولا تنتظم فى سياق .

وكذلك كان القرن الثالث للهجرة قرن الفوضى والترف أو قرن الخطر و « التسلية » . بلغ فيه كلاهما مبلغه وسرت الى العصر جرائر العصور الأولى فجنى ثمارها خلا فى السياسة وبذخاً فى المعيشة وحياة كحياة الجند ليلة الحرب كلها قصف وكلها استسلام .

ورث القرن الثالث حضارات العرب والفرس والروم وأساليب اللهو فى هذه الأمم وفى الأمم التى اتصلت بها من ترك وهند وصين، وتجمعت الأموال المستحيرة فى أيدي الأمراء وجباة الخراج وأصحاب النجارب العادية الرائحة فى البر والبحر بما تستدعيه ضرورات العيش ونوافل الشهوات ، فكثر المترفون المنعمون وشاعت فنون الخلاعة والمجون وأصبح لكل ضرب من ضروب اللهو علم يعرفه علماءه ويقرب أهله الى الخلفاء وذوى الرئاسة حتى الرقص وما اليه فضلا عن الغناء والسماع . نقل المسعودى فى مروج الذهب أن الخليفة المعتمد قال لبعض من حضر من ندماثة : « صف لى الرقص وأنواعه والصفة المحموددة من الرقاص واذكر لى شمائله . فقال المسئول : يا أمير

المؤمنين ! أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم من أهل خراسان وغيرهم . فجملة الايقاع في الرقص ثمانية أجناس : الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل وثقيل الثاني وخفيفه وخفيف الثقيل الأول وثقيله ، والرقاص يحتاج الى أشياء في طباعه وأشياء في خلقته وأشياء في عمله .. فأما ما يحتاج اليه في طباعه فخفة الروح وحسن الطبع على الايقاع وأن يكون طالبه مرحاً الى التدبير في رقصه والتصرف فيه ، وأما ما يحتاج اليه في خلقته فطول العنق والسوالف وحسن الدل والشمائل والتمايل في الأعطاف ودقة الخصر وحسن أقسام الخلق .. ومخارج النفس والاراحة والصبر على طول الغاية ولطافة الأقدام .. ولين المفاصل وسرعة الانتقال في الدورات ولين الأعطاف ، وأما ما يحتاج اليه في عمله فكثرة التصرف في ألوان الرقص وأحكام كل جزء من حدوده وحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارهما ، واستواء ما تعمل يبنى الرجل ويسراها حتى يكون في ذلك واحداً . ولوضع القدم ورفعها واجبان أحدهما أن يوافق بذلك الايقاع والآخر أن يتشبث به . فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع فهو من الحب والحسن سواء ، وأما ما يتشبث به فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع مترافعا وما يتشبث به متسافلا .

وقس على ذلك سائر ضروب اللهو والترف . حتى انتهى القرن وأقبل ما بعده وللقوم في آداب المجالس وآداب المائدة ما لم نسمع بنسبه عن رومة وبيزنطة ، فكان من رؤسائهم من لا يأكل لتستين بملعقة واحدة كما قيل عن الوزير المهلبى أنه « كان من ظرفه في فعله ونظافته في مأكله أنه اذا أراد أكل شيء بملعقة كالأرز واللبن وأمثاله وقف في جانبه الأيسن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجرودا - وكان يستعمله كثيراً - فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة ثم يدفعها الى غلام آخر قام في الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى يفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لتلا يميد الملعقة الى فيه دفعة ثانية »

واقندی الأواسط والفقراء بالعلية والأغنياء فكثرت بيوت القيان
والخمر وأمنت المعاقرة صبوحا وغبوقا وشاع اقتناء الجوارى والغلمان
واستبيحت اللذات على أنواعها مألوفها وغير مألوفها وطيبها وخبيثها،
فتكشفت الوجوه وقل الحياء وخف موقع الهجر والبذاء على الاسماع ،
ولا سيما حين أصبح الحكام والولاة هم قدوة الناس في هذه الأفانين
وهم موضع النعمة التي تصبو اليها نفوس المحرومين ، وفي احدى
قصائد ابن الرومي البائية وصف لعيش الكتاب والموسرين لا بأس بأن
نلحقه بهذا الباب لدلالته على ذلك العصر وعلى موقع هذه اللذات من
نفس الشاعر ، وذلك حيث يقول :

أترانى دون الأولى بلغسوا الآ
وتجار مثل البهائم فازرو
خير ما فيهم ولا خير فيهم
ويظنون في المناعم واللتذ
لهم المسمعات ما يطرب السا
من جوار كأنهن جوار
لابسات من الشفوف لبوسا
ومن الجوهر المضيء سناه
لهف نفسى على منساكير للنا
تفعل الأرض بالدماء فتضحى
من كلاب نأى بها كل نأى
وابتات على الظباء ضعاف

مال من شرطة ومن كتاب
بالمنى فى النفوس والأجباب
انهم غير آئسى المقتاب
ات بين السكواعب الأتراب
مع والطائفات بالأكواب
يتسلن من مياه عذاب
كالهواء الرقيق أو كالسراب
شعلا يلتهن أى التهتاب
كر غضاب ذوى سيوف عضاب
ذات طهر تراها كالمسلا ب (أ)
عن وفاء الكلاب غدر الذئاب
عن وثاب الأسود يوم الوثاب

شرط حولوا عقائل بيضا
من ظباء الأيس تلك اللواتي
فاذا ما تعجب الناس قالوا
أصبحوا ذاهلين عن شجن النا
في أمور وفي خمور وسمور (١)
وتهاويل غير ذاك من الرق
في جبير منمنم وعبير
في ميادين يخترقن بسا
ليس ينفك طيرها في اصطحاب
من قرنين أصبغا في غناء
بين أفسانها فواكه تشفى
في ظلال من الحرور واكنيا
عندهم كل ما اشتهوه من الآ
والطروقات والمراكب والولد
واليلنجوج (٢) في المجامر والآ
والغوالي وعبير الهند والمسك
ولديهم وذائل الفضفض البي
لم آكن دون مالكي هذه الأملا

لا بأحسابهم بل الاكساب
ترك الطالبين في أنصاب
هل يصيد الظباء غير الكلاب؟
س وان كان حبلهم ذا اضطراب
وفي قاقم وفي سسنباب
م ومن سندس ومن زرياب (٣)
وصحان فسيحة ورحاب
تين تمس الرءوس بالاهداب
تحت اظلال أيكها واصطخاب
وفريدين أصبغا في اتحاب
من تداوى بها من الأوصاب
ن من القرجمة الحجساب
لات والاشربات والأشواب (٤)
ان مثل الشوادن الأسراب
تتري نشره كمثل الضباب
على الهام واللحي كالخضاب
ض تباهى سبائك الأذهاب
ك لو أنصف الزمان المحابى

ففى هذه القصيدة وصف وافل مناعم العيش في بيوت الطبقات الموسرة
ومعظمها من « الموظفين » . وفيها - مع هذا الوصف الوافى - تفسير
واضح لتهالك الناس على العمالة والكتابة وسائر الوظائف التي يأتى
رزقها من المرتبات والجبايات والرشى والاسلاب ، وفيها - مع هذا
وذاك - تفسير لنقمة الطبقات المحرومة وللشورات التي كانت تهب

(٢) ماء الذهب

(١) أسماء أنواع من الفراء

(٤) عود للبخير به

(٣) جمع شوب وهو ما يخلط بغيره

من هنا وثم لرد الظلامات وانصاف الفقراء . وأى شيء أدل على طلب الثورة والتلief على قلب الأحوال والتأهب لتلبية الداعين الى الشغب من قول شاعر وديع كابن الرومي :

لهف نفسي على مناكير للنب بكر غضاب ذوى سيوف عضاب
تغسل الأرض بالدماء فتضحى ذات ظهر تراها كالمسلاب
من كلاب نأى بها كل نأى عن وفاء الكلاب غدر الذئاب

لاجرم يكون ذلك العصر عصر الحيرة والانتظار ، ولا جرم تتأهب فيه النفوس ندعوة الجماعات السرية وتتعلق الآمال بالمهدى المنتظر والمصلح الأكبر الذى يغسل الأرض بالدماء ... ولا جرم يكون ذلك العصر هو عصر بابك الخرمى وداعية الزنج والقرامطة وغيرهم من الثوار وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون المقاصد الاجتساعية بالمقاصد الدينية ويعالجون الترفيق عن الفقراء المنزوفين بالدعوة الى المساواة والتمرد على الحكام ، وكان ذلك على أكثره فى بلاد الفرس حيث بقى الفلاحون كما كانوا فى عهد الأكايرة يسامون سوم الأنعام ويستنزفون كما كان يستنزفهم الأمراء والملوك المؤلهون فى غابر الزمان ، ثم كان ذلك على أكثره فى المرافىء والشغور حيث تكثر الحركة ويزدحم العمال والصناع ويرتفع السعر ويشتد التنافس بين الطبقات .

على أن هذه الأحداث كانت تمر بالدولة وهى باقية سليمة منها بعض السلامة ، لأنها - كما أسلفنا - كانت تتلقاها متفرقة فى الأماكن والأوقات ، وكان شغب الشاغبين يوصم بالكفر والافساد فى الأرض ويسمى القائم به تارة باسم الفاسق وتارة أخرى باسم المارق أو الفاجر أو الخبيث ، فىنبى اسمه الأول ولا يذكر الا بهذا الاسم المتجمل ، وكانت هذه الثورات براء ليست لها وجهة مرسومة ولا خطة معلومة . فكانت تعوزها عناصر الدعوة المشروعة المستجابة التى تلتفت بها الجماهير وتستبسل فيها ، فلا تؤشك الثورة أن تستفحل حتى تفتر وتضمحل وتثوب الأمور الى نصاب .

هذا والقصور سادرة في غيرها قلما تحس لهذه المشكلات الاجتماعية
أثرا أو تتحرك لعلاج أسبابها الدفينة الا في العهد بعد العهد والصحة
بعد الصحة ، ولا تراها فيما عدا ذلك الا غارقة في بذخها مفتنة في
ريتها ولهوها : المهندسون والمزخرفون والمطربون والطهاة والندماء
يستبقون في تجويد أساليب المعيشة وجلب ألوان المسرة ، ومجالس
الطرب تدخل على المجتمع العالى بعرف جديد من الآداب والأذواق ،
فلا يكون الأدب الا أدبها ولا الذوق الا ذوقها ولا يحسب الوزير
وزيرا ولا الرئيس رئيسا ان لم يكن مع ذلك نديما يحسن المجز
والمفاكحة ويصلح للمجلس قبل صلاحه لسياسة الدولة ، فاصبحت
المنادمة باب السلوك الى الملوك وسلم الوصول الى الحظوة عندهم
والدالة عليهم ، والنقض والابرام في شئون الدولة بالزلفى الى أهوائهم ،
واحتماج الى علم هذه الصناعة كل ذى خطر فى الدولة لما كان عسى أن
يحتاج اليه من الترويح عن الخليفة وحسن المدخل عليه فى ساعات
صفوه وغضبه ونوبات اقباله واعراضه ، وكان أعلى ما يرجوه صاحب
العلم والأدب والفضل والكياسة أن يصبح نديما لملك أو مرييا لابن
ملك . وهما عملان متقاربان متشابهان فى الآلة والكفاءة . ولم يكن
من السهل أن يحذقهما الأديب لأنها صناعة تجمع صناعات وفن يلتم بشتى
فنون ، واليك مثلا ما كان يعرفه النديم الذى كان يرتقى به الحظ
الى مجالسة الأمراء والخلفاء . نقل ياقوت فى معجم الأدباء عن أمالى
جحظة النديم أن يزيد بن محمد المهلبى قال : « كنت أرى على بن
يحيى المنجب فأرى قببح صورته وصفر خلقته ودقة وجهه وصفر عينيه
واسمع بسحله من الواثق والمتوكل فأعجب من ذلك وأقول : بأى سبب
يستظرفه الخليفة وبماذا حظى عنده والقرء أملك من قباحتة ؟ فلما
جالست المتوكل رأيت على بن يحيى قد دخل على المتوكل فى غداة من
الغدوات التى قد سهر فى ليلتها بالشرب ، وهو مخمور يفور حرارة .
يستقل لكل أمر يخف دون ما يثقل ، فوقف بين يديه وقال : يا مولاي !
أما ترى اقبال هذا اليوم وحسنه واطباق النعيم على شمس خضرة هذا
الباستان ورونته ، وهو يوم تعظمه الفرس وتشرب فيه لأنه هرمزوز

(يوم هرمزد اله الخير) وتعظمه غلمانك واكرتك مثلى من الدهاقين ،
ووافق ذلك ياسيدى أن القمر مع الزهرة فهو يوم شرب وسرور وتخل
بالفرح ، فهش اليه وقال : ويلك يا على ! ما أقدر أن أفتح عيني خماراً ،
فقال : ان دعا سيدى بالسواك فاستعمله وغسل بماء الورد وجهه
وشرب شربة من رب الحصرم أو من متنة مطيبة ، مبرداً ذلك بالثلج انحل
كل ما يجد . فأمر باحضار كل ما أشار به فقال على : يا سيدى والى
أن تفعل ذلك تحضر عجلايتان بين يديك مما يلائم الخسار ويفتق
الشهوة ويعين على تخفيفه ، فقال احضروا علياً كل ما يريد . فأحضرت
العجلايتان بين يديه وفراريج قد صفت على أطباق الخلاف ، وطبخ
حماضية وحصرمية ومطجنة (١) لها مريقة فلما فاحت روائح القصور
هش لها المتوكل فقال له : يا على أذقنى . فجعل يذيقه من كل قدر
بجرف يشرب فيها . فهش الى الطعام وأمر باحضاره ، فالتفت على الى
صاحب الشراب فقال له : ينبغي أن يختار لأمير المؤمنين شراب ريحاني
ويزاد فى مزاجه الى أن يدخل فى الشرب فيهنئه الله اياه ان شاء الله .
قال : فلما أكل المتوكل وأكلنا نهضنا فغسلنا أيدينا وعدنا الى مجالسنا
وغنى المغنون فجعل على يقول : هذا الصوت لفلان والشعر لفلان ،
وجعل يفتنى معهم وبعدهم غناء حسناً الى أن قرب الزوال ، فقال
المتوكل : أين نحن من وقت الصلاة ؟ فأخرج على اضطراباً من فضة
فى خفة ، فقاس الشمس وأخبر عن الارتفاع وعن الطالع وعن الوقت ،
فلم يزل يعظم فى عيني حتى صار كالجبل وصارت مقابح وجهه محاسن .
فقلت لأمر ما قدمت : فيك ألف خصلة - طيب ومضحك وأديب وجليس
وحذق طباح وتصرف مهن وفكر منجم وفطنة شاعر . . ما تركت شيئاً
مما يحتاج اليه الملوكة الا ملكته .

وعلى بن يحيى هذا هو الذى ذكر ياقوت قيسل ذلك انه « كان
بكركر من نواحي القفص ضيعة نفيسة لعلى بن يحيى المنجم وقصر

(١) يراجع كتاب الاطعمة الموجود منه نسخة فى توفغرافية بالكتبة المصرية لمسرفة
معظم هذه الاسماء وطريقة تحضيرها .

جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم والعيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى . فقدم أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم ، فوصفت له الخزانة ففضى ورآها فهاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها النجوم وأغرق فيها حتى ألد ، وكان ذلك آخره عهده بالحج وبالدين والاسلام .

كذلك كانت مجالس المجتمع العالية وآداب جلاسها وندمائها . والحديث الذي نقله ياقوت مظنة للزيادة والنأليف في بعض أجزاءه ولكنه يدل في جلسته على المناقب والخصال التي كانت تطلب من النديم في ذلك الزمان . وترى من هذا الحديث كيف كانت سنة الفرس غالبية على مجالس الطرب وآدابها ومواعيدها وأدواتها ، كما ترى ذلك من أوصاف المهرجانات والنوايرز وأعياد الطبيعة ومنازه الرياضة والألعاب وانصيد والطرده وسائر المراسم والأزياء .

إذا تلخصت الحالة السياسية في سوء الظن فقد تلخصت الحالة الاجتماعية في اغتنام الفرصة . وان هذا وذلك في الحالتين لكالشيء وظله أو كالصوت وصداه .

الحالة الفكرية :

قال ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » يصف حالة عصره من العلم والأدب :

« انى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين . أما الناشء منهم فراغب عن التعلم والشادى تارك للازدياد والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ، ليدخل فى جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين . فالعلماء مضورون وبكرة الجهل مقموعون ، حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله وصار العلم عاراً على صاحبه ، والفضل نقصاً وأموال الملوك وفقاً على شهوات النفوس والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع ببيع الخلق ، وآضت المروءة فى زخارف النجد^(١) وتشيدت البنيان ، ولذات النفوس فى اصطفاق المظاهر ومعاطاة الندمان ، ونبتت الصنائع^(٢) و جهل قدر المعروف وماتت الخواطر وسقطت همم النفوس . فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازل أدينا أن يقول من الشعر آياتاً فى مدح قينة أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب وينظر فى شىء من القضاء ومن المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله بالتكذيب وهو لا يدري من نقله . قد رضى عوضاً من الله ومما عنده بأن يقلل فلان لطيف وفلاز دقيق النظر : يذهب الى أن لطف النظر قد أخرجه من جملة الناس وبلغ به علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغشاء والغثر وهو لعسر الله بهذه الصفات أولى وهى به أليق ! لأنه جهل وظن أن قد علم فهاتان جهالتان ، ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون . ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الاسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياء الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب وفى أخبار الرسول وصحابه وفى علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك

(٢) جمع منيعة وهى البر

(١) الاناث والفراش

وعاداه وانحرف عنه الى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون وقل فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا حسم . فاذا سمع القمر والحدث الفر قوله : الكون والفساد وسمع الكيان والأسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة - راعه ما سمع وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يحل منها بطائل ! انما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه ، ورأس الخط النقطة والنقطة لاتقسم ، والكلام أربعة أمر وخبر واستخبار ورغبة : ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهى الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ! والآن حد الزمانين ! مع هذيان كثير .. ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسع دقائق الكلام فى الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله وصحابه لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب .. فلما أن رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت له حظاً من عنايتى وجزءاً من تأليفى ، فعملت لنقل التآديب كتباً خفافاً فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن وأعفيتها من التطويل والتثقل .. وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الانسانية الا بالجسم ومن الكتابة الا بالاسم ولم يتقدم من الأداة الا بالقلم والدواة ، ولكنها لمن شدا شيئاً من الأعراب فعرف الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئاً من التصاريف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك . ولا بد له مع كتبنا هذه من النظر فى الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحاد والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات والقسى والمدورات والعمودين ، ويستحن معرفته بالعمل فى الأرضين لا فى الافاتر ، فان المخبر ليس كالمعائن وكانت العجم تقول : من لم يكن عالماً باجراء المياه وحفر فرص المشارب وردم المهاوى ومجارى الأيام فى الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر فى استهلاله واقعا له ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا

ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه وحال أدوات
الصناع ودقائق الحساب كان ناقصا في حال كتابته . ولا بد له مع ذلك
من دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث ، ليدخلها في تضاعيف
سطوره متمثلا اذا كتب ويصل بها كلامه اذا حاور ، ومدار الأمر على
القطب وهو العقل وجودة القريحة ، فان القليل معها باذن الله كاف
والكثير مع غيرها مقصر .

هكذا كان حلم ابن قتيبة على عصره .

وابن قتيبة أديب لغوي فقيه ولد في أوائل العقد الثاني من القرن
الثالث ومات في سنة ست وسبعين ومائتين ، ونشأ وعاش في بلاد
العراق . فهو معاصر ابن الرومي في زمنه وقرينه في وطنه وشاهد
عيان لذلك العصر يحدث عنه بما اختبر ورأى من صفات
أهله .

فهل أصاب ابن قتيبة أو أخطأ في حكمه ؟

لم يصب كل الصواب ولم يخطئ كل الخطأ ، وأيا كان حظه من
الصواب أو الخطأ فقد مثل عصره أحسن تمثيل ينظر اليه صاحب الأدب
واللغة والفقه ، وغاب عنه ما وراء ذلك من نظر لا يحيط به الذين
يتحزبون لهذه العلوم على فروع العلم كافة .

فمن حسن تمثيله للعصر أنك تعرف من مقدمته كل ما كان يشتغل
به أبناء عصره أو لا يشتغلون به من المعارف القديمة والحديثة ، وأنت
تعرف منه أن العصر لم يكن عصر العلوم القديمة وحدها ، لأن العلوم
الحديثة المنقولة والموضوعة أصبحت شرطا في الكتاب والأديب لانتهم
بغيرها كتابته وأدبه . حتى رأى مثل ابن قتيبة أنه في حاجة الى اظهار
مساهمته في هذه المعرفة وهو يدعو الى علم اللغة والكتابة ، لئلا
يستجمل ويعرض عنه .

والمعاصر من بعض الوجوه أصلح الناس للحكم على عصره، ولكنه
من وجوه أخرى أقل الناس صلاحا لانصافه والاحاطة بجميع نواحيه .

فهناك أشياء يراها القريب ولا تدخل في رؤية البعيد ، وهناك أشياء يحيط بها البعيد ولا يلمح منها القريب الا اليسير . كالناظر الى القمر في المنظار يرى جزءا منه كبيرا مفصلا ولكنه لا يراه كله ولا يقع نظره على ما حوله . ومثل هذا ما حدث لابن قتيبة حين كبر وصغر وتناول المقياس ليقدر فأخطأ فيما قدر .

أخطأ ابن قتيبة في شرح حالة العلم والتفكيرين أبناء عصره لأسباب متعددة : منها أن العلم لم يكن منهجا واحداً في ذلك العصر ولكنه كان مناهج كثيرة تشتمل على منهج أهل السنة المتشددين في انكار البدع ، ومنهج الفرق الاسلامية التي تدخل فيها فرق الشيعة وفرق المعتزلة على اختلافها وتباعد المسافة بينها ، ومنهج العلوم الحديثة من يونانية وفارسية وهندية وغيرها من مستحدثات الترجمة والابتكار ، ومنهج المتأدين المتطرفين الذين يقبسون كل قبس ويستطرفون كل طرفة . الى غير ذلك من المناهج التي تتقارب وتتباعد على نحو مما نعهد في زماننا الذي نجح فيه

مركز بحوث الدراسات والبحوث

وقد كان الخلاف والتعصب بين هذه المناهج على أشده في العراق لانه كان مجمع العواضم وملتقى العرب والمعجم ومثابة العلماء والأدباء من جميع الطوائف والمذاهب ، فرأى ابن قتيبة هو رأى المتشددين أنصار العلوم العربية لا يرون غيرها الا فضولا أو كالفصول ولا يحسبون المنطق والفلسفة والرياضة وما اليها الا لغوا قصاراه أن يلفظ اللاغظ بالكمية والكيفية والخط والنقطة والجوهر والمرض مع « هذيان كثير » .

ولكنه مع ازدرائه هذه العلوم الحديثة لم يلبث أن فرق من تهمة الجهل بها فذكر أطرافا من مصطلحاتها ودل بذلك على خطرها الذي لا يزدري ، ولكنها كما رأى القارىء أطراف مقتضبة كالتى نعاها على الأغرار المفتونين بظواهر تلك العلوم ، فلا يقولها القائل وله علم صحيح بما وراء تلك الأطراف .

ومن الأسباب التي باعدت بين الأديب اللغوى والاصابة التامة في

تمثيل عصره أنه كان أديباً ولفويماً ، وكان سبيل العلم بالأدب واللغة أن يتحرى الطالب ما تقدمه وأن يرتقى في تحرى القدم الى أبعاد عصوره . فلا ينظر الى العصور التي خلفت بعد العرب الأسبقين الا على أنها عصور فazole منحدره تسعن في الجهل والاسفاف بهتدار امعانها في البعد من العربية الجاهلية ا فعنده أن السلف قد ذهبوا بالخير كله ولم يبق للستأخرين الا أن ينعوا زمانهم ويأسوا على ما فاتهم ! وكل زمان هو شر الأزمنة في أوانه وخير الأزمنة - أو من خيرها - متى لحق بالماضى العريق ! وما برح ذم الانسان عصره واتقاصه اياه ديدن كل أديب فيما غبر وديدن بعض الأدباء في هذه الأيام . فابن قتيبة انما جرى على هذه العادة التي لا تستغرب في عهد البداوة العربية وفي عهد كل بداوة طبعت على تعظيم السلف والتفاخر بالأنساب والرجوع الى القديم .

على أن الرجل لو تجرد من هذه العادة لبقى سبب آخر لعله كان ينعه أن ينصف أبناء عصره أو يستجمع أخبارهم ويحسن المقابلة بينهم وبين من سبقهم ولحق بهم من أمثالهم . فربما كان بعض الجهابذة في أيامه متباعدين متفرقين في أقطار ذلك الملك الواسع لا يسمع بهم الا لما ، وربما كان القرييون منه في طريق العمل فلم يستووا بعد عنى غاية القصة ولم يلبسوا بعد هالة الخلود والشهرة ، وذلك فضلا عن الذين جاءوا بعدهم بقليل فهو لا يعرفهم ولا يطالب بأن يعرفهم .

والحقيقة أن ذلك العصر كان من أزهى عصور العلم في بلاد الاسلام قاطبة ، لأنه كان أول عصر تلقى علوم الثقافة الاسلامية كلها كاملة مفروغا من وضعها وترجمتها وتحضيرها غير مستثنى منها علوم السنة والعربية التي كان ابن قتيبة يتوفر عليها .

ففى القرن الثالث تست المذاهب الأربعة فى الفقه وظهرت آثار أقطاب الحديث كالبخارى ومسلم وأبى داود وابن ماجه والترمذى والنسائى ، ونزعت السياسة الى تأييد أهل السنة أيام الخليفة المتوكل ثم انتهى القرن بظهور أبى الحسن الأشعري الذى مال من مذهب

المعتزلة الى مذهب أهل السنة فقيل فيه « كان المعتزلة قد رفيعوا
رءوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجزهم في أقماع البسم ». ولم
يخل علم من العلوم القديمة أو الحديثة من أعلام نبغوا في القرن الثالث
أو حضروا أوائله ، حتى العلوم العربية التي كان ابن قتيبة يتهم القوم
بإهالها والجهل بفضائلها : وهي علوم الرواية والنحو والأدب . فمن
رجالها المشهورين الذين حضروا ذلك القرن الفراء ، وابن السكيت ،
وقطرب ، وابن الأعرابي ونفطويه والجاحظ وأبو عثمان المازني وثلعب
والزجاج والمبرد وابن الأنباري وابن دريد والأخفش والسجستاني
والصولي والرياشي وأبو سعيد البكري وقدامة بن جعفر وابن أبي
الدنيا وابن العلاء السكري وكثيرون ممن يضارعون هؤلاء أو يقلون
عنهم في الطبقة والشهرة . أما العلوم الأخرى فقد تأسس في ذلك القرن
التاريخ والجغرافية وعاش فيه من المؤرخين والجغرافيين البلاذري
واليمقوبي وأبو حنيفة الدينوري وأبو زيد البلخي والطبري وابن
البطريق وابن خرداذبه وابن الفقيه وابن رسته وبزرگ بن شهریار
وآخرون ، وكان من فلاسفته الكندي والفارابي وابن سينا ، ومن
أطبائه الرازي وابن سهل وابن ماسويه ، وراج علم النجوم حتى أو شك
إلا يكون في ذلك الزمن إلا منجم !

ولم يقتصر الأمر على نبوغ هؤلاء الأعلام في مناهج العلم المختلفة
بل تجاوزه الى طوائف الناس من خاصة وعامة . فتحدثوا بالعلوم
واشتغلوا بسحاوراتها ومناظراتها وأقبلوا على اقتناء كتبها ، فكان العصر
عصر ثقافة عامة كثرت فيه المشاركة في مسائل البحث والمطالعة وشاع
ذلك بين الناس أوسع شيوع ، حتى كان الرجل منهم يجتمع بين أشنات
الثقافة في زمنه كما رأيت فيما نقلناه عن علي بن يحيى المنجم أو كما ترى
من قول ابن الرومي في رجل يصفه بدعوى العلم في معرض الهجو
والتهكم :

قولا لظوط أبي علي بصرينا الشاعر المنجم
المنذر المضحك المغنى الكاتب الحاسب المعلم

الفيلسوف العظيم شأنًا العائف القائف المعزم
الماهن الكاهن المعادي في نصر ابليس كل مسلم
وبلغت هذه النهضة العلمية حدًا أضجر الظرفاء كما أضجر المتشددين،
فكان الفتى المهذب يومئذ إما طالب علم قديم أو طالب علم حديث أو
مشاركاً في هذا وذلك أو ظريفاً ضجرًا من أكثر هؤلاء على حد وصف
ابن المعتز :

قليل هموم القلب إلا للذة ينعم نفساً آذنت بالتقل
فإن تطلبه تقتنصه بحسنة والا يبستان وكرم مظل
يعب ويسقى أو يسقى مدامة كمثل سراج لاح في الليل مشعل
ولست تراه سائلًا عن خليفة ولا قائلًا من يعزلون ومن يلي
ولا صائحًا كالعير في يوم لذة يناظر في تفضيل عثمان أو على
ولا حسبًا تقويم شمس وكوكب ليعرف أخبار العلو من أسفل
يقوم كحرباء الظهيرة مائلًا يقلب في اصطرلابه عين أحول
ولكنه فيما عناه وسره وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

والظاهر أن علم النجوم والرياضيات على الجملة كان أروج العلوم
الحديثة وأكثرها طلابًا، لطرافته وموافقته أحوال الزمن وتقلباته وشيوع
الحضارة الفارسية التي كان أهلها يعبدون الكواكب وينوطون بها
مقادير الخير والشر وطوالع السعود والنحوس ، ولم يكن الإيمان
بالسعد والنحس والزجر والقيافة غريباً عن العرب فقبلوا العلم الحديث
غير متعسرين ، وأفرطوا فيه ذلك الإفراط الذي لم يرض عنه ابن قتيبة
ولم يرض عنه ابن المعتز ، وهما في هذا المقام طرفان !

وربما كان من تمام البيان عن آراء المتعلمين يومئذ في فنون العلوم
المختلفة أن نأتى هنا على رأى « النجوميين » فى أنصار القديم كما
أتينا على رأى أنصار القديم فى النجوميين . فقد كان هؤلاء يهزون
بالمتشددين كما كان المتشددون يهزون بهم ، وكانت لهم فى التناذر
بانقوم دعابات ونكات أظرفها وضع فيما نظن على لسان أحمد بن

ثوابه الكاتب المعروف في زمنه وجمعت فيه نكات العصر على كارهي الهندسة والرياضة وما اليها . قال أبو حيان في كتاب الوزيرين : « ... أن صديقا لابن ثوابه الكاتب أبي العباس يكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم : انك بحمد الله ومنه ذو أدب وفصاحة وبراعة ، فلو أكملت فضائلك بأن تضيف اليها معرفة البرهان القياسي وعلم الاشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء وقرأت أقليدس وتدبرته ! ... »

ثم نقل أبو حيان عن ابن ثوابه أنه كتب الى صديق له سألته عما حدث بينه وبين معلمه الهندسة فأجابه بعد تطويل وحوالة واستعادة. بنا يأتي :

« ... فأخذ القلم ونكت نكتة نقط منها نقطة تخيلها بصرى وتوهمها طرفى كأصغر من حبة الدر ، فزمزم عليها من وساوسه وتلا عليها من حكم أسفار أباطيله ثم أعلن عليها جاهرا بافكه وأقبل على وقال : أيها الرجل ! ان هذه النقطة شيء لاجزاء له ، فقلت : أضللتني ورب الكعبة وما الشيء الذي لاجزاء له ؟ فقال كالبيسط .. فقلت أة : وما الشيء البسيط ؟ فقال كالله والنفس ! فقلت له انك من الملحدين . أتضرب لله الأمثال والله يقول فلا تضربوا لله الأمثال ان الله يعلم وأتم لاتعلسون ؟ فلما سمع مقالتي كره استعاذتي فاستخفه الغضب فأقبل على مستبسلا وقال : انى أرى فصاحة لسانك سببا لعجمة فهمك . وتدرعك بقولك آفة من آفات عقلك . ذلولا من حضر والله المجلس واصغأؤهم اليه مستصويين أباطيله ومستحسنين أكاذيبه وما رأيت من استهوائه اياهم بخدعه وما تبينت من توازرهم لأمرت بسل لسان اللكم الألكن وأمرت باخراجه الى حر نار الله وسعيره .. »

ومضى ابن ثوابه يذكر كيف جاءوا له بمعلم مسلم بعد هذا المعلم النصرانى وكيف استعظم هذا المعلم المسلم عليه أن يدرك النقطة وقال له :

(١) ! اللعيب الذ ليل النفس .
(٢) راجع معجم الادباء فى ترجمة ابن ثوابه

«وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة؟ فقلت استجهلنى ورب الكعبة! وأخذ يخط وقلبي مروع يجب وجيأ وقال لى غير متعظم : أن هذا الخط طول بلا عرض ، فتذكرت صراط ربي المستقيم وقلت له قاتلك الله ! أتدرى ماتقول ؟ تعالى صراط ربي عن تخطيطك وتضليلك ! انه لصراط مستقيم وانه لأحد من السيف الباتر والحسام القاطع وأدق من الشعرة وأطول مما تمسحون وأبعد مما تذرعون : أتطمع أن ترحزحني عن صراط ربي وحسبتي غراغيبا لا أعلم ما فى باطن الفاظك ومكنون معانيك ؟ والله ما خططت الخط وأخبرت أنه طول بلا عرض الا ضلة بالصراط المستقيم لتزل قدمي عنه وأن ترديني فى جهنم ! أعوذ بالله وأبرأ اليه من الهندسة وما تدل عليه وترشد اليه .. انى برىء من الهندسة وما تطنون وتسرون»

فهذا مثل بارع من السخرية التي كانوا يقابلون بها سخريه القوم من المنطق والنجوم . والكتاب على ما فيه من الصورة الهزلية يدل بين مسطوره على حقائق كثيرة : منها استفاضة تلك العلوم وجلالة خطرها بين المتأدين حتى أن رجلا كابن ثوابه بلغ من المكانة والسن مبلغه يخف الى تعلقها ويحسب أن مروءته لا تكمل بين ذوى العلم بغير درسها ، ومنها أن أشياعها كانوا من الكثرة وأن أساتذتها كانوا من التجلة والهيبة بحيث كان يعز على ابن ثوابه أن يجد فى مجلسه رجلا واحدا يؤازره ويرضى له أن يهين المعلم الذى جبهه بالقول الخشن واستطال عليه بالتقريع فى داره . وليس يخفى ان الهزل كالغضب كلاهما مصور مبالغ موكل بالعلو فى التكبير والتصغير ، فلا المتشددون كانوا كما مثلهم لنا أبو حيان فى دعابته وهزله ولا المشغوفون بالحديث كانوا كما مثلهم لنا ابن قتيبة فى نكرانه وغضبه ، بيد أننا اذا حسبنا كل حساب لمبالغة الهزل ومبالغة الغضب بقيت المسافة طويلة بين الفريقين والبرزخ الفاصل بينهما متعذر العبور على تقارب الجيرة فى الزمان والمكان .

وسكان دار لا تزاور بينهم على قرب بعض فى المحلة من بعض وليس يصعب على القارىء أن يتخيل هذه الحالة بجملتها لأنها

أشبه شيء بما نحن فيه الآن من تباعد وتقارب واتصال في الثقافات وانفصال ، أو لعل الفرق الوحيد بيننا وبينهم أن عصرهم كان عصر الموالى الذين يدخلون العصبية الشعوية في هذا الخلاف ويجتهدون في درس العلوم الحديثة لأنها تنافس العلوم العربية وتضيف إليها ما ليس منها ، وهم يودون ألا يحصروا الدين والعلم والسيادة جيباً في العرب ، وألا يستأثر العرب دونهم بكل مائة وفضيلة . وقد يشعرون بهذا القصد أو لا يشعرون ، ولكنهم حريون أن تسيل بهم ضئيرهم هذا الميل إذا وقع التنافس بين العرب والشعوية والتست المتأخر من الجانبين .



مركز تحقيقات كميونر علوم إسلامي



الشعر

قد تكثر دراسة الآداب والعلوم ولا شعر ، وقد يكثر الشعر ولا دراسة للآداب والعلوم . أما القرن الثالث للهجرة فقد كان جامعا لأشتات الثقافة بفروعها : كثير الآداب والعلوم كثير الشعر كثير المعنيين بالأشعار .

عاش في ذلك القرن - ولا سيما أوائله وأواسطه - نخبة من جلة الشعراء النابغين كأبي تمام والبحتري والحسن بن الضحاك وعلي بن الجهم ودعبل الخزاعي وابن المعتز وابن الرومي ، وعاش فيه مع هؤلاء مئات من قالة الشعر المحسنين وغير المحسنين والمخترفين وغير المخترفين وأوشك أن يكون كل متعلم متأدب شاعراً ينظم الأبيات والمقاطع في بعض أغراضه . فالخلفاء كانوا ينظفون للغزل والغناء ، والأمراء والوزراء سواء منهم الفرس والعرب - كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشيء الكثير ، والمنتسبون إلى الفرس والأعاجم كانوا أسبق إلى المنافسة في هذا المضمار لينفوا عنهم تهمة العجمة ويدخلوا مع العرب في ميدان الفصاحة : ومن الأمراء الفرس الذين مدحهم ابن الرومي من وضع كتاباً في الشكر فسنة مختارات مما قيل في هذا المعنى وختمه بأماديح ، يطرى به صديقه العلاء بن صاعد على حروف المعجم ، ونعنى به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عبيد بيته العريق الذي تخرج منه كبار القواد والولاة .

لهذا كان ابن الرومي يقول وهو يشكو :

قد بلينا في دهرنا ببلوك أدباء غلستهم شسعراء
لأنه كان يشعر بالمنافسة ولا يشعر بانعطف من جانب هؤلاء
الزملاء .

وندر في ذلك العصر من خلا شعره من آثار الحضارة التي أجملنا وصفها فيما تقدم . فمن لم تظهر في شعره المعاني الفلسفية والآراء

الطريفة التي سرت الى المتأدين من مذاكرة علم الكلام والعلوم
المرجبة ظهرت فيه محسنات اللفظ والمعنى التي كشفها البحث في
أشعار المتقدمين وأدت اليها المعارضة بين أقوال الفحول واستطلاع
أسرار البلاغة فيما أجادوه ، ومن لم يظهر في شعره هذا وذلك ظهرت
فيه تفخيمات الفرس وترصيعاتهم وجاءته العدوى من أساليب الكتاب
في النثر المنمق وأساليب التحية في المجالس وأساليب المعيشة في
القصور ، وربما عرضت الكلمة الفارسية في البيت العربي مسا له
المرادفات بالعشرات كقول شاعرنا .

يا أيها الملك الذي في برده قمر وشير

يعنى الأسد . . .

وربما نظموا في أوزان الشعر الفارسية كالدويت والرباعية ، أو
تفننوا في التسيط والتوشيح والازدواج على نحو ما نراه من كلف
بعض الشعراء المعاصرين باختراع الأوزان والأعاريض .

وامتاز هذا العصر والذي تقدمه بما يصح أن نسميه علم الشعر
تمييزاً له من العناية بنظم الشعر نفسه . فقد كان الشعراء المولدون
يأتون بالمحسنات البليغة عفواً أو محاكاة للأقدمين أو تصرفاً في
الاختراع ، ولا يسمون هذه المحاسن بأسئائها أو يستخرجون منها علماً
مرتباً على أقسام معززة بشواهد ، وسبق في هذا المجال أمثال بشار
ومسلم والعتابي وأبو نواس ، وتلاهم أبو تمام وتلامذته في أوائل
القرن الثالث . ثم تسكن حب التعريف والتقسيم والتخريج والتأويل من
عقول الأدباء ، وكتب الجاحظ وقدامة بن جعفر وابن المعتز في هذه
المعاني فاذا علم جديد مقيس على الشواهد معروف بالأساء .

وما انتهى القرن الثالث حتى كانت لهم نظرة في الشعر كالنظرة
التي رواها صاحب زهر الآداب عن العاتسي اذ يقول :

« مثل القربة مثل الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ،
فستي انفصل واحد عن الآخر وبأينه في صحة التركيب غادر الجسم

ذاهة تتخون محاسنه وتعفى معالنه ، وقد وجدت لحدائق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون فى مثل هذا الحال احتراماً يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الاحسان ، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها واعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم واعتماد البديع وأفانينه فى أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم التعامل عن كذا الى كذا وقصارى كل أحد منهم وصف ناقة بالعتق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطأها فادرع عليها جلابب الليل ، وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يتعمده ، الا أن طبعه السليم وصراطه فى الشعر المستقيم نضى تياره وأوقد باليفاع ناره « الى أن يقول بعد آيات أوردتها للنابعة الديباني :

« وهذا هو كلام متناسب تقضى أوائله أواخره ولا يتميز منه شىء عن شىء ... ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى وفتحوا أبواب البديع واجتثوا ثمر الآداب وفتقوا زهر الكلام لكان معجزاً عجيباً . »

فهذه النظرة تريك أثر البديع فى كتابتهم وفى تقديم القصيدة . فأما الكتابة فهذا نمط منها تكثر فيه الاستعارة مع القصد الى معنى يراد ويفهم ، وأما النقد فمذهبهم فى وحدة الأغراض واتصال الأجزاء لا يخالف مذهب المعاصرين الا باستحسان التلفيق بين المديح والنسيب، وعذرهم أن المديح كان قوام حياة الشاعر يومئذ فما كان الاستغناء عنه والاعتماد على النسيب وحده بالمستطاع .

وغنى عن القول بعد هذا أن «التنبه» كان هو النسبة الغالبة على الشعر كله فى ذلك العصر الدائب على التفتيش والانتقاد ، فكان

شاعرهم ينظم القصيدة وهو واع لنفسه عامد لترتيب أبياته عارف بسواضع التجويد فى لفظه ومعناه ، وتتابع الشعراء كبارهم وصغارهم على هذا فكان فيهم كل ما فى هذه الطريقة من المآخذ والنضائل ومن عناصر الضعف والقوة .

وتغيرت أغراض الشعر فهذا الذى يقول فيه ابن قتيبة انه لا يعدو مدح قينة أو وصف كأس . . . ! وانما كان هذا الامام الناقد الذى درس الشعر ووازن بين أصوله وفصوله مستنكراً مستصغراً يرى الشوهة ويفض عن الحسنه . ولولا ذلك لرأى أن الشعر قد كان يعدو مدح انثيان ووصف الكتوس الى أغراض كثيرة تشمل كل وصف وتدخل فى كل معرض من معارض الحياة فى ذلك الزمان ، ولم يقل فيها الا ما كان وفقاً على أغراض البداوة وأيام الجاهلية الأولى . لأن هذه البداوة قلت فلم يكن لها نصيب من الشعر الا القليل .

لكننا نخاله كان على حق فيما شكاه من شح الجوائز وكساد سوق أهل الأدب عامة عند الملوك والأمراء ، فاشتعال هؤلاء الملوك والأمراء بالشعر ونظمه وحفظه وروايته شىء واجازتهم عليه الجوائز السنوية شىء آخر . انما كانوا فى عصر ثقافة يود فيه كل امرئ كامل المروءة أن يعرف كل ما يعرف من الآداب والفنون والملاهى ، فاذا تعلقوا بالشعر فكما يتعلم الرجل المثقف التوقيع على المعازف والشععوذة وطرائق التفكهة والاضحاك فى مجالس السر ، ولا يلزم من ذلك أن يكون لهذه الأشياء أثر لأهلها المنقطعين لها خطر فى نفسه .

ولا عجب أن يكثر الناظمون وحافظو الشعر فى زمن كانت الوزارة فيه والكتابة - أو صناعة الأدب - فناً واحداً وشارة واحدة ، وكان معظم الوزراء والولاة من الأدباء الذين ظفروا بالخطوة عند الخلفاء ، ولكن أموراً كثيرة طرأت فى أواخر ذلك العصر كان من جرائمها تطفيف أرزاق الشعراء وابتلاؤهم بكثرة النظراء وقلة النصراء : ومنها توزع العناية بين العلوم الحديثة والشعر الذى كان مستأثراً بعناية

العرب في صدر الدولة الاسلامية ، ومنها غلبة المنادمة على الشعر وترجح
صفة النديم على صفة الشاعر اذا تعذر الجمع بين الصفتين ، ومنها
قلة الاكتراث للمدح والذم حين استبحر العمران واستفاضت المناعم
واللذات وشاعت الاباحة والمجون ، ومنها كثرة الشعر والشعراء فقد
أصابه وأصابهم ما يصيب كل كثير من الرخص والبوار ، ومنها أن
الدعوة السياسية خرجت كلها - أو أغلبها - من أيدي الشعراء الى
أيدي الدعاة الذين تفرغوا لهذه الصناعة وبلغوا بها أيام العباسيين
والعلويين شأوا من البراعة والانتقان قلما يفاق في عهد من العهود ،
ومنها اضطراب أمور الحكم واختلال أحوال الرعية في أواسط القرن
الثالث بين عشرين سعيدين فات السابق ولم يأت بعده أوان اللاحق :
ونعنى بهما عصر الهيبة والثروة والعطايا والملك الموطن المرجو المخوف ،
وقد ذهب . وعصر الأمراء الذين تقسموا المملكة واستقر كل منهم على
جزء منها وتنافسوا بينهم في اجتلاب الشعراء والتشبه بالخلفاء ، ولم
يأت بعد ا

فكان الشعراء ضائعين من هنا وهناك ، وربما كان هذا سر خفوت
الشعر وقلة الشعراء المجيدين في الربع الأخير من القرن الثالث ، والربع
الأول من القرن الذي تلاه .

الدين والاخلاق

إذا عرفت حالة السياسة وحالة الاجتماع وحالة التفكير فليس
بالحالة الدينية ولا الخلقية خفاء .

لأن عقيدة المرء شديدة الصلة بتفكيره ومعيشته ومجرى الأحكام
في زمانه ، وظاهر بعد ما تقدم أن الدين في القرن الثالث لم يكن «دين
القطرة» الذي يؤمن به شعب لم يعرف الترف والفساد ، ولم يشهد من
ولاته الا العدل والاستقامة ، ولم يتعود أن يناقش نفسه في عقيدته
وعقيدة غيره . فنشوء المذاهب واختلاف الآراء ضرورة لامحيد عنها في
أمثال تلك الأحوال .

كتب ميرزا بن حسان البري الى أحمد بن سليمان بن أبي شيخ
يسأله عن مذهبه ولم يكن أحد يقف على حقيقته :
دخلتنا الشكوك يا ابن أبي شيخ بأي الأديان أنت تسدين
والى أيها نميل أبا جعفر كم ذا البري وذا التلويين ؟
فأجابه عنه ابن الرومي :

يا ابن حسان لا تشكن في د . . ولا تتشمك في الظنون
فهو توحيد ذي الجلال وتصدق الذي بلغ الرسول الأمين

فاعد عني وانظر لنفسك دوني ليس يجزي سواي عما أدين

وستوان ابن حسان له مغزاه . فما كان له من محل لو أنهم كانوا
يصدقون أن الرجل في زمانهم يطن ما يظهر ويؤمن بالدين الذي
يؤمن به الناس كافة . فكأنما كان المفروض في طائفة من الناس أن
يظنوا سرائرهم على مذهب غير مذهب الاجماع وسر في الاعتقاد غير
الذي يبدو علانية من « توحيد ذي الجلال وتصدق الذي بلغ
الرسول » .

وليس بعجيب أن يكون الأمر كذلك والعهد عهد الملل والنحل

والأحزاب والعصبيات والدعوات والبحث والتفسير . فما من نحلة كانت ولا شعبة من نحلة الا كان لها أنصار ولأنصارها شأن مافى بعض الجهات . ولا سيما العراق ملتقى الأمم ومشتجر النزاع ومتوسط الرقعة الاسلامية ومثابة الحضارات القديمة والحديثة . وما كان أكثرها من نحل وأشدّه من لهج بالاتتحال !! لكأنما كانت بلاد الدولة العباسية معرضا للنحل ومستبقا للمشاقة بين المنتحلين !! ففيه التشيع بدرجاته والاعتزال بطوائفه والسنة باختلاف أقوال المجتهدين فيها والفلسفة بمذاهبها والعلوم الحديثة بشعابها ، وفيه ما بين هذا وذاك أشكال من التدين يجيء بها دخول الفرس والروم والديلم فى الاسلام عمداً أو على غير عمد . فبعضهم كان يسلم وهو فى الباطن على دين آباءه ، وبعضهم كان يخلص فى اسلامه ولكنه ينقل الى دينه الجديد موروثات دينه القديم ، وذلك فضلا عن النصارى واليهود وعباد الأوثان . وكلهم على اختلاف المذاهب والعصبيات كهذا الاختلاف ، فغير مستغرب أن يسأل المرء عن دخيلة رأيه وباطن اعتقاده فى هذا المعرض الحاشد بالطوائف والأديان .

الا أننا لا لنخطيء أشد الخطأ اذا فهمنا من هذا أن الاباحة حلت محل الدين فى تلك الفترة فتعفى أثره وبطل سلطانه . فان مداراة الآراء التى تخالف الأجماع لاتدل على ذلك بل لاتدل الا على نقيض ذلك ، والمعهود فى أمثال تلك الفترة أنها تقبل الغلو فى التدين كما تقبل الشكوك وتعدد المذاهب ، كأن الاحساس بالخطر على العقيدة يحرك بواعث الغيرة عليها ويزعج النفوس الى المنافحة عنها ، فاذا رأيت الاباحة والترخص فى جانب لم تلبث أن ترى الغلو والتشدد فى الجانب الآخر ولا يخفى أن هذا الجانب الآخر هو الأقوى والأكبر لأنه جانب العادة الخالدة والعدد الأكثر .

وربما لاح للناس أنهم تبدلوا الدين فيما يشعرون الا وهم يلبسون دعواته ويتعصبون لأهله ويظنون فى أنفسهم أنهم غير متدينين ! ولقد كان مع الترخص فى اباحة اللذات اناس غالون فى النهى عنها يشورون

على أصحابها في الحين بعد الحين ليقوموا المنكر باليد واللسان . ومن هؤلاء فئة ببغداد خرجت - بعيد مولد ابن الرومي - تهجم على البيوت فتريق الخمر وتضرب القيان وتكسر العيدان ، وكان ينادى في ببغداد قبيل وفاته - أي في سنة تسع وسبعين ومائتين - « ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاص ولا منجم ولا زاجر » وحلف بالوراقون ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة .

بل كان ابن الرومي اذا ذكر الخمر في مديح أمير أسرع فاستدرك قائلاً انها الشراب الحلال لا الشراب الحرام :

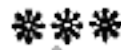
لا المدام الحرام لكن حلال سؤر نار يحثها طابخان
شارك الخمر في اسمها ليس الا أن أداموه مثلها في الدنان
وحكاها في اللون والريح والطا هم ولطف الديق في الجثمان
فهو لا خمر في الحقيقة لكن هو خمر في الظن والحسبان
ومثل هذا لا يقال الا وللدِين هبة وللفرائض رعاية .

وهناك الضمائر التي لا تقوى على الشك لأنها تستريح الى التسليم والائتكال ، فهي اما أن تهرب من الشكوك والأقاويل الى ايمان بسيط لا لاجابة فيه ، أو تهرب منها الى اللهو والمؤانسة وما يعينها في الحاضر بين يديها لحظة بعد لحظة ، كما قال ابن المعتز :

ولكنه فيما عناه وسره وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل
وأصحاب هذه الضمائر - حين يحسبون - أقرب الى المؤمنين منهم الى المتشككين .

وما يقال في الدين يقال في الأخلاق . فلا ريب في أن السياسة القائمة على السلب والغبلة ، والآداب القائمة على اغتنام الفرص واتهاب اللذات ، والعقائد القائمة على ما رأيت من الشك والتشعب - قلما تبقى للنفوس بقية صالحة من الأخلاق ومسكة عاصمة من الغواية . ولكننا حريون أن نذكر أن نفوس الدهماء مطبوعة على العزاء ، وأن

أكبر العزاء لها فى هذه الفترات أن تحسب الغواية والرذيلة من مساوىء
الغنى والجاه وتعتمضم هي بالصبر والرجاء ، وفى بنية الأمة أبداً مثل
ما فى بنية الحى من العوامل المكافحة للفساد التى لاتنى تصون الجسم
زماً ولا تبرح تلهم وظائفه السداد وان ضل العقل وأنحى على الجسم
بما ينهكه ويرديه . فتظل هذه العوامل ناشطة فى بنية الأمة ولو تراءى
للنظر من مشاركة بعض الطبقات أنها وقعت فى الاضمحلال . فلا يحسن
بنا أن نبالغ فى تضخيم شأن الفوضى التى ابتليت بها العقائد والأخلاق
فى تلك الفترة الشاذة المتناقضة . فهى ولا ريب كبيرة وبيلة ولكنها
ليست أكبر ولا أوبل مما قد يعترى أمماً كثيرة وتواتيها بعده أسباب
السلامة .



ذلك عصر ابن الرومى بخيره وشره وزيادته ونقصه . لقائل
أن يقول فى أطواره ما شاء أن يقول ، وأن يختلف فى أوصافه
ما شاء أن يختلف ، ولكن وصفاً واحداً من تلك الأوصاف لايجوز
فيه أقل اختلاف : ذلك أنه كان فى خيره وشره عصرأ حياً يصنع
التواريخ وليس بالعصر الميت الذى يطويه التاريخ فى ثناياه .
وقد وضعنا له حدوداً من أرقام السنين لضرورة الحصر والتقريب ،
ولكننا لم نرد بتلك الأرقام الا أن تكون معالم فى طريق الزمن يهتدى
بها الى البدايات والنهايات ، وليست هى البداية والنهاية ولا هى محور
الابتداء والانتها .



الفصل الثاني

اخبار ابن الرومي

العصر والرجل

في تاريخ كل أمة عصر أو عصور اشتهرت بكثرة الذين ظهروا فيها من النوابغ والعبقرين في الشعر والأدب والعلم والفن والصناعة ، فيقول الذين يرجعون الفضل كله الى العصر وحده أن أحوال العصر هي التي عليها المعول في تكوين المواهب والعبقريات .

وفي تاريخ كل أمة أيضا نوابغ وعبقريون ظهروا في مختلف العصور على تفاوت الأحوال بين عصر وعصر وبيئة وبيئة ، فيقول الذين يرجعون الفضل كله الى ملكة الفرد واستعداده أن العصر لا يخفى شيئا في تكوين المواهب والعبقريات، أو أنه - اذا لم تسعف الموهبة والعبقرية قليل الغناء .

ونحن يجب أن نحذر كل فكرة يراد بها أن تخدم فكرة أخرى ، فهي تفقد استقلالها كله أو بعضه كما يفقد استقلاله كل من يخدم سواه . انما تحترم الفكرة اذا أريدت لنفسها ولم ترد لتأييد فكرة هي مضافة اليها .

فيغلب على الذين يحصرون الفضل في العصر وحده أنهم يدعون الى الاجتماعية والاشتراك في مرافق الأمة . فيقللون من شأن الأفراد في الوصول الى حظ من حظوظ العلم والمال بغير مساعدة المجتمع ومئاته الحوادث .

ويغلب على الذين يحصرون الفضل في الفرد وحده أنهم

ينازعون أصحاب ذلك الرأي وينظرون الى تفنيده وتوهينه لا بطلان ما يدعو اليه .

فهم مخطئون وأصحابهم أولئك مخطئون . ولا يرجي الاخلاص وصدق التحري في فكرة مسخرة تساق في ذيل مذهب تعتد عليه أو يعتد هو عليها . فلا العصر هو كل شيء ولا الموهبة الفردية هي كل شيء ، والأمر الذي لا مرأى فيه هو أن العصر لا يخلق الموهبة اذا هي لم توجد في صاحبها . وأن بعض العصور من الجهة الأخرى أصلح لاظهار المواهب والعبقريات .

ثم ان العصر اذا لم يخلق الموهبة خلقا فهو بلا ريب يوجهها ويهيء لها أسباب تمامها واستوائها ، بحيث يسهل علينا أن نفهم كيف أن عبقرية من العبقريات تهتدى على وجهتها في زمن ولا تهتدى اليها في زمن آخر ، وكيف أن رجلا يكون صانعا في هذا العصر أو ذاك وهو لو ولد في غيره لكان من الأدباء أو السنواس .

ولا فائدة هنا من البحث في مصير ابن الرومي ماذا كان يتقى وماذا كان يصبح لو أنه ولد في غير القرن الثالث للهجرة . فقد ينبغ أو لا ينبغ ، الا أن المحقق عندنا أنه في أي عصر ظهر لا يكون الا شاعرا أو صاحب عمل فنى بسبيل من الشعاعية . فقد تخيل أبا تمام - مثلا - قاضيا والبخترى عاملا والمتنبى وزيراً والمعري فقيها والشريف خليفة أو اماما من أئمة الطرق ، وقد تخيلهم جميعاً ظاهرين بارزين في غير هذه الأعمال التي بزاولها أبناء الدنيا ويفلحون فيها على درجات من الفلاح ، فهم يصلحون لها ولغيرها بعض الصلاح وان كانوا مع هذا شعراء وذوى قدم فى مناهج الشعاعية أما ابن الرومي فهو لا يصلح الا للشعر وما اليه ولا ينشعه العصر ان لم ينشعه فى هذا المجال . فاذا تمهد له الشعر فقد استوى على نهجه . واذا لم يكن شاعرا فهو لا شيء .

والعصر الذى عاش فيه كان صالحاً لظهور ابن الرومي أيضا صلاحاً : كان صالحاً لظهور ابن الرومي - الشاعر - لأنه كان عصرأ حياً

حافلاً بأشتات الحياة وألوان الاحساس مشغولاً بالشعر والعلم وكل ما تشغل به قريحة أو سليقة ، وكان فيما عدا ذلك عصر الموالي أو عصراً للموالي فيه نصيب وافر من التعلم والتأدب والترية التي تعد صاحبها للسبق في كل مضمار .

كان لهذا عصرًا صالحاً لظهور ابن الرومي الشاعر الذي لا متقدم له في غير الشعرية .

ولكن أترأه كان ذلك عصرًا صالحاً لظهور ابن الرومي - الرجل - الذي لم تبق منه الشعرية بقية لمسعاة ولا لتصرف ؟

لا ! لم يكن ذلك العصر صالحاً لابن الرومي الرجل كما كان صالحاً لابن الرومي الشاعر . بل لم يكن ذلك العصر الا عصر مضيعة له ولأمثاله الذين خلقوا في هذه الدنيا وكأنهم أطفال في حجر الفن ، لا يكفلون أنفسهم ان لم تلحظهم من الدنيا كفالة ساهرة .

فكانت قسمته تلك من غرائب القسم التي تتنازع الانسان بين النقيضين ، كأنه جسم مشدود للتعذيب بين قطبين متجاذبين .

فمن جهة هو في زمنه الذي لم يخلق لغيره ، ومن جهة هو في الزمن الوحيد الذي لم يخلق له ولم يتزود له بآلة : ابن الرومي الشاعر في عصر الحياة والاحساس والدراسة والموالي فهو بخير ... وابن الرومي الرجل في عصر الدهاء والخبث والصراع الجهني فهو بشر ما يكون عليه مثله ... ولا سبيل الى الافتراق بين الشخصين ، ولا سبيل كذلك الى التوفيق بينها على حال !

لو كان ابن الرومي شاعراً وشيئاً آخر لكان قيناً أن يرضى بعصره وأن يرضى به عصره : لو كان شاعراً ورجلاً يحسن الخوض في معترك العيش بين تلك الفتن والمغامرات لالتقى بعض الاخفاق على الأقل وارتجى بعض النجاح . لكنه كان شاعراً وحسب ولم يكن له زاد آخر غير السليقة الفنية ! فجنى الشاعر على الرجل ولم يسعد الشاعر بما جناه . ومن هنا ذلك التفاوت بين نصيب شعره ونصيب شخصه ، وذلك الخطأ

في تقدير مكانه وسمته . فهو خامل وليس بخامل وهو نابه وليس له نصيب النباهة ! شعره نافع وقائل الشعر كاسد ... وربما عابوا شعره في حياته وأكثروا من عيبه . ولكنه يسير من النظر قد ترى أنهم لم يقصدوا بالعب الشعر كما قصدوا القائل .. وان كان في الشعر ما يعاب !

فالذين سبق اليهم أن ابن الرومي كان مجهول القدر في حياته وبعد مائة انما نظروا الى اجدى صفتيه ولم ينظروا الى الصفحة الأخرى انما كان خمول الرجل انه لم ينتفع بمعرفة الناس اياه لا أنه لم يعرف، وربما كان له خمول آخر وهو أنه لم يعرف بأحسن مزاياه . أما أنه قد عرف فذلك حق لا شك فيه .

وقد ازداد الناس معرفة به بعد موته كما اتفق كثيراً لمعظم الأدباء والعلماء . فقال العبيدي صاحب الابانة المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وهو يذكر المتنبى : « ولا أقيسه في امتداد النفس وعلم اللغة والاعتدال على ضروب الكلام وتصوير المعاني العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارعة والآداب الواسعة بابن الرومي » . وقال ابن رشيح صاحب العمدة المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة : « أكثر المولدين اختراعاً وتوليداً فيما يقول الحذاق : أبو تمام وابن الرومي » . وقال ابن سميذ المغربي المتوفى سنة ثلاث وسبعين وستمائة في كتابه عنوان المرقصات والمطربات : « ويقولون أنه أحق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليده » . وذكر وقاته ابن الأثير المتوفى سنة ثلاثين وستمائة فقال « ان ديوانه معروف » . أي أن هذا الديوان كان متداولاً في أيدي الأدباء الى أيامه . ونظر الى معانيه كثير من فحول الشعراء والأدباء منهم المتنبى وبديع الزمان والمعري والشريف، وشاعت مختاراته في كتب الأدب فلم يخل منها الا قليل .

أما أخباره فقد عني بكتابتها وروايتها اثنان من أدباء عصره ، وهما عبيد الله بن المسيب وأبو عثمان الناجم . وثالث هو أحمد بن عمار

قال ابن المسيب انه لما مات ابن الرومي « عمل كتابا في تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس »

ويظهر أن أبا عثمان سعيد بن هاشم الخالدي من أدباء القرن الرابع توسع في ترجمته اما في كتابه حماسة المحدثين أو في كتاب مقصور عليه ، ولكن أخباره هذه ذهبت كلها ولم يبق منها أثر الا متفرقات في الكتب لاتغنى في ترجمة وافية ولا شبيهة بالوافية ، وهي على قلتها لايسعنا اغفالها ولا يسعنا كذلك أن نعتمد عليها ونقبلها على علاقتها .

فنحن ننقلها كما هي فيما يلي ثم نعقب عليها ونستخرج منها ما في الوسع أن نستخرجه من ترجمة للرجل تدل عليه وتستحضر للذهن صورة لمبقرته ، ومثلنا في ذلك كبثل المنقبين في المحفورات اذ يعشرون ببعض العظام المهشمة من جسم مدثور ، فهم يقيسون المفقود على الموجود ويضنون بما وجدوه على الضياع ولولم يكن به قوام .

أخبار ابن الرومي :

ولد ابن الرومي كما جاء في ابن خلكان : يوم الأربعاء بعد طلوع
الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة احدى وعشرين ومائتين ببغداد في
الموضع المعروف بالعقبة ودرب الختلية في دار بازاء فصر عيسى بن
جعفر بن المنصور .

وبحثنا كثيرا في الكتب التي عثرنا، على شيء من أخباره فيها، فلم
نجد ذكرا لأبويه وأهله ولا لأيام حدائنه وتعليمه ، وانقطعت أخباره
في هذه الفترة فلم تقع لنا الا النوادر التي رويت عنه وهو شاعر
لا تعرف منه الا بالنظر الى تواريخ الوقائع التي وردت في شعره . فجاء في
معجم الأدباء لياقوت الحموي أثناء الكلام على أحمد بن عبيد الله
ابن محمد بن عمار .

لا ... ووجدت في كتاب ألفه أبو الحسن علي بن عبيد الله
ابن المسيب الكاتب في أخبار ابن الرومي ، وكان ابن المسيب هذا
صديقا لابن الرومي وخليطا له : كان أحمد بن محمد بن عبيد الله
ابن عمار - هكذا قال في نسبه بتقديم محمد علي عبيد الله - صديقا
لابن الرومي كثير الملازمة له ، وكان ابن الرومي يعمل له الأشعار
وينحله اياها يستعطف بها من يصعبه ، وكان ابن عمار محدودا فقيرا
وقاعة في الأحرار وكان أيام افتقاره شديد السخط لما تجرى به الأقدار
في آناء الليل والنهار . حتى عرف بذلك فقال له علي بن العباس بن
الرومي يوما : يا أبا العباس ! قد سميتك العزيز . قال له : وكيف
وقعت لي على هذا الاسم ؟ قال لأن العزيز خاصم ربه بأن أسأل من
دماء بني اسرائيل على يدي بختصر سبعين ألف دم ، فأوحى الله لئن
لم تترك نجابتي في قضائي لأمحونك من ديوان النبوة ! وقال فيه :

وفي ابن عمار عزيرة يشارك الله بها في القدر
لم كان ما كان ولم لم يكن مالم يكن، فهو وكيل البشر
الخ .. الخ ..

وكتب ابن الرومي الى أحمد بن محمد بن بشر المرثدي قصيدة
يبدحه بها ويهنئه بولود ولد له ويحضره على بر ابن عمار والاقبال
عليه يقول فيهما :

ولى لديكم صاحب فاضل أحب أن يرعى وأن يصحبا

الخ الخ

قال : « وصار محمد بن داود بن الجراح يوما الى ابن الرومي
مسلما عليه فصادف عنده أبا العباس أحمد بن محمد بن عمار وكان
من الضيق والأملق فى النهاية ، وكان على بن العباس مغموما به فقال
محمد بن داود لابن الرومي ولأبى عثمان الناجم : لو صرتما الى وكثرتما
بما عندي لأنس بعضنا بعض . فأقبل ابن الرومي على محمد بن داود
فقال : أنا فى بقية علة وأبو عثمان مشغول بخدمة صاحبه - يعنى
اسماعيل بن بلبل - وهذا أبو العباس بن عمار له موضع من الرواية
والأدب وهو على غاية الإمتاع والابتناع بشمساهدته ، وأنا أحب أن
تعرف مثله ، وفى العاجل خذه معك لتقف على صدق القول فيه فأقبل
محمد بن داود على أحمد بن عمار وقال له تفضل بالمصير الى فى هذا
اليوم وقبله قبولا ضعيفا ، فصار اليه ابن عمار فى ذلك اليوم ورجع
الى ابن الرومي فقال انى أقمت عند الرجل وبت وأريد أن تقصده
وتشكره وتؤكد أمرى معه ، ومحمد بن داود فى هذا الوقت متعطل
ملازم منزله . فصار اليه وأكد له الأمر معه وطال اختلافه اليه الى أن
ولى عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد واستكتب محسد بن داود
الجراح وأشخصه معه وقد خرج الى الجبل ورجع وقد زوجه بعض
بناته وولاه ديوان المشرق ، فاستخرج لابن عمار أقساما أغناه بها
وأجرى عليه أيضا من ماله ، ولم يزل يختلف اليه أيام حياة محمد بن
داود ، وكان السبب فى أن نعشه الله بعد العثار واتناشه من الاقتار ابن
الرومي ، فما شك ذلك له وجعل يتخلفه ويعيبه وبلغ ابن الرومي ذلك
فهجاه باهاج كثيرة .. قال ابن المسيب : ومن عجيب أمر عزيز هذا أنه

كان ينتقص ابن الرومي في حياته ويؤذي على شعره ويتعرض لهجائه فلما مات ابن الرومي عمل كتاباً في تفضيله ومختار شعره وجلس يملئه على الناس .

وجاء في الجزء الأول من العمدة لابن رشيقي :

« وهجا ابن الرومي البحتري وابن الرومي من علمت فاهدي اليه تخت متاع وكيس دراهم وكتب اليه ليريه أن الهدية ليست تقيّة منه ولكن رقة عليه ، وأنه لم يحمله على ما فعل الا الفقر والحسد المفرط .

شاعر لا أهابه نبحتني كسلايه
ان من لا أعززه لعزيز جوابه

وروي المرزباني في الموشح أن عبد الله بن يحيى العسكري أخبره عن أبي عثمان سعيد بن الحسن الناجم أن البحتري قال له :

« انتهى أن أرى ابن الرومي » قال فوعده ليوم بعينه وسألت ابن الرومي أن يصير الي فيه ، فأجابني الى ذلك . فلما حصل ابن الرومي عندي وجهت الي البحتري فصار الي ، فقال له البحتري : فد أقراني أبو عيسى بن صاعد قصيدة لك في أيه وسألني عن الثواب عنها ، فقلت أعطوه لكل بيت ديناراً . ثم تحدثنا ، فقال البحتري : عزمت على أن أعمل قصيدة على وزن قصيدة ابن الرومي الطائية في الهجاء . فقال له ابن الرومي : اياك والهجاء يا أبا عبادة ، فليس من عملك وهو من على فقال له : تتعاون . وعمل البحتري ثلاثة أبيات ، وعمل ابن الرومي ثمانية فلم يلحقه البحتري في الهجاء . وكان اجتماعهما عندي سبباً للمودة بينهما .

وروي المرزباني أيضاً في الموشح :

« أخبرني محمد بن يحيى قال كنت يوماً عند عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر فذكرنا قصيدة ابن الرومي في أبي الصقر التي أولها :
« أجنّت لك الوجد أغصان وكتبان » فقال عبيد الله : هي دار البطيخ !

فضحك الجماعة ، فقال : اقرءوا تشبيها فانظروا ، هي كما قلت! قال
محمد : وقد ملح عبيد الله وظرف ، وهذه القصيدة أكثر من مائتي
بيت مر له فيها احسان كثير ، ومن تشبيها مما يدل على قول
عبيد الله :

أجنت لك الوجد أغصان وكتبان فيهن نوعان تفاح ررمان
وفوق ذينك أعصاب مهدلة سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب يلوح به أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهر فأكهمة وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات سارى الظل يضربه وأقحوان منير النور ريدان
الفن من كل شيء طيب حسن فهن فأكهة شتى وريحان
فلما سمع أبو الصقر قوله :

هذا الذى حكيت قديما بسؤدده
عدنان ثم أجازت ذاك قحطمان
قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبان

قال : هجانى والله ! قيل له : هذا من أحسن المديح ، اسمع ما
بعده :

وكم أب قد علا بآبن ذرى شرف كما علا برسول الله عدنان
فقال أنا بشيبان ليس شيبان بى : قيل له : فقد ظل :
ولم أقصر بشيبان اتى بلغت
بها المبالغ أعراق وأغصان
لله شيبان قوم لا يشيهم
روع اذا الروع شابت منه ولدان

فقال « والله لا أثيبه على هذا الشعر وقد هجانى فيه . قال الشيخ
أبو عبيد الله المرزبانى رحمه الله تعالى . وهذا ظلم من أبى الصقر لابن
الرومى وقلة علم منه بالفرق بين الهجاء والمديح » :

وجاء في الجزء الثاني من زهر الآداب أن علي بن العباس الرومي كان «مفرط الطيرة شديد الغلو فيها . قال عبد الله بن المسيب : وكان يحتج لها ويقول ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة أفتراه كان يتفاهل بالشيء ولا يتطير من ضده ؟ ويقول ان النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يرحل ناقه ويقول ياملعونة ، فقال لا يصحبنا ملعون ، وأن علياً رضى الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في العقب ، ويزعم أن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها ، وأن بعض الناس هي في طباعهم أظهر منها في بعض ، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال: علي وجه من أصبحت اليوم . فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدى الى عدة من جوارى القيان ، وكانت فيهن صبية حواء وعجوز في احدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ولم يظهر لى أمره وأقام باقى يومه، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت لى ابنة من بعض السطوح وجفاه القاسم بن عبيد الله فجعل سبب ذينك المعينين المغنيتين وكتب الى :

أيها المحتفى بحول وعيتور أين كانت منك الوجوه الحسان؟
قد لعمري ركبت أمراً مهيناً
سأءنى فيك أيها الخلفان
فتحك المهرجان بالحول والعمو
رأنا ما أعقب المهرجان
كان من ذالت فقدك ابتك الحر
ة مصبوغة بها الأكفان
وتجافى مؤمل لى جليل
لج فيه الجفاه والهجران
فلما غاب من أمورك عنوا
ن مبين ، وللزمان لسان
لا تكن بالهوى تكذب بالاخبا
ر حتى تهين ما لا يهان
لا يقدك الهوى الى نصره الاخبا
ر حتى يقسدم البرهان
ان عقبى الهوى هوى وعقبى
طول تلك المهونات هوان
لاتصدق عن النيين الا
بحديث يلوخ فيه البيان
خبر الله ان مشامة كا
نت لقوم وخبر القرآن
أفزور الحسدث تقبل أم ما
قاله ذو الجلال والفرقان
أتري من يرى البشير بشيراً
يترى فى الشذير ياوسنان
يرة والنصح مشن مجسان
فدع الهزل والتضحك بالظ

وجاء في ذلك الجزء بعد ذلك :

« وكان أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش غلام أبي العباس المبرد في عصر الرومي شابا مترفا ومليحا مستظرفا ، وكان يعيبه فيأتيه بسحر فيقرع الباب ، فيقال له من ؟ فيقول قولوا لأبي الحسن مرة بن حنظلة ، فيتطير لقوله ويقيم الأيام لا يخرج من داره وذلك كان سب هجائه اياه .. فاعتذر اليه وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد ، وكان الأخفش أكثر الناس اخوانا فقبل عذره ومدحه بقصيدته التي يقول فيها :

ذكر الأخفش القديم فقلنا ان للأخفش الحديث لفضلا

الخ .. الخ ..

ثم عاد علي بن سليمان الي أذاه واتصل به ان رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعن عليها فقال قصيدته التي يقول فيها

ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه السكلاب والقرده
ولا أنا المفهم البهائم والطير سليمان قاهر المردة
فان يقل اني حفظت فكالكه فتر جهلا بكل ما اعتقده
سأسمع الناس ذمه أبدا ما سمع الله حسد من حسده

« »

وفي الواقع بينه وبين الأخفش يقول الزبيدي تلميذ أبي علي القالي وهو صاحب طبقات النحويين المتوفى سنة تسع وسبعين وثلثمائة :
« حدثني أبو علي قال : كان علي بن العباس الرومي لا يدع التطير والتفاؤل في جميع حركاته وتصرفه وكان علي بن سليمان الأخفش قد أولع باعتراضه في مخارجه فيما يتطير به ، فربما صرفه بذلك عن وجهه وربما دق عليه الباب فاذا قال من أنت ؟ قال الشؤم والبلاء ! فلا يرح علي بن العباس يوم ذاك ، فلما شئ عليه ذلك هجاه فأقذع في هجائه ، فكان الأخفش يستعمل حفظ هجائه ثم يئليه فيما يئلي من الأخبار

والأشعار على أصحابه ، فلما رأى على بن العباس أن الأخفش لا يألم لهجائه أقصر عنه .

ويقول صاحب العمدة في هذه الوقائع بينه وبين الأخفش :

« وقد مزقه بالهجاء كل مسزق وجعله مثله بين أصحابه . على أن الأخفش كان يتجلد عليه ويظهر قلة المبالاة به وهيهات وقد وسمه وسمة الدهر وسامه سوم الخسف والقهر . »

والأقوال في طيرة ابن الرومي كثيرة منها ما استطرده الى ذكره صاحب زهر الآداب حيث قال بعيد ما أسلفنا نقله :

« ولابن الرومي في الأخفش افحاش صنت الكتب عنه ، قال على ابن ابراهيم كاتب مروك البلخي : كنت بداري جالسا فاذا حجارة سقطت بالقرب مني ، فبادرت هاربا وامرت الغلام بالصعود الى السطح والنظر الى كل ناحية ، من أين تأتي الحجارة ، فقال : امرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد تشوفت ، وقالت : اتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء والا هلكنا فقد مات من عندنا عطشا . فتقدمت الى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد اليها وتخطبها ، ففعلت وبادرت بالجرة واتبعها شيئا من الماكولات ثم عادت الى فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومي ، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعود ثم يصير الى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع عينه على جار له كان نازلا بازائه ، وكان أحذب يقعد كل يوم على بابه ، فاذا نظر اليه رجس وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب . فعميت لحديثها ، وبعثت بخادم كان لي يعرفه ، فأمرته بأن يجلس بازائه وكانت العين تميل اليه ، وتقدمت الى بعض أعوانه أن يدعو الجار الأحذب ، فلما حضر عندي أرسلت وراءه غلامي لينهض الى ابن الرومي ويستدعيه الحضور ، فاني لجالس ومعي الأحذب إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي ومعه برذغة الموسوس صاحب المعتكف ، ودخل ابن الرومي فلما تخطى عتبة باب الصحن عشر فانقطع شسع نعله : فدخل مذعورا ، وكان اذا

فاجأه الناظر رأى منه منظرا يدل على تغير حال . فدخل وهو لا يرى
جاره المتطير منه، فقلت له يا أبا الحسن أياك شئ في خروجك أحسن
من مخاطبتك للخادم ونظرك الى وجهه الجميل ؟ فقال قد لحقني ما
رأيت من العثرة لأنى فكرت أن به عاهة وهى قطع أثيبه ! قال بردعة:
وشيخنا يتطير ؟ قلت نعم ويفرط ، قال ومن هو ؟ قلت على بن العباس .
قال : الشاعر ؟ قلت نعم . فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه
بتفريق ما بينى وبين الحساب
رجعت الى نفسى فوطنتها على
ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها
فأيامه مخسوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه
وكن حذرا من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر والطرح
تطير جار أو تفاؤل صاحب

فبقى ابن الرومى باهتا ينظر اليه ، ولم أدر أنه شغل قلبه بحفظ
ما أنشده ثم قام أبو حذيفة وبردعة معه ، فحلف ابن الرومى لا يتطير
أبدأ من هذا ولا من غيره ، وأوما الى جاره ، فقلت ، وهذا الفكر أيضاً
من التطير ، فأمدك . وعجب من جودة الشر ومبناه وحسن مأناه ،
فقلت له ليتنا كتبناه ! قال اكتبه فقد حفظته وأملاه على .

ومن شدة حذره وعظيم تطيره قوله لأبى العباس بن ثوابة وقد
تدبه الى الخروج اليه وركوب دجلة .

حضضت على حطبي لنارى فلا تدع
ومن يلق مالا قيت فى كل محنة
لك الخير تحذيرى شرور المحاطب
من الشوك يزهد فى الثمار الأطايب
الى وأغراني برفض المطالب
اذاقتنى الاسفار ما كره الغنى

ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب
فصبرى على الاقتار أيسر مطلباً على من التغير بعد التجارب

الخ .. الخ .

وهى طويلة وفيما مر كفاية تنبىء عنه وتدل عليه . ولو مددت
أطناب الاختيار لتبع هذا النحو من شعره لخرجت عن غرض
الكتاب .

وفى الجزء الأول من العدة أنه : « كان كثير الطيرة ربما أقام
المدة الطويلة لا يتصرف تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه ، حتى أن بعض
أخوانه من الأمراء افتقده فأعلم بحاله فى الطيرة ، فبعث إليه خادماً
اسمه اقبال ليتفاهل به : فلما أخذ أهبطه للركوب قال للخادم : انصرف
الى مولاك ا فأتى ناقصاً وبمعكوس اسمك لا بقا .. وابن الرومى
القائل : الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان، وله فيه احتجاجات
وشعر كثير . »

وقال على بن عبد الرحمن العباسى صاحب معاهد التنصيص المتوفى
سنة ثلاث وستين وتسعمائة : « كان كثير التطير جداً وله فيه أخبار
غريبة وكان أصحابه يبعثون به فيرسلون اليه من يتطير من اسمه فلا
يخرج من بيته أصلاً ، ويستنع من التصرف سائر يومه ، فأرسل اليه
بعض أصحابه يوماً بغلام حسن الصورة اسمه حسن ، فطرق الباب
عليه فقال من ؟ قال حسن . فتفاهل به وخرج ، وإذا على باب داره
حائوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ألف ورأى تحتها نوى
تمر ، فتطير وقال : هذا يشير بأن لا تمر ، ورجع ولم يذهب معه ، وكان
الأخفش على بن سليمان قد تولع به فكان يقرع عليه الباب إذا أصبح ،
فاذا قال من القارع ؟ قال مرة بن حنظلة ! ونحو ذلك من الاسماء التى
يتطير بذكرها ، فيحبس نفسه فى بيته ولا يخرج يومه أجمع ، وكتب
اليه ينهاه ويتوعده بالهزاء . »

وجاء في هذا الكتاب قبل ذلك : « ... حكى ابن درستويه أن
لائما لأمه فقال له : لم لا تشبه كشيبيات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟
فقال ألا تشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله ؟ فأشده
قوله في الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلتة حمولة من عنبر
فقال له زدني ، فأشده قوله في الآذريون الأصفر وهو زهر أصفر
في وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر
إليه وفرشه في النزل :

كان آذربونها والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه ! تالله لا يكلف الله نفساً الا وسعها ! ذلك انسا
يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن أنظر
إذا أنا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس ؟ هل لأحد قط مثل
قولي في قوس الغمام .

وساق صبيح للصبح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا على الجود كنا والحواشي الأرض
يطرزها قوس السحاب باخضر على أحمر في أصفر أثر مبيض
كاذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وبعضهم ينسبها لسيف الدولة بن حمدان منهم صاحب اليتيمة .
وقولي في صانع الرقاق :

ان أنس لا أنس خبازاً مرتت به يلحو الرقاقة مثل الملح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه ككرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقصدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يلقي فيه بالحجر

وقولى فى قالى الزلاية :

ومستقر على كرسية تمب رأيته سحراً يقلى زلايسة
روحي الفداء له من منصب نصب فى رقة القشر والتجويرف كالقصب
كانما زرتة المقلى حين بدا كالكيماى التى قالوا ولم تصب
يلقى العجسين لجينا من أنامله فيستحيل شبايكا من الذهب

وفى الجزء الثانى من زهر الآداب : « كان ابن الرومى منهوما فى الماكل ، وهى التى قتله . وكان محجبا بالسك فوعده أبو العباس المرثدى أن يبعث اليه كل يوم بوظيفة لاتقطع . فبعث اليه يوم سبت ثم قطعه ، فقال :

ما لحياتنا جفتنا وأنى أخلف الزائرون متظريهم
جاء فى السبت زورهم فأتينا من حفاظ عليه ما يكفيهم
وجملناه يوم عيد عظيم فكأنا اليهود أو نحكيهم
وأراهم مصمين على الهجـ ر فلم يسخطون من يرضيهم؟
قد سبتنا وما أتنا وكانوا يوم لا يبتون لا تأتيهم

فاتصل ذلك بالناجم فكتب الى ابن الرومى ..

أبا حسن أنت من لا نرا ل نحمد فى الفضل رجحانه
فكم تحسن الظن بالمرثد ي وقد قلل الله احسانه
ألم تدر أن التى كالسرا ب اذا وعد الوعد اخوانه
فبحر السراب يفوت القلو ب فقل فى طلابك حيتانه!

وخرج ابن الرومى الى بعض المنزهات وقصدوا كرما رازقيا فشربوا هناك عامة يومهم ، وكانوا يتهمون فى شعره ، فقالوا ان كان ما تشدنا لك فقل فى هذا شيئا ، فقال لا تريموا حتى أقول فيه وأنشدهم لوقته .

ورازقى مخطف الخصبور كأنه مخيـازن البلور
الخ .. الخ .

وفى الجزء الأول من هذا الكتاب : « وكان ابن الرومى لا يزال

معتما وكان يفضب اذ سئل عن ذلك ، وسأله بعض الرؤساء : لم
تعتم ؟ فقال بديها :

يا أيها السائل لاخبره عنى : لم لا أراك معتجسرا
أستر شيئا لو كان يمكنى تعريفه السبائلين ما ستر

وقد بين العلة التي أوجبت اعتسامه فى قوله :

تعمت احصانا لرأسى برهسة من القر يوما والحرور اذا سفع
فلما دهمى طول التعمم لمتى وأودى بها بعد الاطالة والفرع
عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت على من الصلح
فيالك من جان على جناية جعلت اليه من جنايته الفزع
وأعجب شيء كان دائى جعلته دوائى على عمد ، وأعجب بأن نفع!

وفى الجزء الثالث من هذا الكتاب : « قالوا : وكان الناس
يتشوقون الى أوطانهم ولا يفهمون العلة فى ذلك حتى أوضحها على
ابن العباس الرومى فى قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه
على رجل من التجار يعرف بابن أبى كامل أجبره على بيع داره واغتصبه
بعض جدرها بقوله :

ولى وطن آليت ألا أبيعسه وألا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعا بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وجب أوطان الرجال اليهم ماأرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهد الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألقته النفس حتى كأنه لها جسد ان بان غودر هالكا

الخ .. الخ ..

وقال على بن عبد الكريم النصيبى : أتانى أبو الحسن بن الرومى
بقصيدته هذه وقال : انصفتى وقل الحق .. أيها أحسن قولى فى
الوطن أو قول الأعرابى .

أحب بلاد الله ما بين منعج الى وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت على تمائسى وأول أرض مس جلدى تراها

فقلت : بل قولك ، لأنه ذكر الوطن ومحبه وأنت ذكرت العلة التي
أوجبت ذلك ..

وتخلف سليمان عن نصره ابن الرومي فذاك الذي هاجه على
هجائه ، فمن ذلك قوله وقد خرج في بعض الوجوه فرجع مهزوما .

جاء سليمان بن طاهر	فاحتاج معتز بن المعتصم
كأن بغداد وقد أبصرت	طلعت نائحة تلتدم
مستقبل منه ومستدبر	وجه بخيل وقفا منهزم

وقال :

قرن سليمان قد أضربه
كم يعد القرن باللقساء وكم
لا يصرف القرن وجهه ويرى
شوق الى وجهه سيتلفه
يكذب في وعده ويخلفه
قفاه من فرسخ فيعرفه

مركز تحقيقات مركز الدراسات والبحوث

وقال المعري في رسالة الغفران : « أما ابن الرومي فهو أحد من يقال
أن أدبه كان أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة ، واستعار من
أبي بكر بن السراج كتابا فتقاضاه به فقال ابن الرومي لو كان المشتري
حدثا لكان عجولا ، والبغداديون يدعون أنه متشيع ويستشهدون على
ذلك بقصيدته الجيمية . وما أراه الا على مذهب غيره من الشعراء ،
ومن أولع بالطيرة لم ير فيها من خيرة » .

أما وفاته ففيها يقول المسعودي في كتابه مروج الذهب . « ومن
أهلك القاسم بن عبيد الله على ما قيل بالسم في خشكنا نجة على بن
العباس بن جريج الرومي ، وكان منشؤه ببغداد ووفاته بها ، وكان من
مختلفي معاني الشعراء والمجودين في القصير والطويل متصرفا في
المذاهب تصرفا حسنا ، وكان أقل أدواته الشعر .. وكان ابن الرومي
الأغلب عليه من الاخلاط السوداء ، وكان شرها نهما وله أخبار تدل على

ماذكرناه من هذه الجمل مع أبي سهل اسماعيل التوبختي وغيره من آل التوبخت .

واختلفت الروايات في قتله فقال الشريف المرتضى في أماليه :

« أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الكاتب قال حدثني محمد بن يحيى الصولي قال حدثني الباقراني قال : اتصل بعبيد الله بن سليمان ابن وهب أمر علي بن العباس الرومي وكثرة مجالسته لأبي الحسين القاسم ابنه ، وسمع شيئا من أهاجيه فقال لأبي الحسين : قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا . فدخل يوما عبيد الله إلى أبي الحسين وابن الرومي عنده فاستنشده من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلا ، فقال لأبي الحسين بينه وبينه : إن لسان هذا أطول من عقله ومن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر في عاقبه فأخرجه عنك ! فقال أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه في دولتنا ويذيعه في تمكننا . فقال يا بني ! اني لم أرد باخراجك له طرده ، فاستعمل فيه بيت أبي حية التميمي .

فقلت لها سرا : فدينك لا يرح سلينا ، وان لا تقتليه فالمني

فحدث القاسم بن فراس بما جرى ، وكان أعدى الناس لابن الرومي وقد هجاه باهاج قبيحة . فقال له : الوزير أعزه الله أشار بأن يفتال حتى يستراح منه ، وأنا أكفيك ذلك ، فسمه في الخشكناج فمات . قال الباقراني والناس يقولون ماقتله ابن فراس وانما قتله عبيد الله . قال ابن الرومي لما رجع إلى داره وقد دب السم في أعضائه شعرا .

اشرب الماء اذا ما تلهب نار أحشائي لاطفاء اللهب

فأراه زائدا في حيرتي فكان الماء للنار حطب

هذه رواية . .

واعتمد ابن خلكان رواية أخرى فقال : « توفي يوم الأربعاء اليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة أربع

وثمانين ، وقيل ست وسبعين ومائتين بيغداد ، ودفن في مقبرة باب
البيستان وكان سبب موته رحمه الله تعالى أن الوزير أبا الحسين القاسم
ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من
هجوه وفتلات لسانه بالفحش ففس عليه ابن فراش (هكذا) فأطعمه
خشكناجة مسمومة وهو في مجلسه ، فلما أكلها أحس بالسم فقام ،
فقال له الوزير الى أين تذهب ؟ فقال الى الموضع الذي بعثني اليه ،
فقال له سلم على والدي ! فقال له ما طريقي على النار ! وخرج من
مجلسه وأتى منزله وأقام أياما ومات ، وكان الطبيب يتردد اليه ويعالجه
بالأدوية النافعة للسم فزعم أنه غلط في بعض العقاقير ، وقال ابراهيم بن
محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه : رأيت ابن الرومي يجود
بنفسه فقلت له : ما حالك ؟ فأشدد :

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت موارد عن الاصدار
والناس يلحون الطبيب وانما غلط الطبيب اصابة المقصدار

وقال أبو عثمان الناجم الشاعر : دخلت على ابن الرومي أعوده
فوجدته يجود بنفسه فلما قمت من عنده قال لي :

أبا عثمان أنت حميد قومك وجودك للمشيخة دون لومك
تزود من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بعند يومك

وللناجم قصة عن وفاة ابن الرومي رواها ابن القارح في رسالته
الى المعري وفيها يقول :

« دخلت عليه في علة التي مات فيها وعند رأسه جام فيه ماء
مثلوج وخنجر مجرد لو ضرب به صدر خرج من ظهر . فقلت : ما هذا؟
قال : الماء أبل به حلقى ، فقلما يموت انسان الا وهو عطشان . والخنجر
ان زاد على الألم نحرت نفسي ، ثم قال : أقص عليك قصتي تستدل
بها على حقيقة تلفي أردت الانتقال من الكرخ الى باب البصرة ،
فشاورت صديقنا أبا الفضل وهو مشتق من الافضال فقال : اذا جئت
القطرة فخذ عن يسارك وهو مشتق من اليمن واذهب الى سسكة

النعيمة وهو مشتق من النعيم ، فاسكن دار ابن المعافى وهو مشتق من العافية . فخالفته لتعسى ونحسى وشاورت صديقنا جعفرنا وهو مشتق من الجوع والفرار فقال : اذا جئت القنطرة فخذ عن شمالك وهو مشتق من الشؤم ، واسكن دار ابن قلابة . وهى هذه لاجرم قد انقلبت بى الدنيا . وأضر ما على العصافير فى هذه السدرة تصيح «سِق سِق» فما أنا فى السياق . ثم أنشدنى :

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك فى العشيرة دون لومك
تمتع من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بمسد يومك

وألح به البول ، فقلت له : البول ملح بك . فقال :

غداً ينقطع البول ويأتى الويل والغول
الا أن لقاء الله هـ هول دونه الهول



ومات من الغد »

وروى صاحب زهر الآداب اتفاقاً أن ابن الرومى فصد فى مرض وفاته من سياق قصته عن بعض معانيه المأخوذة حيث يقول فى الجزء الأول من الكتاب :

« دخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله فى التغير فأخبر أنه مشغول فرجع ، فبعث اليه الرشيد . خنتنى فاهمتنى ، فقال اذا انقضت المدة كان الحنف فى الحيلة ، والله ما انصرفت الا تخفيفاً . أخذه ابن الرومى فقال وقد فصدته بعض الأطباء فزعم أن القصد زاد فى علته . غلط الطيب الى آخر البيتين ... ولهذا القصة قيمتها فيما يلى من البحث فى أسباب وفاته .

هذه أنفع الأخبار التى وردت فى ترجمته . أما ديوانه فقد جاء عنه فى الفهرست لابن النديم أن شعره « كان على غير الحروف . رواه عنه المسيبى ثم عمله الصولى على الحروف وجمعه أبو الطيب وراق ابن

عبدوس من جميع النسخ فزاد عن كل نسخة مما هو على الحروف
وغيرها نحو ألف بيت .

ثم ذكر أسماء رواة وعدة الأوراق التي كتبها من شعره وهم:
مثقال غلام ابن الرومي مائة ورقة ، ورواه أبو الحسن علي ابن
العصب الملحي عن مثقال عن ابن الرومي .

ابن الحاجب غلام ابن الرومي مائة ورقة ، أحمد بن أبي قر الكاتب
مائة ورقة ، خالد الكاتب وعمله الصولي مائتا ورقة .
والصولي هو أبو بكر الصولي الحافظ الراوية المشهور .



مرکز تحقیقات کتابخانه و اسناد ملی جمهوری اسلامی ایران

الفصل الثالث

حياة ابن الرومي

كما تؤخذ من معارضة اخباره على شعره

ذلك كل ما عثرنا عليه من أخبار ابن الرومي متفرقا في كتب الأدب والتاريخ ، لم تترك منه الا نبذا قليلة تجيء في مواضعها من فصول هذا الكتاب ، والا الفصول الذي لا يتنظم في مادة الترجمة ولا يزيدنا علما بالرجل أو بأدبه وشعره .

وكل هذا الذي عثرنا عليه وما يشابهه في مادته لا يجزىء في ترجمة وافية أو فيما يقرب من ترجمة وافية . لأنه مفرد الزيادة في مواضع ومفرد النقص في مواضع أخرى ، وبين أجزائه فجوات بعيدة لا تترك خلوا ، ولا حيلة لنا الآن في ملئها . فلا خبر عن صباه ولا عن دراسته ولا عن أهله ولا عن أمر مفصل موثوق به من أمور معيشته ، وبغير هذه العناصر الجوهرية لا تقوم ترجمة ولا يكمل تصوير رجل . وعلى هذه القلة في الأخبار التي بين أيدينا لانراها تسلم من الخطأ حيناً ومن المبالغة أحيانا . فنحن - على حد المثل الذي اخترناه - كمن يؤتى له بمغلام ناقصة لبنى منها بنية جسم كامل ، وفيها مع هذا عظام مدسوسة لا تدخل في بنية الجسم الذي يراد تركيبه !

الا أن ابن الرومي يعوضنا بعض العوض من ذلك النقص الكبير بخاصة فريدة فيه ليست في غيره من الشعراء : هي مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته في شعره .

فما من أحد كان له شأن في حياته الا وجدت اسمه في ديوانه ممدوحا أو مهجوا أو موصوفا أو مردودا عليه ، وما عاب أحد مشيته

أو آكله أو لبسه العمامة أو طريقته في النظم الا كان لذلك خير مفيد
في ديوانه ، ولم يعرف عنه أنه كان يشتهي طعاما أو فاكهة الا وذلك
معروف من شعره قبل أن يعرف من نوادر المتحدثين عنه ، وما خامر
طويته خلق محمود أو مذموم الا شهد به على نفسه كأنه في حرج
من أمر كتمانته .

أقر على نفسي بعيبي لأنني أرى الصدق يحو بينات المعايير
لثومت لعمرك الله فيما أتيت به وان كنت من قوم كرام المناصب
ولا بد من أن يلثوم المرء نازعا الى الحمأ المسنون ضربة لازب

على أنه يشهد بخلة الكذب على نفسه كما يشهد لها بهذا الصدق
المقرون باظهار العيوب ، فيقول في أصرح عبارة:

واني لذو حلف كاذب اذا ما اضطرت وفي الأمر ضيق
وهل من جناح على من رهنك يدافع بالله ما لا يطيق ؟ !

ويقول في تسجيل حرصه وجينه :

وأصبحت في الأثرأه أزهذ زاهد وان كنت في الأثرأه أرغب راعب
حريصا جبانأه اشتهى ثم اتمى بلعظى جناب الرزق لحظ المراقب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يربنى غايته قبل مذهبي ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب

ويتوهم أن أقاسا سيميبون مجونه في مجلس الشراب ويرون أنه
لا يطيق بما يدعى من العلم والوقار فيسبقهم الى ذلك ويقول :

وأرى أن معشرا سسيقولون ذ سخييف من الرجال لعوب
أين عنه وقار ما يدعيه من علوم لحاملها قطبوب
ولعمري أن الحكيم وقور ولعمري أن الكريم طروب

ويحس ديبب الشيخوخة في مأرب نفسه وخلجات قلبه فيخشى
أن يفوته تسجيل ذلك كله كأنه محاسب عليه معاقب على تقويته ،
فيقول لقراءه :

اكتهت همتي فأصبحت لا أبهـ ج بالشئ كنت أبهج به
وحسب من عاش من خلوقه خلوقة تعسره في أربه
وهكذا في الصغائر والكبائر ، وفي وقائع العيش وخواطر
السريرة ، وفيما يلتقى به الناس ويلقى به الله .
وقد تجد في الشعراء من تعرف بعض وقائعه من قراءة شعره ،
ومن تستطلع خلائقه من ثنايا كلامه ، ولكن ابن الرومي لا يحوجك الى
التعرف والاستطلاع لأنه يعفك من الملاحظة بما يقوم به هو من ملاحظة
نفسه وتقييد شوارده فكره وهسات فؤاده وسبحات أحلامه . فكأنما
هو رقيب على بواطنه وظواهره ، وكأنما أعطى نفسه ليجرها ويقيدها
تجاربه فيها ! فكان ديوان شعره كناشة الرقابة أعدها ليحصى فيها كل
ما يحصيه الرقيب الحبيب .

هذه الخصلة في الشاعر تعوضنا كثيرا ما ضيعته التواريخ من
حوادثه وأوصافه . فعلى ما جاء في ديوانه نتمسك في تصحيح الأخبار المسطورة
وتكميلها على وجه نستوفى به الترجمة جهد المستطاع ، فهو حسبك
من مترجم لحياته وصافة لحقيقته ، ولولا أن الشعر لا يسجل الأرقام
ولا يتقصى كل مافات الشاعر قبل أن يصبح شاعرا لكان هو حسبك
من رواية لاتحتاج بعده الى تدوين رواية .

أصله ونشأته :

« ولد أبو الحسن علي بن العباس بن جريح الرومي يوم الأربعاء
بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة احدى وعشرين ومائتين
بيفداد في الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية في دار بازاء قصر
عيسى بن جعفر بن المنصور » .

وقد رجعنا الى كتب المضاهاة بين التاريخ الهجرى والتاريخين
الميلادى والقبطى فوجدنا في كتاب « التوفيقات الالهامية » لصاحبه
محمد مختار باشا أن أول رجب من تلك السنة يوافق الثلاثاء الذى يقع
فى العشرين من شهر يونيو سنة ٨٣٥ ميلادية، وفى السادس والعشرين

من شهر بثونة سنة ٥١٢ قبطية . فالיום الثاني من رجب هو يوم أربعاء وهو مما يحقق صحة تاريخ المولد الذي لم يختلف فيه مؤرخوه .. وكان ابن الرومي مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور . وجعفر هو الابن الثاني للمنصور لم يتول الملك ولم تكن له ولاية عهد ولا كانت بعده لأحد من ولده الذين نشأ فيهم الشاعر . ولا يدع ابن الرومي مجالاً للشك في أصله الرومي فإنه يذكره ويؤكدده في مواضع شتى من ديوانه كقوله .

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجبى ومجد وعيدان صلاب المعاجم
وقوله في مدح بعض مواليه من بنى العباس .

ومتى اختل ابن روميكم فأياديكم حرى منه قمن
وقوله فيهم :

مولاهم وعذى نعمتهم والروم، حين تنصني، أصلى
وغير ذلك كقوله :

قد تحسن الروم شتراً ما أحست المررب

و : آبائي الروم توفيل وتوفلس ولم يلدني ربي ولا شبيث
و : يا بني السمرى قد لزمتمكم حرمة الروم ويحكم فاحفظوني
و : اذا ما حكمت والروم أهلى فى كلام معرب كنت أهلا
و : اذا الشاعر الرومى أطرى أميره فناهيك من مطرى وناهيك من مطر
و : ان لم أزر ملكاً أشجى الخطوب به فلم يلدني أبو الأملاك يونان
بل أن تعدت فلم أحسن سياستها فلم يلدني أبو السواس ساسان
أو كقوله وهو كما تقدم فى نسب أبيه وأمه .

كيف أغضى على الدنيا والفرس خسولى والروم أعمامى

واسم جده مع هذا جريج أو جورجيس وهو اسم يونانى لا شبهة

فيه . فلا معنى إذن للشك فى أصله ولا ينبغى الالتفات الى من قال أنه

سمى ابن الرومى لجماله فى صباه .

أبوه :

ولم يرد لأبي الشاعر ذكر خاص في ديوانه الا حيث يقول من قصيدة بائية يذكر فيها مناقبه ومناقب آبائه .

وكم من أب لي ماجد وابن ماجد له شرف يرسي على الشرف المرين
إذا أمطرت كفافه بالبذل نورت له الأرض واهتزت رباها من الخصب

والا حيث يقول :

شادلى السور بعد توطئة الأ
س أب قال : أنت للشرف

والبيتان الأولان فخر يراد به وقع الكلام واستيفاء باب من أبواب الشعر التي كان الشعراء ينظمون فيها من نسيب ومدح ورتاء وهجو وفخر ونحوها ، فليس فيه خبر ولا رواية ولكنه معالجة فنية كهذه الموضوعات التي يعالجها الشاعر المعاصر لتسوير الأطوار النفسية ووضع الأمثال على لسان الحال ثم لا يعنى بها الأخبار عن نفسه وان جاءت بضمير المتكلم . وقد كان الشاعر القديم يأبى أن يخلو ديوانه من باب من أبواب الشعر المعروفة ويأثاب ان يظن به التقصير في واحد منها ، فهو لهذا يشبب ويفخر ويقول فر نخر ما يهول وقعه لا ما يصدق خبره ! والفخر على هذا الاعتراف عمل فنى يؤخذ على هذا المعنى ولا يستمد منه التاريخ أو يرجع اليه في تقرير الوقائع .

والبيت الثالث يلحق بهذين البيتين في الفخر والاشادة بالنسب من ناحية «الفن» لا من ناحية «التاريخ» . الا أننا نستخلص منه أن أباه كان يتوسم فيه الذكاء ويرجو أن يشرف بعلمه وأدبه كما شرف بالعلم والأدب كثيرون من أبناء الموالى ارتفعوا الى مناصب الوزارة من طريق الكتابة والمساجلة ومعاشرة العظماء المتأدبين ، وكان أبوه صديقاً لبعض العلماء والأدباء منهم محمد بن حبيب الراوية الضليح فى اللغة والأنساب ، فكان الشاعر يختلف اليه لهذه الصداقة وكان محمد بن حبيب يخصه لما يراه من ذكائه وحدة ذهنه ، وحدث الشاعر عنه فقال « انه كان اذا

مر به شيء يستغربه ويستجيده يقول لى يا أبا الحسن ضح هذا فى تامورك « (١)

ونرجح أنه فقد أباه وهو صغير لم ينفع ، لأنه لم يرته حين وفاته مع أنه قال الشعر وهو صبي فى المكتب (٢) ، ولأنه كان يسمى أخاه « والدا » كأنما كان له عليه فضل تربية وكفالة .

أممه :

وقد علمنا أن أمه كانت فارسية من قوله « الفرس ختولى والروم أغمى » وقوله « فلم يلدنى أبى السواس ساسان » بعد أن رفع نسبه الى « يونان » من جهة أبيه ، ولا يخفى أن اتماهه الى ساسان لا يقصد به أنه من أبناء الملوك الساسانيين وإنما هو كقول المصرى اليوم أنه من أبناء الفراعنة ، ولا علاقة فى النسب بينه وبينهم .

وربما كانت أمه من أصل فارسى ولم تكن فارسية قحا لأبيها وأمها وهذا هو الأرجح ، لأن علمه بالفارسية - كما سيأتى - لم يكن علم رجل نشأ فى حجر أم تتكلم هذه اللغة ولا تحسن الكلام بغيرها .

ومات أمه وهو كهل أو مكهل كما يقول فى رثائها :

أقول - وقد قالوا : أتبكى كفاقد

رضاعا ، وأين الكهل من راضع الحلم

هى الأم يا للناس جرعت فقدها

ومن ييك أما لم تدم قط لا ينام

(١) معجم الأدباء الجزء السادس ص ٤٧٤

(٢) جاء فى ديوانه أنه قال الأبيات الآتية فى حجر غلام عاشمى يسمى جفسر

وهى أول ما قاله :

ب . فما ليك من خيلة تمدح

يغيبك بالضجى صحصح

ودوحك من عطية أوجسج

اق فى مقلتي ماشق اقح

ولا فى ممساتك لى مشرح

أجفسر حذرت جميع المبر

كلامك أكسلب من يلمسج

وحلصك أطيش من ريشسة

ووجهك من وجه يوم الفسر

فما فى حيساتك لى مفسر

ونستغرب نحن أن تكون هذه الأبيات أول ما قال ولكنها لا تستغرب إن بقولها

فى المكتب لأنهم كانوا ينكتون ليه نعتى يحفظوا القرآن . كان ابن الرومى شاعرا مجيدا

وهو دون العشرين .

وكانت تقية سالحة رحيمة كما يؤخذ من آياته في رثائها :

لقد فجعت فيك الليالى نفوسها بمحبة الأسحار حافظة العثم
ولم تخطيء الأيام فيك فجيرة بصوامه فيهن طيبة الطعمم
وفات بك الأيتام حصن كنافه دفىء عليهم ليلة القم والشيم
فلا تعدى أنس المحل فطالما عكفت فأنست المحارب فى الظلم
رجعنا وأفردناك غير فريدة من البر والمعروف والخير والكرم

وجزع عليها جزعاً شديداً ينم عليه قوله :

ألا من أراه صاحباً غير خائن ألا من أراه مؤنساً غير محتشم
ألا من تلىنى منه فى كل حالة أبر يد يرت بذى شعث يلم
ألا من إليه أشكى ما ينوبنى فيفرج عنى كل غم وكل هم
بنا ناظرى يا أم عن كل منظر وسمعى عن الأصوات بعدك والنعم

وأصبحت الآمال مذبذبت - والمنى

غوادر عندى غير وافية الذمم

وصارمت خيلانى وهم يصلوننى

وقد كنت وصال الخليل وان صرم

وآنستى فقد الجليس وأوحشت

مشاهده نفسى ، ولم أدر ما اجترم

وكانت لها أخت ماتت قبلها ، فهو يقول اذ يرثيها انه كان له
جناحان من عطفها وعطف أمه .

أرائى وأمى بعد فقدان أختها وان كنت فى رفه بها وصلاح
كفرخ قط الدو بان جناحه فباء الى حصن بفردي جناح

اخسوه :

ويظهر أن أبويه لم يعقبا من البنين غيره وغير أخيه محمد المكنى
أبا جعفر ، وهو أكبر منه لأنه يقول « بأخى بل بوالدى بل بنفسى »
وهو يتفجع بذكره ، وشقيقه لأنه يقول فى موضع آخر .

بأخ شقيق بعد أم برة بالأمس قطع منها أقراله
ويذكره بمثل ذلك فى غير موضع .

وكل ما وصل إلينا عن هذا الأخ قصة جاءت في ديوان الشاعر
نعلم منها أنه كان أديبا « وكان يكتب لرجل فعزل بعد مدة ، فبعث به
آل أبي شيخ أصدقائه وقالوا : عزله شؤمك ، وكان بين آل أبي شيخ
وابن سعدان مؤدب المؤيد مودة فخرجوا إليه في أيام المؤيد فأقاموا
مدة ، وكان من المؤيد ما كان وتشتت أصحابه فكتب إليهم أبو جعفر
يولع بهم ويقول : أنا شؤمي عزال وشؤمكم قتال وسيأتيكم في هذا
نظم على بن العباس ، يعنى أخاه ، ومن ذلك النظم قوله :

أنا شؤمي فيما تقولون عزا ل ولكن شؤمكم قتال
بالذي أدرك المؤيد منكم وابن سعدان تضرب الأمثال
زرتموه والصالحات عليه مقبلات فأدبر الاقبال

ان شؤما حلت به عقدة المملوك لشؤم تزوم منه الجبال
ونعلم من هذه القصة أن محمداً عاش الى سنة اثنتين وخمسين
ومائتين وهى السنة التى قتل فيها المؤيد ، وكان ابن الرومى فى تلك
السنة قد بلغ الحادية والثلاثين . فالأرجح أن محمداً قد عاش بعدها
بضع سنوات ، لأن الشاعر ذكره فى رثاء أمه حيث قال : « أقاسى
وصنوى منه كل شديدة » أى ذكره وهو كهل جاوز الحادية والثلاثين
لأنه كان كهلاً حين ماتت أمه كما مر بنا فى رثائها ، والحادية والثلاثون
ليست بسن كهولة الا أن يكون الذين لاموا الشاعر لفرط جزعه على
أمه قد تعدوا تكبير سنه لاستيجاب الملام .

ونرى فى موضعين من الديوان أبياتاً يستعطف بها الشاعر لأخيه
رئيساً غضب عليه ، وكان أخاه مات وهو يعمل فى خدمة عبيد الله
ابن عبد الله بن طاهر أحد أركان بيت بنى طاهر المشهور فى دولة بنى
العباس . فان الشاعر يقول من قصيدة يخاطب بها عبيد الله ويذكر أخا
شقيقاً مات بعد أم برة :

فليحيه الملك الهام فلم يفت حياء قدرته ولا سلطانه
وحياته لى أن أقوم مقامه وأسد من دار الأمير مكانه

فالشاعر يتكلم عن نفسه على ما نرجحه كثيراً ويطلب أن يحل في دار عبيد الله محل أخيه (١) . والمجزوم به بعد هذا كله أن محمداً مات بعد موت المؤيد وأنه كان على شيء من الأدب ومعرفة الكتابة وحب العبث والدعابة .

وقد حزن عليه ابن الرومي حزناً طويلاً ملحاً بقي يعاوده الى آخر أيامه ، فلم يفتأ يذكره ويعيد ذكره في شعره اذا مدح أو عتب أو استعبر ، ومن ذلك أنه قال يرثيه :

وتسليني الأيام لا أن لو عتي ولا حزني كالشيء ينسى فيعزب
ولكن كفاني مسلياً ومعزياً بأن المدى بيني وبينك يقرب

وقال لصاحب كان يحسده ويفرى به .

أيها الحاسدي على صحبتي العبد ر وذمى الزمان والاخسوانا
.....

ليت شعري ماذا حدثت عليه أيها الظالمى أخائى عيانا
أعلى أننى ظمئت وأضحى كل من كان صادياً ريانا
.....

أم على أننى ثكلت شقيقى وعدمت الثراء والأوطانانا

(١) تقول هذا ترجيحاً لا تحقيقاً لان التمبلة مبدوءة بهذا البيت :

امى عشق الامير ودهسه ملق عليه برقه وجراته

فما معنى تلقيب ابن الرومي نفسه بالدمشقي في مطلع التمبلة ؟ اكان ذلك لقباً له عند الامير ؟ يجوز . وتكون النسبة الى الدمشق وهو الرجل السريع اليدين المنجز عمله ، ولكننا لانعلم من اخباره ما يؤيد هذا التلقيب ، وهناك دمشقى صديق لابن الرومي هو الاديب « ابو العباس احمد بن القاسم بن الخليل الدمشقى » عابه الشاعر لتعاليه من مسرنته فقال :

يا أيها التعالي من مسونتنا غنى بما ليه من ذهن ومن ادب
لو استعنت بنفس غير اتقنا او غير نفسك قابلتك بالفخسب
لكن غنيت بنفس لا كفاء لها في النظم والنثر من شعرومن خطب
ولا ملام على مرئاد معسلحة باع اللجين بضمفه من الذهب

فهل التمبلة مرفوعة على لسان هذا الدمشقى ؟ يجوز كذلك . ولكنه جد بعيد

وقال وهو يعاتب القاسم بن عبيد الله :

أنا ذاك الذى سقته يد السفة م كئوساً من المرار رواء
ورأيت الحمام فى الصور الشدح ، وكانت لولا القضاء قضاء
ورماه الزمان فى شقة النفس س فأصمى فؤاده اصماء

وقد مرض واشتد مرضه بعد موته فهو يقول حين أجلى عن
مسكنه .

فيه عافانى الاله من الشدح
بعد جهد حملت منه ضروبا
مكو وفك البلاء عنى كبوله
ليس أثقالن بالمحمولة
ضمن الجسم سقمه ونحوه

ولم يبق لابن الرومى بعد موت ذلك الأخ الوحيد أحد يعول عليه
من أهله أو من يحسبون فى حكم أهله ، الا أناس من مواليه الهاشيين
العباسيين كانوا يبرونه حيناً ويتناسونه أحياناً ، وكان هو لعهد الهاشيين
الطالبين أحفظ . منه لعهد الهاشيين العباسيين كما يظهر مما يلى . أما
ابن عمه الذى أشار اليه فى قوله :

لى ابن عم يجسر الشر مجتهدا
يغنى ، فأصلى بما يغنى ، فيخذلنى
الى قدما ، ولا يصلى له ناراً
وكلما كان زناداً كنت مسعاراً
فلا ندرى أهو ابن عم لج أو ابن عم كلاله . ومبلغ ما بينهما من
صلة المودة ظاهر من البيتين .

أولاده وزوجته :

ورزق ابن الرومى ثلاثة أبناء : هم هبة الله ومحمد وثالث لم يذكر
اسمه فى ديوانه ، ماتوا جميعاً فى طفولتهم وراثهم بأبلغ وأفجع وارثى
به والد أبناءه ، وقد سبق الموت الى أوسطهم - محمد - فنظم فى
رثائه الدالية المشهورة التى يقول منها .

توخى حمام الموت أوسط صيبتى : فله كيف اختار واسطة العقده
على حين شمت الخير فى لمحاته وأنست من أفعاله آية الرشد

ومنها في وصف مرضه .

لقد قل بين المهمد واللحد لبثه
ألح عليه النزف حتى أحاله
وظل على الأيدي تساقط نفسه
ويذكر فيها أخويه الآخرين .

محمد ما شيء توهم سلوة
أرى أخويك الباقين كليهما
إذا لعبا في ملعب لك لذعا
فما فيهما لي سلوة بل حزازة

فإنه محمد اذن قد مات منزوقاً في حياة أخويه الصغيرين وهو
فيما بين الرابعة والخامسة ، لأنه يقول فيه « لقد قل بين المهمد واللحد
لبثه » ويقول « وظل على الأيدي تساقط نفسه » وإنما يحل الطفل
المريض على الأيدي في مثل تلك السن ، ولا يحتمل أن يكون أصغر
من ذلك لأن أخاه الصغير كان في سن اللعب ، وهي لا تكون قبل
الثالثة ونحوها

أما ابنه هبة الله فقد ناهز الشباب على ما يفهم من قوله في رثائه .

يا حسرتا فارقتني فتنساً
والبيت من قطعة مرة دفينه الحزن أشبه بالشيح منها بالنحيب
يقول فيها .

ابني انك والعزاء معاً
تالله لله لا تنفك لي شجنا
ما أصبحت دنياي لي وطناً

أولادنا أتم لنا قفن
وتفسارقون فأنتم محسن

وكانها لم تشف لوعته أو كأنه لام نفسه على حزنه الصامت . فعاد

يقول وهو موزع القلب بين الصبر والجزع .

شجى أن أروم الصبر عنك فيلتوى على ، ولثوم أن يساعدننى الصبر
فياحزنى إلا مسلو يطيعنى ويا سوءتى من سلوتى ، انها غدر
وفى الديوان أبيات بائية يرثى بها ابنا لم يذكر اسمه ، وهى هذه
الآيات :

حماء الكرى هم سرى فتأوبا فبات يراعى النجم حتى تصوبا
أعنى جودا لى فقد جدت للثرى بأكثر مما تمنعان وأطيسا
بنى الذى أهديته أمس للثرى فله ما أقوى قناتى وأصلبا
فان تمنعانى الدمع أرجع الى أسى اذا فترت عنه الدموع تلهبسا

ويبعد أن تكون رثاء لابنه الأكبر هبة الله ، فهى على الأرجح
ثأؤه لأصغر أبنائه الذى لم يذكر اسمه ، ولا ندرى هل مات قبل أخيه
مده ، ولكن يخيل الينا بالمقابلة بين هذه المراثى أن الآيات البائية
آخر مراثى به ولدا لأنها تنم عن فجيرة رجل راضه الحزن على
نمد البنين حتى جمدت عيناه ولم يبق عنده من البكاء الا الأسى المتلهب
فى الضلوع والا العجب من أن يكون قد عاش وصلبت قناته لكل هذه
الفجائع . وقد كان رثاءه لابنه الأوسط صرخة الضربة الأولى فيها
ثورة لأعجة تحس من خلل الآيات ، ثم حل الألم المر محل الألم
السوار فى مصيبته الثانية فوجم وسكن واستعبر ، ثم كانت الخاتمة
فهو مستسلم يعجب للحزن كيف لم يقض عليه ويحس وقدة المصاب
فى نفسه ولا يحسه فى عينيه .

ولقد غشيت غبرة الموت حياته كلها وماتت زوجته بعد موت
أبنائه (١) جميعاً فمت بها مصائبه وكبر عليه الأمر وقل فيه العزاء
فهو يقول :

عنى سحا ولا تشعا جل مصابى عن العزاء
ورثاها فى موضع آخر يقول فيه :
فاستفزرا درة الشؤن على بدركما ، بل على قضيبكما

(١) تكاد نجزم بهذا لانه لم يشر لى رثائه اباما الى ولد بركته مع استقصائه
كل معنى يقال فى موضوع ، وذلك احق شىء بان يذكر فى رثاء زوجه .

ويلوح منه أنها ماتت وهي فتية توصف بما توصف به الفتيات
ويطلب أنه هجر الزواج بعدها زمناً فلم يتزوج الا في أواخر عمره اذا
صح ما استخلصناه من بعض آياته .

وتقول ما استخلصناه لأننا لانعتمد على خبر صريح في أمر زواجه
الآخر . ولكننا لا بد أن نقف في هذا الصدد عند آيات قالها للقاسم
ابن عبد الله وهي :

وهب خادماً لم يوف نعماءك شكرها فبدل عسرف عنده بنسكير
فما ذنب طفل كان تسبب كونه رجاؤك ، يا مرجو كل فقير
أيحسن أن جر العيال رجاؤكم وخاب نداكم ، وهو خير خفير
غيثائكم يا آل وهب فانتى ، وان لم أكن أعمى ، أضر ضرير

وأيات أخرى لعل المخاطب بها هو القاسم أيضاً وهي :

منعت الكفاف الذى لم تزل تجود به كفك الموسعة
فان كنت مسلم ذو حرمة لقول أعاديه . ما أضيعة
فمجمله بالسيف كى يمسك روعى ان كنت من مثله فى سعة
أتسلمنا للردى سسة وقد كنت ترحمنا أربعة ؟

لا بد أن نقف عند هذه الأيات ولا بد أن نفهم منها أنه تزوج فى أواخر
عمره ورزق ولداً فأصبح أهل بيته ستة بعد أن كانوا أربعة ، ولا يمكن
أن تكون الإشارة فى الأيات الرائية الى طفله الأول وزوجته الأولى .
لأن الأيات قيلت للقاسم بن عبيد الله ، والقاسم ولد حوالى سنة خمس
وخسين ومائتين ، فلا يبلغ من السن المبلغ الذى يرجى فيه ويمسح
الا حوالى سنة خمس وسبعين ، ولا يعقل أن ابن الرومى بقى عزبا الى
تلك السنة ثم تزوج زواجه الأول ورزق أولاده الثلاثة .

وكيفما كانت جليئة القول فى هذه الأيات فقد كانت له زوجة عندما
هجا عمرو حاجب القاسم ، لأنه قال فيه :

أيركب عمرو حوله من يخفه

ويعوزنى قوت أعول به عرسى ؟

ولا يكون ذلك قبل سنة خمس وسبعين ونحوها . كذلك لاشك في أنه لما قارب الستين لم يكن متزوجا لأنه يقول في قصيدة نظمها في نحو تلك السن .

ومبتي بلا ضجيع لدى الف ر ، وللوغد شادن مخضوب
ولم يذكر أحد من مؤرخيه - ولا الناجم الذي حضر وفاته - أنه ترك ولدا بعده ، فاذا صح ما استخلصناه من أمر زواجه الثاني فهناك فجيعة أخرى أصيب بها في ولد جديد (١) قبل وفاته ، فمات ولا زوج له ولا بنون .

تعليمه :

ذلك كل ما استطعنا أن نجعله من الأخبار النافعة عن نشأة الشاعر وأهله . ولا محصل للبحث في المصادر التي بين أيدينا عن أيام صباه وتعليمه ومن حضر عليهم وتلمذ لهم من العلماء والرواة . فان هذه المصادر خلو مما يفيد في هذا المقام ، إلا ما جاء عرضاً في الجزء السادس من الأغاني حيث يروي ابن الرومي عن « أبي العباس ثعلب عن حماد بن المبارك عن الحسين بن الضحاك » وحيث يروي في موضع آخر « عن قتيبة عن عمرو السكوتى بالكوفة عن أبيه عن الحسين بن الضحاك » فيصح أن تكون الرواية هنا رواية تلميذ عن أستاذ ، لأن

(١) نفس ابن الرومي زما لا يتزوج حتى كان يسأل « ... لم لا تزوج » كما جاء في أبيات له جيبية ، ومن أثنائه في هذا المعنى :

أنا غيران ولا زوجة لي بل على النعمة مند ابن خلف
ومنها :

كيف ترضى الفقر مرسا لامري وهو لا يرضى لك الدنيا امه

ومنها ما كتب به صديق له يسمى ابراهيم

ياسمى الغليل ابك ادعو دمرة يفتت سميما مجييا

ت على تقلها الي قرييا ك فانظر اجائر ان اخييا

لتممها اراءه شميما عجييا وقليل التوال في هذه الحسا

وقد يكون بعض هذا الزمن مضي قبل زواجه الاول ، ولكننا رأينا كذلك أنه نفس زما في اواخر عمره وهو اصرب .

ثعلبا ولد سنة مائتين فهو أكبر من الشاعر بإحدى وعشرين سنة، أما قتيبة (والمفهوم أنه أبو رجاء قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفي المحدث العالم المشهور) فجاز أن يكون ممن أملوا عليه وعلموه لأنه مات وابن الرومي يناهز العشرين .

وقد مر بنا أنه كان يختلف الى محمد بن حبيب الراوية النسابة الكبير ، وسرى هنا أنه كان يرجع اليه في بعض مفرداته اللغوية فيذكر شرحها في ديوانه معتمداً عليه : قال بعد هذا البيت :

وأصدق المدح مدح ذي حسد ملان من بغضة ومن شنف
« قال لي محمد بن حبيب : الشنف ماظهر من البغضة في العين »
وأشار اليه بعد بيت آخر وهو :

بانوا فبان جميل الصبر بدمهم فللدموع من العينين عينان
اذ فسر كلمة « عينان » فروى عن ابن حبيب أنه قال . « عان الماء يعين عينا وعينانا اذا ساح » .

فهؤلاء ثلاثة من أساتذة ابن الرومي على هذا الاعتبار ، ولا علم لنا بغيرهم فيما راجعناه . وحسبنا مع هذا أن الرجل - كيفما كان تعليمه وأيا كان معلموه - قد نشأ على نصيب واف من علوم عصره وساهم في القديم والحديث منها بقسط واف في شعره ، فلو لم يقل المعري أنه كان يتعاطى الفلسفة والمسعودي أن الشعر كان أقل آلاته لعلمنا ذلك من شواهد شتى في كلامه . فهي هناك كثيرة متكررة لا يلم المتصفح ببعضها الا جزم باطلاع قائلها على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها حتى سرت في أسلوبه وتفكيره وما كان متعلم الفلسفة في تلك الأيام يصنع أكثر من ذلك ليتعلمها أو ليعد من متعلميها . فانت لاتقرأ لرجل غير مشتغل أو ملم بالفلسفة والقياس المنطقي والنجوم كلاما كهذا الكلام .

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يكيه منها وانها لأرحب مما كان فيه وأرغد

أو :

سأمدح بعض الباطلين لعمله إذا اطرد المقياس أن يتسحا

أو :

غساب تحت الحس حتى ما يرى الا قيساسا

أو :

إذا احتج محتج على النفس لم تكذ على قدر يسنى لها تعقب

أو :

يا باطلا أو همتيه مخايله بلا دليل ولا تثبت برهان

أو :

رجوت صلاح القبل بالبعد فأنبرى لنا ظلمكم فاستفسد القبل بالبعد

أو ما قاله في أصحاب الجدل .

لذوى الجدل إذا غدوا لجدالهم حجج تضل عن الهوى وتجور
وهن كآنية الزجاج تصادمت فهوت ، وكل كاسر مكسور
فالقائل المقتول ثم لضيقه ولوهيه ، والآسر والمأسور
أو ما قاله في هجاء صاعد وابنه أبي عيسى ومنه .

وثنى بابنه السفية المعنى بأساطير رسطاطاليس
والذى لم يصح بأذنيه الا نحو ذروثوريوس أو واليس (١)
عاقداً طرفه يهـرام أو كيو ان أو هرمس أو البرجيس
أو بشس النهار والبدر والزهر رة عند التثليث والتسديس
واجتماعاتهن فى كل قيد واقتراقاتهن عن كل قيس

فهو فى الأبيات الأخيرة يذكر الفلاسفة والرياضيين بأسمائهم
المعروفة فى الكتب المنقولة، ويذكر أكثر الكواكب بأسمائها الفارسية،
ويذكرها فى غير هذه الأبيات بأسمائها المعروفة عند العرب وخصائصها
التي كانت معروفة عند الكلدانيين والفرس الأقدمين ونقلها منهم اليونان
ولا تزال مشهورة الى اليوم فى آداب الغربيين . فيقول فى مدح
اسماعيل بن بلبل وكان كاتباً قائداً :

(١) راجع اسمى ذروثوريوس وواليسرى اخبار الحكماء للقطبى .

واقى عطارذ والمريخ مولده فأعطياه من الحظين ما اقترحا
لأن عطارذ كان رب الكتابة والحكمة والفنون عندهم والمريخ كان
رب الحرب والشجاعة :

ويقول فى مدح عيد الله بن سليمان بن وهب :
إذا صبت زهرته صبوة قال له هرمسه : هندسى
وان عدا هرمسه حسده قالت له زهرته : نفسى

والزهرة هى ربة الجمال واللهو ، وهرمس هو اسم عطارذ عند
الفرس وهورب الكتابة والحكمة كما تقدم . يعنى أن سدوحه يسيل مع
اللهو والجمال فتهب به الحكمة والمعرفة ، ويرهق نفسه بهذه فتدعوه
الزهرة الى التنفيس :

وربما أعطاك شواهد مساهمته فى معارف زمانه كلها من أساطير
مأثورة وعلوم قديمة وحديثة فى بيت واحد ، كقوله يداعب المرثدى
حين أخلف وعده فى هدايا السمك :

أألحوت حوت الأرض أم حوت يونس

لك الخير أم حوت السماء أروم ؟

فحوت الأرض هو الحوت الذى تزعم الأساطير أنه يحمل الثور
الكبير الذى يحمل الأرض ، وحوت يونس هو الحوت الذى ابتلع
النبي يونس وجاء نبأه فى القرآن ، وحوت السماء هو البرج المعروف
باسم الحوت .

وبين أيدينا خبران عن اقتناء الكتب اذا لاحظنا قلة أخباره فى كل
شأن من شئونه علمنا أنهما يدلان على شىء كثير : أحدهما أتى به المعرى
فى رسالة الغفران وفيه أنه « كان يتعاطى الفلسفة واستعار من أبى
بكر السراج كتاباً فتقاضاه به ، فقال ابن الرومى : لو كان المشتري حدثاً
لكان عجولاً » .

والخبر الثانى مأخوذ من ديوانه اذ يعاتب أبا الحسين محمد بن
المعلى لتضييعه كتاباً استعاره منه فيقول له من قصيدة :
منحتك مصباحاً فأغشاك ضوءه وقد كان ظنى أنه سيريكاً

وخبران من هذا النوع في حياة قليلة الأخبار يشفان - مع شواهد
شعره الكثيرة - عن شغف دائم بالتحصيل ومدارسة العلوم الى ما بعد
سن الكهولة ، فانه لا يقول « لو كان المشتري حدثا لكان عجولا »
الا وهو كهل أو شيخ جاوز الكهولة .

ومن الحق له وللتاريخ الا نهمل أخباره عن نفسه في هذا الباب
للإبانة عن منزلته من العلم والدراسة كلما كانت هذه الأخبار مطابقة
لما نعرف من مجمل حاله . ففي بعض شعره يقول عن نفسه أنه أدمن
الدرس ورفض المكاسب في سبيل ادمانه كما جاء في هذه
الآيات :

أن امرءا رفض المكاسب وانغدى بتعلم الآداب حتى أحسكما
فكسا وحلى كل أروع ماجسد من حر ما حاك القريض ونظما
ثقة برعى الأكرمين حقوقه لأحسق ملتس بالألا يحسرا
وأظهر من ذلك قوله في الهزيرة الكبيرة للقاسم :

ان آكن غير محسن كل ما تطد	ب انى لمحسن أجزاء
فتى ما أردت صاحب فحص	كنت ممن يشارئ الحكاء
ومتى ما أردت قارض شعر	كنت ممن يساجل الشعراء
ومتى ما خطبت منى خطيبا	جل خطبى ، ففاق بى الخطباء
ومتى حاول الرسائل رسلى	بلغتنى بسلاغتى البلفاء

وأظهر من هذا وذاك آياته التي يمدح بها أبا سهل التوبختى
ويذكره فيها مودة آل النبى واشتغالهما معا بالتفكير فى ادحاض شبهات
الفلاسفة والمتكلمين ، ومنها :

ويدمج أسباب المودة بيننا	مودتنا الأبرار من آل هاشم
واخلاصنا التوحيد لله وحده	وتذيينا عن دينه فى المقاوم
بمعرفة لا يقصر الشك بابها	ولا طعن ذى طعن عليها بهاجم
واعمالنا التفكير فى كل شبهة	بها حجة تعيب دهاة التراجم
يبيت كلانا فى رضى الله ما حضا	لحجته صدرا كثير الهامم

وهذه الآيات أحجى أن نعتد عليها في هذا الباب ، منذ كانت تتعدى فخر الانسان بنفسه الى التذكير بوقائع معهودة ومدارس طويلة ، جرت بينه وبين رجل من صنفة أهل العلم والدراية في أيامه . وقد وردت في آياته الهزلية السابقة اشارة الى حذفه الكتابة ومشاركته في البلاغة المنشورة تعززا اشارة مثلها في هذا البيت .

ألم تجدوني آل وهب لمسدحك

بشعري وشري ، أخطلا ثم جاحظا

فلا بد أنه كان يكتب ويمارس الصناعة النثرية . الا أن ما استجمعناه من منشوراته لا يعدو نبذا معدودة موجزة ، منها رسالة الى القاسم بن عبيد الله يقول فيها متصلا :

« ترفع عن ظلمي ان كنت بريئا ، وتفضل بالعفوان كنت مسيئا ، فوالله اني لأطلب عفوا ذنب لم أجنه ، وأتسب الاقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولا وازداد تدللا . وأنا أعيد حالي عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول افسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظي منك بقدر ودي لك ، ومحلي من رجائك بحيث استحق منك ، والسلام » .

ومنها رسالة كتبها يعود صديقا : « أذن الله في شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك ، ووجه وفد السلام اليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك »

وكتب الى صديق له قدم من سيراف فأهدى الى جماعة من اخوانه ونسيه :

« أطال الله بقاءك وأدام عزك وسعادتك وجعلني فداءك . لولا انني في حيرة من أمري وشغل من فكري لما افترقنا ، وشوقى علم الله فغالب وظلنى فشديد . والى الله الرغبة في أن يجعل القدرة على اللقاء حسب المحبة ، انه قادر جواد » .

« ومكاننا من جميل رأيك أيدك الله يبعثنا على تقاضى حقوقنا قبلك ، وكريم سجايك وأخلاقك يشجعنا على امضاء العزم فى ذلك ، وما تطولت به من الايناس يؤنسنا بك ويسطنا اليك . وآثار يديك تدلنا عليك وتشهد لنا بسماحتك . والله يطيل بقاءك ويديم لنا فيك وبك السعادة » .

« وبلغنى أدام الله عزك أن سحابة من سحاب تفضلك أمطرت منذ أيام مطراً عم أخوانك بهدايا مشتملة على حسن وطيب ، فأنكرت على عدلك وفضلك خروجى منها مع دخولى فى جملة من يعتدك ويعتقدك وينحوك ويعتمدك ، وسبق الى قلبى من ألم سوء الظن برأيك أضعاف ما سبق اليه من الألم بفوت الحظ من لطفك ، فرأيت مداواة قلبى من ظنه وقلبك من سهوه ، واستبقاء الود بيننا بالعتاب الذى يقول فيه القائل : ويبقى الود ما بقى العتاب ، وفيما عابت كفاية عند من له أذنك الواعية الراجعة » .

وقال فى تفضيل النرجس على الورد : « النرجس يشبه الأعين والمضاحك والورد يشبه الخدود ، والأعين والمضاحك أشرف من الخدود وشبيه الأشرف أشرف من شبيه الأذننى ، والورد صفة لأنه لون والنرجس يضارعه فى الاسم لأن النرجس هو الريحان الوارد أعنى أنه أبدأ فى الماء . والورد خجل والنرجس مبتسم ، وانظر أدناها شبيهاً بالعيون فهو أفضل » .

هذه نماذج من مشوراته لانعرف غيرها فيما بين أيدينا ، وخلق بمن يكتب بهذا الأسلوب أن يعد فى بلغاء الكتاب وان لم يعد فى أبلغهم . على أن ابن الرومى لم يكن يحسب نفسه الا مع الشعراء اذا اختلفت الطوائف . فانه يقول عن نفسه وهو يمدح أبا الحسين كاتب ابن أبى الأصبع :

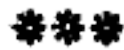
ونحن معاشر الشعراء نسمى
وان كانوا أحق بكل فضل
أبونا عند نسبتنا أبوهم
الى نسب من الكتاب دان
وأبلغ باللسان وبالبنان
عطارد السماوى المكان

ولاعجب في هذا . فقد كان للشعر كل ما درس الشاعر من فلسفة وعلم وأدب ، وكانت هذه المعارف عنده كالروافد للشعر لاتقع لها ان لم يتته بها المصب الى النهر الكبير . ولم يكن له عقل فيلسوف ولا عقل عالم . وقد رأيت قياسه المنطقي في تفضيل النرجس على الورد ، فهل قياس فيلسوف هو أو قياس فنان ؟ انه لقياس فنان نظر الى الدنيا كأنها متحف للناظر ومرح للشعور ، وقليل ما نظر اليها كأنها معمل للتحليل أو قضية مبهمة للتأمل والتفكير .



أما حفظه من علوم العربية والدين فمن الفضول أن تتعرض لاحصاء الشواهد عليه في كلامه ، لأنه أئين من أن يحتاج الى تبيين . وندر في قصائده المطولة أو الموجزة قصيدة تقرأها ولا تخرج منها وأنت موقن باستبحار ناطقها في اللغة واحاطة الواسعة بغريب مفرداتها وأوزان اشتقاقها وتصريفها ومواقع أمثالها وأسماء مشاهيرها، وما يصحب ذلك من أحكام في الدين ومقتضيات من أدب القرآن . فليس في شعراء العربية من تبدو هذه الشواهد في كلامه بهذه الغزارة والدقة غير شاعرين اثنين أحدهما صاحبنا والثاني المعري: وقد كان يمدح الرؤساء والأدباء أمثال عبيد الله بن عبد الله وعلى بن يحيى واسماعيل بن بلبل فيفسر غريب كلماته في القرطاس الذي يثبت فيه قصائده ، كأنه كان يشفق أن تفوتهم دقائق لفظه وأسرار لفته ، ثم يعود الى الاعتذار من ذلك اذا أنس منهم الجفوة والتغير :

لم أفسر غريبها لك لكن لامرى . يجهل الغريب سواكا



لغيرك لا لك التفسير ، أنى يفسر لابن بجدها الغريب

وكانوا لشهرته باللغة وعلم أسرارها ولطيف نكاتها يختلقسون له الكلمات النافرة يسألونه عنها ليعبثوا به أو يعجزوه ، وقصة «الجرامض» إحدى هذه المعابث التي تدل على غيرها من قبيلها . فقد سأله بعضهم في مجلس القاسم بن عبيد الله : ما الجرامض ؟ فارتجل مجيبا :

وسألت عن خبر الجر مض طالباً علم الجرامض
وهو الخزاكل والنسوا مض قد تفسر بالفوامض
وهو السلجكل شئت ذ لك ، أم آيت بفرض فارض

وكلها كلمات من « مادة » الجرامض لا معنى لها ولا وجود .

وإذا صح استقراؤنا وكان من أساتذته أمثال ثعلب وقتيبة فضلاً
عن الاستاذية الثابتة لابن حبيب فلا جرم يصير ذلك علمه بالفرب
والانساب والأخبار وهؤلاء كلهم من نخبة النخبة في هذه المطالب .
ولا سيما إذا أعانهم تلميذ ذو فطنة متوقد الفهم وذاكرة سريعة الحفظ
كهذا التلميذ ، فقد مر بك أنه كان يحفظ الأبيات الخمسة من قراءة
واحدة ، فهب في الرواية بعض المبالغة التي تتعرض لها أمثال هذه
الروايات فهو بعد سريع الحفظ وهذا مما يعينه على تحصيل اللغة
وتعليق المفردات .



أفكان مع هذا العلم بالعربية يعلم لغة غيرها ؟ ان جده كان رومياً
ولكن كثيراً من الناس أجدادهم غرباء عن أوطانهم وهم لا يعرفون
غير لغة الوطن الذي ولدوا فيه .

وان أمه كانت تنسب الى فارس ، ولكننا لانعلم أفارسية هي أم من
أصل فارسي قد يرتفع الى الأجداد ، وفرق بين الحالتين كما لا يخفى .
لأنها قد تجهل الفارسية وهي حفيذة فارسي أو يغلب أن تجهلها في
هذه الحالة ، وقد تتكلمها وهي بنت فارسي وفارسية فيلقنها ابنها وينشأ
على التكلم بها من صباه .

وفي أشعار ابن الرومي كلمات فارسية غير قليلة كالبنفسا (البنفسج)
والدستبند (ضرب من الرقص) والبذبخت (سوء الطالع) والشير
(الأسد) والبرشوجة (طائر) والدستبوية (الشمامة) والكذخذاة
(القهرمانه) وأشباه هذه الألفاظ ، ولتكن العلم بالفاظ كهذه وبأضعافها
لايكثر على ساكن بغداد في ذلك العصر الذي تقاربت فيه الأمتان
الفارسية والعربية وامتزجت فيه الحضارتان ونفذ فيه الفرس الى كل

فرع من فروع المعيشة الرفيعة والوضيعة . فمن أبناء القاهرة اليوم من يتلقف أضعاف هذا العدد من الكلمات الفرنسية والانجليزية والايطالية ويجريها في مخاطباته اليومية ، وهو لا يتكلم بغير لسان وطنه .

بل هناك ما يكاد يدنو بنا الى الجزم بجهل ابن الرومي اللغة الفارسية وهو قوله في هجاء اسماعيل بن بلبل يتهمه في عريته :

اسماعيل من رجل تعرب بعد ما شاخا
وأصبح من بنى شيئا ن ضخم الشأن بذاخا
وصار أبوه بسطاما وكان أبوه قيساخا
وصار يقول « قم عنا » وكان يقول « قوهاخا »

فأول ما يتبادر الى الذهن أن « قوهاخا » هذه ترجمة « قم عنا » باللغة الفارسية . ولكننا سألنا من يعرفونها بيننا فلم يعرفوا للكلمة هذا المعنى ولا غيره ، وأكبر الظن عندنا أنها ليست الا حكاية صوتية لبعض المخارج الفارسية يحكيها ابن الرومي على سبيل اتحكم بالمعجزة في تلك المخارج ، وقد تكون تصحيفا من « قوماخا » وهي قريبة من نطق الأعجمي لقم عنا ولو كان حفظه من المعلم بالفارسية أكثر من حفظ الحكاية الصوتية لكان أحرى به أن يظهر في هذا المقام .

مزاجه واخلاقه :

أى خبر من الأخبار التي تسربت الينا عن حياة ابن الرومي لا تركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به صورة لوجه الرجل وشخصه ؟ بل أى خبر من هذه الأخبار لا تركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به وصفاً دقيقاً لملامح الرجل وقسماته وشارته وسائر ما يتصل بشكله ؟ فقد تعودت النفوس أن تشتاق الى رؤية من تحدث به وتسمع عنه . ولم تتعود ذلك عبثاً ، ولكنها تعودته لأن الرؤية تزيدها معرفة بمن تريد أن تعرفه ، أو لأن المعرفة لا تكمل بغير رؤية .

وليس من مجرد المصادفة - فيما نعتقد - أن تشيع الصور الشمسية والترجمة التحليلية والدراسة النفسية في عصر واحد ، ولا أن تكون الأمم المعروفة قديماً ببراعة الترجمة وكتابة السير أمماً معروفة كذلك بتقيد الملامح والسمات في الصور والتماثيل . فإن فراسة الظاهر جزء من فراسة الباطن . وكتاهما لازمة لفهم السيرة واتقان الدراسة النفسية .

ونحن نؤمن بالفراسة كل الايمان ولا نشك الا في المتفرسين أو في بعض المتفرسين . فالذى فاتنا من ترجمة ابن الرومي بفوات صورته قسم ليس بالقليل ، وتعويض هذا القسم بما بقى لنا من الوصف العرضي والأخبار المنزورة من أصعب الأمور .

فها نحن أولاء نكتب سيرة ابن الرومي ولا نعرف ما الفرق مثلاً بين سحته وسحنة شاعر من شعرائنا الآخرين ، نعم ان ابن الرومي كان كما نعلم سليل أبوة يونانية .. وأمومة فارسية ، ولكن ألم يكن من الجائز أنه كان أقرب الى ملامح الأمومة منه الى ملامح الأبوة ؟ أو أقرب الى ملامح الأبوة منه الى ملامح الأمومة ؟ أكان له وجه فارسي أو وجه يوناني أو وجه رجل فيه مسحة من سمات الشمين أو لاسحة فيه من هؤلاء ولا هؤلاء ؟ ما نظن ذلك مما يستغنى عنه في ترجمة شاعر أو صاحب ترجمة كائناً ما كان .

فاذا كنا سنرجع الى ذخيرتنا التي نعتمد عليها من شعر الشاعر والى القليل من أخباره التي تسربت إلينا فلا ندحة لنا في هذا الصدد ولا حيلة ، وعزاؤنا بعض العزاء أننا قد نهتدي من شعره وأخباره الى صورة نه تعين على تخيله وتشيله وان لم تفن عن صورته الحقيقية ولا عن وصفه الدقيق كل الغناء .



كان ابن الرومي صغير الرأس مستدير أعلاه . أبيض الوجه يخالط لونه شحوب في بعض الأحيان وتغير ، ساهم النظر بادياً عليه وجسوم وحيرة ، وكان نحيلاً بين العصبية في نحوله ، أقرب الى الطول أو طويلاً

غير مفرط ، كث اللحية أصلع بأدر اليه الصلع والشيب في شبابه ، وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعه ، ولم يكن قط قوى البنية في شباب ولا شيخوخة ولكنه كان يحس القوة اليسيرة في الحين بعد الحين كما يحس غيره العلل والسقام ، فكان اذا مشى اختلج في مشيته ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل ، لاختلال اعصابه واضطراب أعضائه . وكان على حظه من وسامة الطلعة في شبابه معتدل القسما لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا حسنة بارزة في صفحة وجهه ، أما في الشيخوخة فقد تبدلت ملامحه وتقوس ظهره ولحق به مالا بد أن يلحق بمثله من تغيير السقام والهموم .

هذه خلاصة الصورة التي استخرجناها من شعر الشاعر وأخباره ، وقد كان ينبغي أن نكتفي بها ونقف عندها لو كانت « الترجمة لذاتها » هي الغرض الوحيد من هذا الكتاب . ولكن « الترجمة » ليست هي كل ما نقصد اليه ولا أهم ما نقصد اليه ، لأن الطريق المؤدى الى الترجمة غرض كبير من أغراض الكتاب لا يقبل عن بيان الترجمة لذاتها ، ووسيلة الوصول الى النتيجة مطلوبة كالوصول الى هذه النتيجة ، والصيد مقصود هنا كما تقصد المائدة والطعام الذي على المائدة ، فمن الواجب علينا أن نبين مكان هذه الترجمة من شعر الرومى وحاجة الأخبار التي بين أيدينا الى التكميل من كلامه في وصف نفسه عامداً وغير عامد ، وأن نبين كيف أن ديوان شعره قد تجاوز حد الترجمة الباطنية الى الترجمة التاريخية ، لاشتمال وجدان الرجل عليه وفرط استيعابه لنفسه في شعره ، وشدة الامتزاج بين حياته وفنه .

فأما أنه كان صغير الرأس مستدير أعلاه فيؤخذ من رده على من
عاب صغر رأسه :

اذ تنقذتنى بصعلكة الرأس من ، سفاها واذمت غير ذميم
ما تعديت أن وصفت خشاشاً لوذعياً كالحية المشهوم

.....

وقديماً ماجرب الناس قبلي ثقل الهام في الخفاف الحلوم
واعتبر أن أفضل الطير في الطير ير ، وفينا كرومسات اليوم
فهو يقول لعائبه ان صغر الرأس لا يزرى به لأن الحية المشهومة
- وهي موصوفة بالحكمة واليقظة - صغيرة الرأس ، والبومة كبرته ،
وهي مضغوطة فاشلة بين الطير والناس .

وأما أنه كان أبيض اللون فذلك غير عجيب في رجل له جد من
الفرس وجد من الروم ، وقد قال هو يصف دياجة وجهه في نظرة
العمر :

ياهل تعود سوائف الأزمان أولاً ؟ فنصرف الى السلوان
كيما أروح وللشبية حبرة أرني العيون بفاحم قتان
وبمشرق صافي الأديم كأنما فيه اتلاق من صفيح يمان

والاشراق والصفاء والاتلاق أشبه بالبيضا من باى لون من
ألوان الوجوه .

وأما أنه كان « يخالط وجهه شحوب في بعض الأحيان وتغير ،
وانه كان ساهم النظرة بادياً عليه وجوم وحيرة » فيفهم من قوله وقد
لاحظت عليه بنت صغيرة لعبيد الله بن عبد الله أنه كان كثير السكون
والتفكير :

وشقيقة قالت أراه منكرا حتى أراه من السكينة نائما
فأجبتها انى امرؤ هيامة فى كل واد ما أفيق هماها
أمسى وأصبح للشوارد طالبا بهواجسى ، حول الأوابد حائما

وهي ملاحظة صادقة بسيطة كآكثر ملاحظات الأطفال - ولا سيما
البنات - على الرجال الذين يرونهم عند آبائهم فيتفرسون فيهم
ويطيلون النظر اليهم . ثم أن أناسا كانوا يعيون عليه انقباضه كما يؤخذ
من قوله في هجاء بعضهم : « يعيب انقباضى معجيا بانبساطه » وكما
قال على بن ابراهيم كاتب مسروق البلخى « كان اذا فاجأ الناظر رأى
منه منظراً يدل على تغير حال » . ولو لم يكن هذا واضحاً في شعره
وأخباره لتوسمناه من صحته وخيبة أمله وكثرة شكواه :

وأما نحول « العصبى » المبروق فالدلائل عليه فى شعره كثيرة
منها قوله :

أنا من خف واستدق فما يثقل أرضاً ولا يسد فضاء

أنا لث الليوث نفساً وان كذبت بجسمى ضئيلة رقشاء
ومنها :

يقول القائلون ضويت جدا
ومن انضاجها اياى، أعرت
ولم تنضجك أرحام النساء
عظامى من لحومهم الوطاء
فيكفينى القليل من اللحاء
إذا ما كنت ذا عود صليب

ومنها :

وزارية عالى بأن وأتى
وذلك فضلا عن مدحه النخافة فيمن كان يمدحهم وتفضيله شأو
الخصاص على شأو البطان لأن العصب جعل فى الرجال قديما و « كذا
الجدل فى العبال المتان » .

ونعلم أنه كان أقرب الى الطول أو طويلا غير مفرط من شعره وحده
لا من خبر روى عنه . فقد كان شديد السخر بالقصار شديد النكابة
فى هجائهم ، ومن قوله فى شيخوخته :

أقول وقد شابت شواتى وقوست
قناتى وأضحت كدتى (١) تنخدد

ومنه :

وأرى قوامى لج فى تقويسه
ولقد يلج اللين فى تعطيفه
والقوام والقناة والتقويس بالطوال أشبه ، ولا سيما حين بلج

(١) بنية الجسم من لحم ولحم

التقويس ولا يقف عند الانحناء اليسير . ويتوسم فيه الطول من
آيات كثيرة كهذا البيت :

وكم مثلها من ظبية قد تفيأت ظلالي وأغصان الشبية ميد
ومثله :

وظبية من ظبياء كان مسكنها
في ظل غصني ، اذا ظل الضحى اتها

ومثله

اذ للشبية صبوة تصبو بها وبشاشة تصبى بها وتروق
يهتز منك لأريحيات الصبا غصن تفيؤه الظباء وورق
ولا يكون الاهتزاز والتشبيه بالغصن الذي تفيؤه الظباء الا لقوام
فيه امتداد وطول .

وقد طلب مرة ثوبا فكتب يقول ويذكر نفسه بضمير الغائب :

فأنجز الوعد بشوب له من الجياد المرتضاة الحسان
وفى القوافي ثمن مريح فلا يقصر ذرعه عن ثمان
فاذا حسبنا كل حساب للطمع فلا نظن ثمانى أذرع تطلب لرجل
قصير أو فوق القصير بقليل .

الا أنه لم يكن مفرط الطول لأنه كان يهجو من فى طوله افراط
كما قال فى عمرو بن الحجاب :

فللقدم منه طول نهر معوج وللأنف منه نفخة البوق فى الكفر
ونحسب هذه الشواهد كلها كافية فى تخيل قوامه . وأنه لم
يكن بالطويل المفرط ولا بالقصير .

وكان ملتجيا ولاشك فى أوائل كهولته :

رايت جليسى لا يسزال يروعه يياض القذى فى لحتى فيسيطه

فكيف به عما قليل اذا رأى قذى الشيب قد عفى عليها سفيطه (١)

فهو قد التحى فى سن يتوقع ما بعدها من زيادة الشيب وعمومه
الا أنه كان كثر اللحية قصير شعرها كما قال :

ولم أزل سبط الأخلاق واسعها وان غدوت امرءا فى لحيتى كثر
وكأنما جعل من ذلك النقص فخراً لأنه نقص لا يد له فى استدراكه
فكان يسخر من اللحية الطوال ويسمىها أذناً ومخالى ومذبات ويشك
فى أدب كل غزير اللحية بل يجعل عزارتها دليلاً قاطعاً على نزارة أدبه
حتى البحترى الآن

البحترى ذنوب الوجه نعرفه وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب

ومغالطته فى هذا بادية من دخيلة احساسه بهية اللحية وأنها
علامة التذكير حيث يقول لصاحب لحية طويلة :

أرع فيها موسى فانك منها - يشهد الله - فى اثم كبير
أيماً كوسج يراها فيلقى ربه بعدها صحيح الضمير
هو أخرى بأن يشك ويفرى باتهام الحكيم فى التقدير

لحية أهملت فسالت وفاضت
ما رأتها عين امرئ ما رآها
روعة تستخفه لم يرعها
فاتق الله ذا الجلال وغسير
أو فقصر منها فحسبك منها
فاليها تشير كف المشير
قط الا أهمل بالتكبير
من رأى وجه منكر ونكير
منكراً فيك ممكن التغير
نصف شبر علامة التذكير

والرغبة فى غزارة اللحية معقولة من رجل أصلح كان يفرق من الصلح
ويخفيه جهده ، ويود أن يداريه بغزارة الشعر فى وجهه الذى لا يستطيع
مداراته كما كان يدارى رأسه .

أما الشيب والصلع فحديثه عنهما طويل وشهرته بما قال فيهما
مضرب الأمثال بين الأدباء .

شاب رأسه في غضارة الشباب فقال :

شاب رأسي ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيباً أن يرى النور في القضب الرطيب

ولم يدع لنا أن نسأل عن السن التي شاب فيها لأنها هي الحادية
والعشرون من عمره كما عينها لنا تعينا في قوله :

فظلم الليالي انهن اشبنتني لعشرين يحدوهن حول مجرم

ثم والى ذكر السنين مرحلة بعد مرحلة ، فقال فيما دون الثلاثين

وأنى تفرع رأسي المشيب ب ولم أتفرع ثلاثين عاماً

وبلغ الأربعين فعد نفسه من الموتى الا أحلاماً تذكره الحياة :

مت الا حشاشة وإدكار ~~منهم~~ مثل أحلام حالم النوم

ومتى ما انقضت أجازى طرف مات الا صيامه في المصام

وقضيت الرضاع من درة الكر م لتجريم أربعين تسام

وهكذا في الخمسين والخامسة والخمسين والستين ، كأنه عابر

طريق يحصى ما عبر منها وما بقى له أن يعبر . وما وخط الشيب شعره

حتى آلى له من البداءة « يمينا لأخفيناك جهدي » ووالى اخفاه بقية

عمره . وأخفى الصلع حين أصابه في شبابه كما أخفى المشيب ، فكان

لا يرى في مكان الا لابساً عمامة ، وعز عليه أن يمتن بهذا التشويه

في نظره وهو الذي أولع بكل تشويه يتفاحك به ويفتن في تشيله

ويفرق أصحابه في المزاح والدعابة . فلزم العمامة لا يخلعها وأخفى سر

ذلك عن جلسائه وجليساته ، فكان أثقل شيء عليه أن يتعرض متعرض

لهذا السر المصون ا

يايها السائلى لأخبره
أستر شيئاً لو كان يمكنى
عنى : لم لا أراك معتجراً؟
تعريفه السائلين ما ستر
ومن غيره هجاء وقال فيه :

يعيرنى لبس العمامة سادراً
ويزعم لبسها لعب مكم

وتلا ذلك ما لا بد منه فى هجاء صاحبنا من عوار الكلام

ثم انكشف الأمر ولم تكن الحيلة فى لجاج الفضوليين والمتشوفين
فعاد الى العمامة يحيل عليها اللوم ويتهمها بجريرة الصلح ويقول انه لم
يكن أصلح قبل أن يلبسها وانما كان يتقى بها البرد والحس
فدهاه طول التعمم فى لمته ، فهو يلبسها الآن لستر هذا التشويه ..
الحديث !

تعمت احصانا لرأسى برهة
فلما دهم طول التعمم لى
عزمت على لبس العمامة حيلة
فيا لك من جان على جناية
من القر يوماً والحرور اذا سفع
وأودى بها بعد الاصاله والفرع
ولتستر ما جرت على من الصلح
جعلت اليه من جنايته الفرع

ولا يبعد أن يكون هذا صحيحا بعض الصحة ، وأن خوفه البرد
والحر كان من أسباب ملازمته العمامة وان لم يكن هو كل السبب ،
فقد كان يكابد فى الصيف نصبا كما قال لبعض مدوحيه « يا عليسابا
أكابد فيه ... » وكان مرهف الحس جدا فكان أهون مس يهيج
أعصابه ويستفز خلقه ، بل كانت الرائحة اذا قويت تؤذيه وتصدعه ،
فلهذا كان يذم الورد ويسدح الترجس كما جاء فى فصل التلطف من
كتاب الصناعتين . ومن بلغ منه التفزز هذا المبلغ لم يبعد أن يلبس
العمامة لاتقاء الحر والبرد ، ولم يبعد كذلك أن يكون ضعيف الشعر
فطرة وأن يصيبه الشيب والصلح لأضعف سبب .

ف بعدو فلا تروده التلطاء
لاصاوته ، ان فيه اكتفاء

(١) قد مضى اكثر الشتاء وجاء الصيف
يا عليما بما أكابد فيسه

أما مشيته فقد تولى هو وصفها لنا على طريقته التي لاتدع شيئاً من تمثيل الشكل والحركة ، فعلمنا أنه كان يخلج في مشيته كأنه يحمل بين يديه غربالاً يديره .

ان لى مشية أغربل فيها آمنا أن أساقط الاسقاطا

وهذه المشية معروفة تدل عليها حركة الغريلة وتكثر فيمن بهم خلل في العصب أو العضل . وفي ديوانه أبيات يهجو بها أخا نضر الجهبذ لأن نضراً أراد أن يزوجه بنته فمنعه من ذلك أخوه وقال له : أما تنظر الى مشيته مثل مشية المخثنين ؟

ونحسب أننا في غنى بعد ذلك عن شواهد أخرى على حظه من الصحة وقوة التركيب في شبابه ومشيبه ، ولكننا لانحب أن نحسد اذا أمكن أن نجزم ، فالرجل يقبول في صباه :

وانى للقوى على المعالى وما أنا بالقوى على الصراع

وكان يشكو مرض العينين قبل الشيخوخة ، ففي ذلك يقول من قصيدته الدالية فى صلح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وأخيه سليمان، وهى مما نظم حوالى الأربعين :

شغلت عنك بعوار آكابهه
ولو قعدت بلا عذر لمهد لى
قاسيت بعدك لأقاسيت مثلهما
أمسى وأصبح فى ظلماء من بصرى
كأننى من كلا يومى وليته
اذا سمعت بذكر الشمس أسفنى
لا بالملاهى ولا ماء العناقيد
جسيل رأيك عذرى أى تمهيد
نهارشكوى ييارى ليل تسهيد
فما نهارى من ليلى بمحدود
فى سرمد من ظلام الليل ممدود
فصعدت زفراتى أى تصعيد

وذلك الى شكاية من المتطبين واعتذارات كثيرة بالمرض تدل على بنية مصابة وحظ من العافية قليل .

فلما أدركته الشيخوخة لاجرم برحت به واشتدت وطأتها عليه فرجفت أعضاؤه وتعاورته الأسقام واحتاج الى العصا وزاغ نظره وثقل سمعه .

ودب كلال في عظامي ادبني جنيب العصا ، اناد أو أتأيد
وبورك طرفي فالشخوص حياه قرائن من أدنى مدى وهي فرد

أو كما قال في قصيدة أخرى :

وأحدث نقصان القوى بين ناظري
وسمى وبين الشخص والصوت برزخا

وجماع ذلك قوله :

أنا ذاك الذي سقته يد الس قم كتوسا من السقام رواء
ورأيت الحمام في الصور الش نع فكانت لولا القضاء قضاء

وقد اختلف أقوال ابن الرومي في حظه من القسامة قبل أن تجور
عليه السن وتمصف السقام بما كان له من صباحة في ضحوة عمره
فهو اذا أراد أن يسزح أن يكون على نفسه فقد الشباب العزيز
قال :

من كان يبكي الشباب من جزع
فلمست أبكى عليه من جزع
فان وجهي بقبح صورته
ما زال لي كالمشيب والصمغ

أو قال :

جزى الله عنى قبح وجهي سعادة كما قد جزاه ، والاله قدير
دعوت به قوما فأدوا أتاوة كأني عليهم عند ذلك أمير

وهو اذا أراد أن يرثي الشباب ويتفجع عليه قال :

وكنت جلاء للعيون من القذى فقد جعلت تقذى بشيبي وترمد

أو قال :

وما يرجي من البيض ابتسام لمن أمسى لمفرقه ابتسام

كان محاسنى لم تضح يوما وفى لحظاتهم لها اقتسام
كأنى لم أر اللمحات نحوى وفى اللمحات لثم والتزام

والمرء يباليغ اذا أراد أن يتهمكم أو يتفجع ، ويبالغ اذا أراد التهمين أو التهويل ، فالصورة الأولى أدخل فى باب الصور الهزلية التى فيها ما فى جميع هذه الصور من التحريف والمسخ والمبالغة ، والصورة الثانية أدخل فى باب الصور المحسنة التى يكثر فيها التنوق والاصلاح ، ولكننا نرجح انه كان كما قلنا « على حظ من وسامة الطلعة فى شبابه معتدل القسما ت لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا صفة بارزة فى صفحة وجهه » . لأنه كان يتناول بالسخر كل عيب فى وجوه الذين هجاهم من خصومه ومازحهم من أصحابه ، فلو كان فيه مثل هذه العيوب البارزة التى لا تدارى ولا يعالط فيها لما تناولها ولا حول الانظار الى مثلها فى وجهه ، أو هو لو كانت فيه هذه العيوب وتناولها بالهجو والدعابة لتعرض له المهجورون بمثل فعله فرد عليهم شعرا كما رد عليهم حين تعرضوا له فى العيوب الأخرى من مشية أو صلح أو هزال . فالأقرب الى الترجيح أنه لم يكن ذا عيب بارز ولا حسنة بارزة ، وأنه لم يكن ظاهر الحسن ولا ظاهر التشويه . على أنه كائنا ما كان حظه من القسامة فى صباه قد فقد ولا ريب ذلك الحظ الذى كان له حين شاخ وجاوز الخامسة والخمسين ، فاننا لا تخيل لشيخ نحيل معسروق نفوس ظهره وشعب وجهه وانظفاً وميض عينيه وطال عليه السقم والغم ولم تزينه الشيخوخة بذلك التاج الفضى الذى تسبغه على رؤوس الشيوخ ولا بتلك الحلية الناصعة التى تحيط بها وجوههم بالوقار والجمال .

على أن ضعف البنية لم يكن ليضير ابن الرومى كثيرا فى شبابه أو فى شيخوخته لو أنه اعتدل فى عيشه وقوى على ضبط نفسه ، فان ضعاف البنية يعمرؤن ويبلغون فوق الستين التى بلغها ابن الرومى وهم فى عيشة سوية وحالة من الصحة مرضية ، وربما نيف الهزيل على

الثمانين وهو معافى الجسد موقى من الأمراض التي لا يتقيها الأقوياء ولا يحجمون عن مواجهة أسبابها ، ولكن ابن الرومي كان هزيلا وكان مع هزاله قليل التصون والاحتراس ، فجنى على بدنه فوق ما جناه عليه هزاله ولج به الحس المتوقز فتهاقت على لذات الحياة وأطايها تهافت من لا يجب أن تفوته متعة أو تفلت من يديه نهزة ، وكبر له الخيال لذات الحس ومباهجه فأكب على مائدة الحياة كالطفل على مائدة الحلوى لاتنعمه كظة ولا تقمع شهوته حمية ، وراح منهوما كذلك بكل لذة عقلية يلتهم المعرفة كما يلتهم اللهو والنعمة التهام من يخشى أن يذاد عنها ولما يستوف شبع شهوته منها . فجار على بنيته الضاوية وانطلق مسرفا في درسه مسرفا في اشتهاؤه مسرفا في طعامه وشرابه ، وروى له الشعر حتى في أصناف الطعام والشراب بل روى له الشعر في هذه الأغراض حيث لا يروى له شعر غيره قال محمد بن يحيى الصولي فيما نقله المسعودي في مروج الذهب .

« أكلنا يوما بين يدي المكتفي بعد هذا بمقدار شهر - أي بعد أكلة روى فيها شعر لابن الرومي - فجاءت لوزينجة فقال : هل وصف ابن الرومي اللوزينج ؟ فقلت نعم . فقال انشدني ، فأنشدته :

لا يخطئني منك لوزينج	إذا بندا أعجب أو عجبا
لم تغلق الشهوة أبوابها	الا أبت زلفاه أن يحجبا
لو شاء أن يذهب في صحنه	لسهل الطيب له مذهبا
.....
متكشف الحشو ولكنه	أرق جلدا من سيم الصبا
كأنما قدت جلايبه	من أعين القطر انذى طنبا (١)
يخال من رقة خرشائه (٢)	شارك في الأجنحة الجنديبا

الى آخر الأبيات . فحفظها المكتفي فكان ينشدها .

(١) إذا انتفخ طرة الماء كان لها قبة رقيقة هي المقصودة هنا .

(٢) الخرشاء قشرة البيض المليسا .

وأخبر نبطويه عن أحمد بن حمدون : «تذاكرنا يوماً بحضرة المكتفى فقال : أفيكم من يحفظ في نبيذ الدوشاب شيئاً ؟ فأنشدته قول ابن الرومي :

إذا أخذت حبه ودبسه ثم أجدت ضربه ومرسه
ثم أطلت الأناء في حبه شربت منه البابلي نفسه
فقال المكتفى : قبحه الله ما أشره ! لقد شوقني في هذا اليوم
إلى شرب الدوشاب »

وأنا لنقرأ هذه الآيات وأمثالها الكثيرة في ديوان ابن الرومي فيخطر لنا عصره المترف ويخطر لنا أن الاسهاب في وصف الطعام والشراب لم يكن في ذلك العصر معيباً ولا مخلاً بالمروءة ، لأنه كان عصر الشهوات جميعاً وأولها شهوة المآكل والمشرب ! بل كان عصرًا يصح أن يسمى بعصر الموائد والولائم لأنها كانت وصلة الاجتماع في الجد واللهم وملتقى طلاب اللقاء في مواعيد الوجبات اليومية وغير مواعدها المألوفة ، وكان من مقاييس مروءة الرجل أن ينظر إلى مطعمه في بيته وبراعة طهاته ونفقته على آكله ، ففضب المتوكل على عافية بن شبيب وأقصاه من مجلسه ونفاه إلى البصرة لأنه رأى له طعاماً لا يليق بمن يجالس الخليفة وينال صلاته ، ونحن لا تصفح أخبار المجالس في ذلك العصر إلا صادفنا الحديث عن الولائم والمهارة في اتقانها والسخاء في النفقة عليها . فربما كان الخليفة وجلساؤه يتواعدون إلى الموعد ومع كل منهم طعامه يتفكهون باستعراض ألوانه ، والمقابلة بين صناعاته وطعومه ، وكان من تمام ظرف الأديب والتدبير أن يحذق شأن الطعام ويخبر صنعه وما قيل في وصفه ، فظهرت في ذلك العصر كتب الأدباء في فن الطهو ككتاب الطبخ لابراهيم بن العباس الصولي وكتاب الطبخ وكتاب فضائل السكاج لجحظة البرمكي ، وخفت مذمة النهم لأنه أصبح كأنه قدرة وعلم وظرف ! وكأنه في ذلك كله أقرب إلى الفخر منه إلى الملامة !

يخطر لنا ذلك العصر المترف ونحن نقرأ هذه الآيات الكثيرة في

ديوان ابن الرومي فنسأل أنفسنا : مانصيب العصر في تلك الأوصاف وما نصيب الرجل ؟ وما حظ العين من لون وشكل وما حظ المعدة من شبع وامتلاء ؟ فمن شاء أن يحسب نهم ابن الرومي على النحو المتقدم باباً من الأدب لا باباً من الشبهة فله ذلك وحجته في هذا الحساب غير ضعيفة ! ولكنه هو لا يدعنا نهار في خليقة كهذه الخلائق التي تحكى عنه ويكون لها دخل في حياته ، فاذا تطرق الشك الى جانب فلا بد له من جانب آخر يقطع ذلك الشك ويردك الى اليقين فيه ، ومن شعره المحفوظ ما يروى لك كيف كان يعاب في آكله وكيف كان رده على من يعيبونه ، فتارة يقر بالذنب ويؤزم أنه هفوة لا جريمة .

أنا اصطفت ولقمتي معسوسة (١)

أنشأت تهجسوني بذلك ظالماً ؟

عيب لعمرك عسير أن لم آتته

عمداً ! فهبني هافياً لا جارماً

وتارة يقول لقسطنطين جارية أم حبيب وكأنها ضحكت من آكله :

ذريني قسطنطين آكل شهوتي وتبشميني ، أنى بذلك راض
فأكثر ما ألقى من الزاد كفضة مدى يومها واليوم أسرع ماض

ثم لا ينسى أن يعرض كدأبه بغير ذلك ، وأن يذكر الكظة التي لا تنصرف الا بعد تسعة شهور !

وتارة يصف الطعام ويعقب الوصف بالتشويق اليه واللهفة عليه .

لهفي عليها وأنا الزعيم بسعدة شيطانها رجيم

بل هو لا يدعنا نهار حتى في «الأصناف» التي كان يحبها ويؤثرها على سواها . فقد علمنا مثلاً أنه كان يحب الموز من الفاكهة لأنه غذاء القلوب لا غذاء المعدة !

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع الى القلوب

(١) اصطغ ولقمته معسوسة ، أى : وضع اللقمة في الطعام ولقى فيه لقمة بمضغها

وأنه كان يعاف المشمش لأنه دواء لا غذاء .

إذا ما رأيت الدهر بستان مشمش

فأيقن بحسب انه لطيب

وعلمنا أنه كان يشهى السمك ويسمن فيه :

فياحبذا امعانا فيه ناضجا كما جاء من تنوره المتوقد

وعلمنا أن ابن أبي بشر المرثدي غلط مرة فوعده أن يوافيه أيام السبت بالهدية منه بعد الهدية . فوقع المسكين في شباكه فما كانت تنقضى فترة الا على تذكير له ومناوتة ، وجعل ابن الرومي هذا الوعد هجيرا و دعابته التي لا يفرغ منها . وما كان يفرغ من دعابة ولا غير دعابة وفيها بقية ، فحين يقول انه قد تهود في انتظار السمك ويسأل ابن أبي بشر ! .

أخلف الزائرون منتظرهم :
سبتهم جمعة ، فما يشكيهم ؟
من حفاظ عليه ما يكفيهم
فكأنا اليهود أو نحكيهم
ولهم كل ما احتملنا وفيهم

ما لحياتنا جفتنا وأنى
قد أرحنا اعتلالهم وجعلنا
جاء في السبت زورهم فأتينا
وجعلنا يوم عيد عظيم
واحتلنا مقالة الناس فينا

قد سبتنا ، وانما كان قوم يوم لا يسبتون لا تأتيهم

يشير الى المائدة التي كانت تأتي بني اسرائيل يوم يسبتون . . . !

وحينا يحمد الله الذي نجى السمك حين تعلق به شهوة ابن

الرومي ووعد المرثدي :

من الشصوص الجائلات والشبك
ما كان أدناه الى تسريحه
ما دمت أبعيه ، وفي ضمان

الحمد لله الذي نجى السمك
علمه يونس من تسبيحه
فهو من الصياد في أمان

وحينا يسأل المرثدي مستعظماً لا بطانته :

أألعنوت حوت الأرض أم حوت يونس
لك الخير ، أم حوت السماء أروم

وحينا يسأل السمك :

أيا سمكا بين السماكين عزة

الى كم يرانا الله عنك نصوم

وحينا يعلم المرثدي أن دجلة قريبة من قصره وأنه قليل العذر في

اخلاف وعده :

أعلم وقت الجهل انك في قصر تليه مطارح السمك

وبنات دجلة في فنائكم مأسورة في كل معترك

بيض كأمشال النياك بل مشحونة بالشحم كالعلك
تغنى عن الزيات قاليهما وتبخر الشاوين بالوردك

فليصطد الصياد حاجتنا تصطد مودتنا بلا شرك

وهكذا وهكذا مما يغريه به حب السمك وحب الدعابة ، وكلاهما

شهى اليه !

وكان هذا ديدنه في كل أمر من أموره : اسراف واستقصاء

لايمسكهما ضابط ولا تعقدهما عزيمة ، اسراف واستقصاء في النكته

وفي المعنى وفي الدرس وفي الطعام والشراب والشهوات ، لاحد لهما

الا البشم والامتلاء واستنفاد ما بين يديه من مادة في ساعاتها حتى

لا سؤر ولا صباية .

ان يكن عندك لى نصح ح فما عندي اتصاح

لا تلمنى فالهوى في ه جيباح وطماح

ما على المفتون في ما غلب الصبر جناح
كل شيء غلب الصبر ر اليه فبسط
انما الدنيا ملاء واغترباق واصطباح
والمزاج الجيد أن فك رت والجسد المزاج

وتختلف نزغات هذا الاسراف وسببها كلها واحد : سببها كلها
توفز الحس ومطاوعة الرغبة الحاضرة والاندفاع معها وقلة الصبر
عنها ، ولو أن هذه الأشواق الجامعة شفت بسكة من العزم المتين
لاعتدت حاله ولو بعض الاعتدال وسلم جسمه ولو بعض السلامة :
ولكن أنى له العزيمة وهو أسير احساس اللحظة التي هو فيها لا يترك
له استغراقه في مؤثراتها الحاضرة منفذاً الى التفكير في قابل أو غابر،
ولا يعدل بما يزينه الحس والخيال حظاً تزينه له الحكمة والحصافة ؟

وصاحب هذا المزاج اذا خلا من الاحساس الثائر والرغبة الجامعة
يثوب لا محالة الى وجوم يجثم على صدره وانقباض يثقل على
وجدانه . كالنشوان لا يفيق من أحلام الكأس حتى يرين عليه السام
فيسرع الى الشوة ، فهو أبدأ بين النقيضين من ثورة الاحساس وشدة
الوجوم .

وليس التناقض بين ثورة الاحساس والوجوم في الحقيقة الا
ظاهراً لا يتعمق الى البواطن الدخيلة ، اذ أن فرط الاحساس كثيراً ما
يؤدي بصاحبه الى فرط الوجوم اتقاء الألم أو شعوراً بالوحشة التي
تنتابه حين يرى التفاوت بين شعوره وبلاده من حوله ، أو مضياً مع
عادة التفكير والخلو بالنفس التي ينميتها التفات الانسان الى موارد
الاحساسات المتوالية على وجدانه وحسه ، واذا لم يتوجه الاحساس
الى العمل والحركة فسبيله الذي لا محيد عنه أن يتوجه الى
التأمل ومناجاة السريرة ، ونذر أن يوجد الخجل والاحتجاز الا مع
شدة الوعي والتنبه لكل حركة يتحركها الانسان وكل كلمة ينسب بها
وكل أثر يكون لحركته وكلامه في نفوس غيره ، فالسكون أدل على
الحس المتوفز في بعض الأحيان من الحركة والاضطراب .

ولعل الأصوب أن نقول أن ابن الرومي وقع من مزاجه واسرافه في حلقة موبقة لا يدري أين طرفاها . فمزاجه أغسراه بالاسراف والاسراف جنى على مزاجه ، فان هذا الاسراف الموكل بالاستقصاء في كل مطلب ورغبة خليق ولا غرو أن يسقم جسده وينهك أعصابه ويتعيف صوابه ، بيد أنه لا يسرف هذا الاسراف الا وفي جسده سقم وفي أعصابه خلل وفي صوابه شطط لا يكبح جماحه ، فالعلة هي سبب الاسراف والاسراف هو سبب العلة ا وهو من هذه الحلقة الموبقة في بلاء واصب ومحنة لا قبل بها للضليع الركين فضلا عن المهزول الضئيل ، وعلاقة كل ذلك باختلال الأعصاب وشدوذ الأطوار بدءاً وعوداً ثم عوداً وبدءاً علاقة من جانب الجسد ومن جانب التفكير .

ولا تعوزنا الأدلة على اختلال أعصاب ابن الرومي وشدوذ أطواره من شعره أو من غير شعره ، فان أيسر ما نقرؤه له أو عنه يلقي في روعك الظنة القوية في سلامة أعصابه واعتدال صوابه ، ثم يشتد بك الظن كلما أوغلت في قراءته والقراءة عنه حتى ينقلب الى يقين لا تردد فيه . وكل ما نعلمه عن نحافته وتفزز حسه وشيخوخته الباكرة وتغير منظره واسترساله في الوجوم واختلاج مشيته وموت أولاده وطيرته ونزقه وشهوانيته الظاهرة في تشبيهه وهجائه ، واسرافه في أهوائه ولذاته ثم كل ما نطالع في ثنايا سطور من البدوات والهواجس - قرائن لا تخطيء فيها الدلالة الجازمة على اختلال الأعصاب وشدوذ الأطوار ، بل لا تخطيء فيها الدلالة على نوع الاختلال ونوع الشذوذ .

وتقول « نوع الاختلال » لأن هذه الكلمة عنوان واسع يشمل من الحالات النفسية والجسدية مثل ما تشمله كلمة « الصحة » أو أكثر ، فهذا صحيح وهذا صحيح ولكن البون بينهما جد بعيد ، وهذا مختل الأعصاب وذاك مختلها ولكن الخلاف بينهما في الأخلاق والمشارب كأبعد ما يكون بين فردين مختلفين من بنى الانسان . فتختل أعصاب المرء فاذا هو جسور عنيد معتسف للاخطار هجام على المصاعب لا يبالي العظائم ولا يحذر العواقب ، وتختل أعصاب المرء فاذا هو وديع مطيع

حاضر الخوف متوجس من الصغائر يبالغ في تجسيها أو يخلقها من حيث لم تخلق ولم يكن لها وجود في غير وهمه . وبين الحالتين - لا .. بل في كل حالة من الحالتين - نقائص وفروق لاتقع تحت حصر ولا تترد على قياس .

وبديهى أن ابن الرومى لم يكن من الفريق الأول فى « نوع اختلاله » ولكنه كان من الفريق الثانى الذى يستحضر الخوف ويكثر التوجس ويخلق الأوهام .

ومن أصحاب هذا المزاج من يخاف الفضاء أو يخاف الماء أو يخاف حيوانات منزلية لا قوة لها ولا ضراوة كالقطط والكلاب والجرذان فابن الرومى واحد من هؤلاء نحسب أنه كان مستعداً لهذه الهواجس طول حياته فى صحته ومرضه وفى شبابه ومشيبه . ونحسب أن استقصاءه للمعاني الشعرية والالجاج فى تفريعها وتقليب جوانبها ان هو الا علامة خفيفة من علامات هذا الوسواس الذى لا يريح صاحبه ولا يزال يشككه ويتقاضاه التثب والاستدراك ، فيمن ثم ينعن حتى لا يجد سبيلا الى الامعان *تحت تأثيره*

ولكنه مع استعداده للهاجس فى شبابه ومشيبه قد تمادى به الوسواس فى أعوامه الأخيرة حتى أصبح آفة متأصلة غلبت على أقواله وأفعاله جميعاً فليس له عنها محيص ، فأفرط فى الطيرة واشتد خوفه من الماء لا يركبه ولو أدقع ودعاه الى ركوبه من يمنونه الأرفاد وحسن الضيافة ، وصور لنا ما يعتريه من خوف الماء تصويراً لا يدل الا على حالة مرضية ولو كان التشبيه فيه من مجاز الشعر وتهويل الخيال، وهذا بعض ما قاله فى مخاوفه وأهوال ركوبه :

ولو تاب عقلى لم أدع ذكر بغضه ولكنه من هـوله غير نائب

أظن اذا هزته ريح ولألات له الشمس أمواجاً طوال الغوارب
كأنى أرى فيهن فرسان بهمه يليحون نحوى بالسيوف القواضب
والماء الذى يصفه هنا هو ماء دجلة لا ماء البحر ولا ماء المحيط !

هذه الوسوس هي التي عنها الذين قالوا - في رواية المسعودي -
« أنه كان الأغلب عليه من الاخلاط السوداء » والذين روى عنهم
المعري أنه « كان أدبه أكثر من عقله » . وهي التي وسسته في نظر أبناء
عصره بسمة الركاكة والجنون .

بين أصحاب هذا المزاج أناس من نوابغ الشعر والفنون عرفوا
بسرعة الملاحظة وسرعة الخاطر ، أو عرفوا - على الأصح - بسرعة
انتقال الخواطر وتعاقب الأفكار واستحضار المناسبات الخفية والمشابهات
البعيدة التي تدركها سرعتهم ولا تدركها عقول السواد في بطئها وأخذها
بالمسير المألوف .

وقد تتفاقم هذه الخصلة فنصل الى الجنون الذي يقول عنه القائلون
أنه يخلط بين الشرق والغرب ويقدم الأحاديث في غير مواضعها
ومناسباتها لسرعة وثبه من كلام الى كلام ومن معرض الى معرض ،
ولخفاء أوجه المناسبة بين موضوعات تفكيره على الذين يستمعون اليه

ولكنها اذا هي لم تبلغ حدها الأقصى المشاهد في أعراض الجنون
كانت خصلة نافعة للشعراء والمصورين بما تقرب لهم من المشابهات
البعيدة وتبرز لهم من فوارق الأفكار الدقيقة وظلال الأشكال
المسترة ، اذ لا يلزم من سرعة تفكيرهم أنهم يخطئون التفكير ويجيئون
به مقتضياً أو مشوها على غير استواء . فانهم في هذه الخصلة كالآلة
التي تنطلق بالصورة المتحركة فتعرض لك في لمحة ما يعرض في برهة ،
والمناظر تبعد واحدة والنسبة بينها كلها في استواء واحد . أو هم كالمجهر
المكبر الذي يرى الأشياء كلها أكبر مما تراه العين المجردة وهي بعد
صحيحة الأبعاد مستقيمة الأوضاع ، والعلم يحتاج الى التكبير في درس
الأشياء ويحتاج الى مثل هذا التكبير في درس النفوس ، فليس كل ما

دق الشعور به عن الناس عامة باطلا معيياً ، ولا كل ما خفى على العين حقيقاً بالتجاهل والاختفاء .

انما يدرك الخطأ أصحاب هذا المزاج فى الغالب من ناحية واحدة هى ناحية ضبط الاحساس أو ناحية التفرق بين الخواطر واحساساتها التى تناسبها .

فقد زعموا فى الأساطير أن السحرة الأقدمين كانوا اذا فكروا فى جنى يريدونه حضر بين أيديهم بغير استدعاء ولا انتظار اشارة . فلك أن تقول أن ما زعموه حقيقة لا أسطورة ، وأن السحرة الأقدمين موجودون فى كل زمان لأنهم هم بأعينهم سحرة الفن من أصحاب ذلك المزاج .

يخطر لهم أن صديقات فما هو الا أن يومض فى ذهنهم هذا الخطر حتى يشب معه الحزن الذى يحزنه الصديق على صديقه ، أو بعبارة أخرى ، يشب معه الجنى الملازم لخاطر الموت بغير استدعاء ولا انتظار اشارة .

وقد تسنح لأحدهم الفكرة فما هى الا أن تتراءى فى خياله حتى يقترب بها الاحساس الذى يناسبها من خسوف أو غضب أو فرح أو اغتباط ، ثم لا يستطيع أن يضبط حركة احساسه ولا أن يصرف عنه الخالجة النفسية التى أيقظتها فيه هذه الفكرة ، فكل شر مطنون فهو عنده كالشر المحقق على حد قول شاعرنا :

وإذا ما ظننت شيئاً فخفه رب شر يقينه مطنونه

وربما كان أحدهم على قمة جبل فيسبح له خاطر السقوط منه فسرعان ما يهب فى نفسه شعور الوجل والاضطراب كأنه قد سقط فعلاً ، ثم لا يستطيع دفع شعوره ولا يهدىء من روعه علمه بأنه مستقر على الأرض ناج من خطر الوقوع الموهوم ! وربما سنبح له شبح الأفعى فتفاجئه الرهبة من سبها الناقع ولو لم يكن فى موضع تطرقه الأفعى أن يظن بها طروقه . لأن هذا التنبيه الصغير كاف لتحريك الاحساس

وجيشانه وتمثيله لخياله في مثل لمح البصر ، ثم لا توجد عنده القدرة على رد احساسه الى نصابه والهيمنة على حركات نفسه . فهو كأولئك السحرة في قوة الاستدعاء لولا أنه ينسى الاشارة التي يصرف بها الشياطين فلتوى عليه وترديه !

وهذا هو مورد الخطأ على أصحاب ذلك المزاج .

ولكنك ترى أنه ليس ثمة خطأ في خاطر ولا في الاحساس الذي يلزمه ، فالخاطر صحيح والاحساس كذلك صحيح وانما الخطأ أن الاحساس يجيء قبل الأوان أو في غير الأوان . وقد يعد ذلك عيباً في العلم أو في تدبير المعاش ، أما في الفن فلا عيب فيه . لأن الفنان أخرج ما يكون الى استحضار الشعور في غير موعده وتمثيل العاطفة كلما دعت حاجة عارضة الى تمثيلها . فهذه الخصلة قد تؤذيه في معاشه وقد تؤلمه وتشقيه ، ولكنها لا تستلزم الخلل في تفكيره وعاطفته الا من حيث التكبير والتجسيم ، وقد يكون التكبير والتجسيم ألزم لظهور الخفى وتقريب البعيد من نظرة القسط والهدوء ، ولا سيما في الفنون .

ومع كل هذا يجب أن نذكر ان آمن شيء في الحكم على هذه الأمزجة وأشباهاها هو ألا تركز كل الركوز الى قاعدة مقرررة في تقدير أعمالها وأحوالها وألا تزال مترقبانها للمفاجآت والغرائب في كل لحظة فقد يجتمع العنف العصبى والوداعة العصبية في اهاب واحد ، وقد يعنف اللطيف ويلطف العنيف حسبما يطرا عليهما من الطوارئ ، وهذا الذى تراه اليوم يتوقد ذكاء وفطنة قد تراه في بعض حالاته خابى الذهن كليل الفهم لا يعى عنك ماتقول ، وهذا الذى يقيم القيامة للصغائر التوافه قد تراه وقتاً ما وهو مستخف بالعظام لا يبالي ما كان منها أو ما يكون .. وأنت تسأل : أى تركيبهم تناقض ؟ فلك أن تقول نعم ولك أن تقول لا . لأن التناقض موجود في ظواهر الأفعال غير موجود في بواطن المزاج ، فمن كانت تقيمه الهنسة الضعيفة وتعمده اذا هى لمسته وبلغت منه جرى الا

يياالى الحوادث الجسم اذا هي لم تلمسه ولم تبلغ منه ، فالمعول في ثورته وسكينته على ما يياشر حسه ويلامس أعصابه . لا صغير الا وهو خطير مثير اذا أزعجه وملاً احساسه ، ولا خطير الا وهو هين طفيف اذا غاب عن وهمه وأعفاه من رؤيته ، فهو الدهر بين تبرم وفزع من توافه الأشياء وطمأنينة وسخر من فوادح الخطوب .

ويحتاج الأديب أحياناً الى هذا التناقض كما يحتاج الى استحضار الاحساس في غير أوانه ، أو يحق لنا أن نقول ان شاعرنا خاصة قد استفاد من هذا التناقض مضاء وحدة في ملكة السخر التي اشتهر بها . وبلغ فيها أوجه ، فان النقااض والمفارقات ألزم لوازم هذه الملكة بعد دقة الملاحظة . وهاهنا معدن النقااض والمفارقات التي يعانها الساخر في نفسه وقد يستغنى بها عن مراقبة غيره .

كان ابن الرومي ساخرًا ولا جرم . كان شاعر النقااض في عصر النقااض ، وكان شاعر الفطنة الوحية في عصر الرياء المضحك أو عصر الاختلاف بين الظواهر والبواطن والبعث الشامع بين ماهو كائن وبين ما يدعى ويستوجب ، فلا جرم يسخر وعناصر السخر في نفسه وفي زمنه ا وقدرة اسخر في قلبه وفي عقله . ولا جرم يسخر وهو مهياً للسخر فيما عدا ذلك بتعدد أصوله وتوزع أهوائه وعصبياته . فان صاحب العصية الواحدة خليق أن يتحيز ويتنطس ويفلو في الجسد والمرارة ، ولكن صاحب العصيات الكثيرة لا يستطيع أن يفعل ذلك ولا يسهه الا أن يستخف ويضحك من تلك الدعاوى وتلك المظااهر التي يضعها غيره من الناس موضع الجذ والقدااسة .

وها هنا شاعر ينتمى أبوه الى الروم وتنتمى أمه الى الفرس ويدين هو بدين العرب وينتسب في ولائه الى أبناء النبي العربي ويتقاسم ولاءه عدوان لدودان من العباسيين والطالبين . فأين تكون العصية وأين تكون المطاعن والمثالب ؟ ثم أين يكون التصديق الأعمى وأين يكون الكذب الأعمى ؟ لن يسهه هو اذا اشتجرت مفاخر الروم والفرس والعرب والطالبين والعباسيين واختصمت بينهم العصيات والمناقسات

بالا أن ييسم في كل صوب بسمة العطف والدعابة ، وأن يصبح على غير قصد منه عظيم الاستعداد للتسامح والفكاهة : كالذي يختصم اليه بنوه ويدعى كلهم ما يدعى من فضله وعيوب اخوته ، وكل ما فيهم من فضل وعيب هو من لحمه ودمه ووشائج جبه وحنانه .

فقد اجتمع لابن الرومي اذن من عناصر السخر مالم يجتمع لأحد في عصره : اجتمعت له دقة الملاحظة والاحساس وعمق الشعور بالمناقضات في نفسه وفي زمنه ؟ وسعة النظر الى الفوارق وسباحة العطف التي تقابل مرارة العصية . فهو ساخر لا يبارى في سخره ، وعابث مطبوع على العبث بكل شيء حتى صحبه ونفسه . يستخدم السخر في الهجاء والمديح والمطايبة والمعاتبة ، ويعرض لك في متحفه الكبير تلك الصور الهزلية التي لا مثيل لها في شعر شاعر واحد من شعراء العالم كله ، ثم لا يأنف أن يريك بينها صورة له بل صوراً شتى لا يموزها حظ من العناية وأمانة الصناعة .

فهذا الوجه الذي فصل للفلاة والتعب في الفلاة وجه من هو؟
انه وجه ابن الرومي فيما صوره لنا حيث يقول :

ضغفت بالخرد الحسان وما يصـ
سلح وجهي الا لسذي ورع
كي يعبد الله في الفلاة ولا يشـ
شهد فيها مشاهد الجمع !

ومن هذا الغائص الذي تعلم السباحة ليغوص لا ليسبح ، أو هذا الغائف المراقب الذي يمر بالماء في الكوز مر الجانب ؟ انه هو ابن الرومي أيضاً حيث يقول عن نفسه :

وكيف ؟ ولو ألقيت فيه وصخرة
لوافيت منه القمر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذي سباحة
سوى الغوص ، والمضغوف غير مغالب

فأيسر اشسفاقى من المساء اتنى
أمر به فى السكوز مرر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب
فكيف بأمنيه على نفس راكب؟

وابن الرومى أيضا هو ذلك المنهوم الذى يشره الى الطعام حتى
فى الأحلام ، ويأسف على أن يذاد عنه ولو فى المنام :

ولقد منعت من المرافق كلها حتى منعت مرافق الأحلام
من ذلك انى ما أرائى طاعما فى النوم أو متعرضاً لطعام
ألا رأيت من الشقاء كائنى أئنى وأكبح دونه بلجام !

وابن الرومى كذلك هو الشيخ الفانى الذى لا يسيه هم الشيخوخة
أن يتهمك بنفسه ويحمد الله على زيفان بصره ، لأنه بركة تجعل
الشخص شخصين فى نظره .

وبورك طرفى فالشخص حيا له قرائن من أدنى مدى وهى فرد

هذا مثاله من سخره بنفسه . أما سخره بغيره فله فى أفانينه الكثيرة
ومعانيه الغريبة ما يقوم بديوان كامل ، وبراعته فيه طبقة لا تعلموها
طبقة فى نوعها ويندر أن يدانيها فحول الساخرين فى المشرق والمغرب ،
فله فى أحذب كان يضايقه ويترصد له أمام داره ليتطير منه :

قصرت أخادعه وطال قذاله فكأنه متربص أن يصنفا
وكاننا صفت قفاه مرة وأحسن ثانية لها ، فتجمعا

وهى براعة لانظير لها فى وصف الشكل والحركة ولا فى تضمينها
هيئة السخر التى عمل فيها الشاعر عمله المركب لىتم فيها نصيب العين
والضحك والخيال . فصورة الرجل وهو يتهاى لأن يصنع ثم يتجمع
ليتقى الصفة الثانية هى صورة الأحذب بنصها وفصها لا يعوزها الاتقان
الحسى ولا الحركة المهيبة ولا الهيئة الزرية ولا التأمل الطويل فى ضم
أجزاء الصورة بعضها الى بعض حتى يتفق التشبيه هذا الاتفاق .

وله في معلم صبيان من :

أبو سليمان لا ترضى طريقته
له إذا جاوب الطنبور محتفلاً
عواء كلب على أوتار مندفة
وتحسب العين فكيه إذا اختلفا
لا في غناء ولا تعليم صبيان
ضرب بمصروصوت في خراسان
في قبح قرد وفي استكبار هامان
عند التنغم فكي بقل طحان

وله في جحظه وكان مغنياً جاحظ العينين :

تغاله أبداً من قبح منظره
كانه ضفدع في لجة هرم
مجازباً وتراً (١) أو بالعا حجراً
إذا شدا نغماً أو كرر النظرا

وله فيه :

نبئت جحظة يستعير جحوظه
وارحمنا لمناديه تحملوا
من فيل شطرنج، ومن سرطان
ألم العيون للذة الآذان

وله في من :

انك لو تسمع الحانه
لخت من داخل حلقومه
تلك اللواتي ليس يعدوها
موسوساً يخفق معثوها (٢)

وله في مغنية :

تضغط الصوت الذي تشدو به
فاذا غنت بدا في « جيدها »
غصة في حلقها معترضة
كل عرق مثل بيت الأرضة

وله في مغنية أخرى :

صوتها بالقلوب غير رفيق
فاذا رققته بالجهد منها
بل له بالقلوب عنف وبطش
خت في حلقها شعيراً يجش

(١) وتر الفوس لا وتر العود .

(٢) البيتان غير موجودين في الديوان المخطوط .

وله في صاحب لحيه :

لو غاص في الماء بها غوصه
أو قابل الريح بها مرة
صاد بها حيتانه أجمعا
لم ينبعث في خطوه أصبعا
وله في أبي حفص :

ان أبا حفص وعشرونه
قد أغرأ بي بهجواني معا
كلاهما أصبح لي ناصبا
وحدى وكان الأكثر الغالبا
ان كان كفتا لي في زعمه
فليعتزل لحيته جانبا ؟ !

وله في رجل له منظر ولا أدب عنده :

طول وعرض بلا عقل ولا أدب
فليس يحسن الا وهو مصلوب

وله في آكول مضاعة :

بعض أضراره يكادم بعضا
لا ثوب الا ثوب رحاها
فهي مسنونة بفسير سنون
أو دؤب الرحي التي للمنون
لا تعطل رحاك يا ابن سليما
ن فليس الثواب فيها بدون
قسا لو وقتها للمسكاك
ن لما مسهم غلاء الطحين
ما ظننت الانسان يجتر حتى
كنت ذلك الانسان عين اليقين

وله في قصير أعور أصلع :

أقصر وعسور
شواهد مقبولة
وصلح في واحد
ناهيك من شواهد
تبتنا عن رجس
مستعمل المقافد
أقواء القفد فاض
هي قائما كقاعد

وله في قصير :

على أنه جميد النيمان كدجيدح
إذا ما مشى مستعجلا قيل : يدرج

وله فيمن هجاه :

رقادك لا نسهر لى الليلى ضلة
ولا تتجشم فى حوك القصائد
أبى وأبوك الشيخ آدم تلتقى
مناسبا فى منسب منه واحد
فلا تهجنى حسبى من الذم أنى
واياك ضمتنا ولادة والد

وله فى بخيل :

يقتر عيسى على نفسه وليس يياق ولا خالده
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد
وله فى أصلح :

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله
وله من أمثال ذلك ما يطول بنا احصاؤه ولا نرى هنا فائدة
من الاسهاب فى تكرار تشبيهه

وأبرع ما يكون سخره كما ترى اذا هو شبه لك صورة محسوسة
أو خلق لك من خياله صورة معنوية ، فانه يحكم التشبيه ويحكم خلق
الصورة فيضحك بالمقابلة بين الشيء وشبيهه ويضحك بما تتخيله من
المنظر الغريب حين يعمد الى خلق الشكوك المعنوية ، كصورة الأحذب
مثلا أو كصورة الرجل « المستعمل المقافد » ... الذى يضرب فى كل
مكان صالح منه للضرب ، فيصلح لقفده عن موضع شعره ويقصر لكثرة
الطرق على رأسه ويعور لضربه على عينه ، وحركة الأبيات نفسها حين
تلى على عجل كحركة الصفعات ما تنى نازلة صاعدة كما أنبأ عنها فى
تلك الأبيات .

أو كصورة الرجل الذى لانفع له الا أن يصلب لأنه بذاك يظهر
أحسن ما فيه وهو عرضه وطوله ، أو كصورة المعنى الذى تترأى
عيناه الجاحظتان كمينى الضفدع « الهرم » فى لجة يكرر النظر ويعنى
وفمه فى الماء !

وكان فضلا عن هذا لا تفوته من الأغراض فائتة في اللفظ ولا في
المعنى ولا في التصوير : ألق بالك مثلا الى كلمة « جيدها » في هذا
البيت :

فاذا غنت بدا في جيدها كل عرق مثل بيت الأرضة

فلو أن ساخراً غير مطبوع على السخر أراد هذا المعنى لاختار كلمة
غير « جيدها » للمبالغة في التقييح والتشويه ، ولكنك تنظر فترى أصلح
الكلمات في هذا الموضع هي الكلمة التي توهمك الحسن وتحضرك
والمناقضة التامة بين الوهم والصورة المشهودة ، فيستوى طرفا النكتة
ويبدو لنا الفرق المضحك بين الجيد وبيت الأرضة ، كما نضحك من
الفرق الذي يبدو لنا اذا وقف القزم الى جانب العملاق .

وتأمل كلمة « طحان » في هذا البيت

وتحسب العيز فكيه اذا اختلفا عند التنغم فكي بغل طحان

فليس تمام القافية وحدها بهذه الكلمة بل الصورة المعنوية هي
التي تمت بها أحسن تمام ، لأن السخر لن يستوفى في هذا التشبيه
الا اذا تمثلنا في موقف الغناء المتمتع بغلا من بغال الطحانين العجاف
الجياع يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان ، ولو كان بغلا من
البغال الفارهة المترفة لنقصت الصورة وقرت فيها قوة السخر وقوة
التشبيه . وقس على ذلك « الشيخ » آدم ، أو قس عليه سائر
الآيات والصور .

وسياتى تفصيل الكلام على ملكة التصوير في شعره عند الكلام
على عبقرته والصلة بين فنه وبين الطبيعة والحياة .

وليس يكفى أن نقول ان ابن الرومي كان ساخراً بارع التصوير
لنعلم كل شيء نحب أن نعلمه عن مخزئه فان السخر يتنوع حتى لا ينفق
في الباعث الذي يوحيه ولا في العبارة التي تؤديه وأدباء « النفسين »

يقسمونه الى التهكم والعبث والمجانة والفكاهة ، ويجعلون كل قسم منها جميعا نوعا من « الضحك » قائماً بمفرده مستقلاً بصيغته وغرضه . والأقرب الى فهم الموضوع عندنا أن نوحّد الضحك ونجعل الاختلاف في الخلائق والحالات النفسية . فنفرق بين ضحك الخليفة الكريمة وضحك الخليفة اللثيمة ، وبين الضحك في حالة الرضى والعطف والضحك في حالة الغضب والجفاء ، ثم نفرق بين العبث في الحالين المختلفين من النفس الواحدة : فعبث النيل الأريحي غير عبث الوضع الخبيث ، وتهكم الصارم الأبي غير تهكم الرخو الذليل . وفي الدنيا من التهكم بمقدار ما فيها من المتهمكين ، نعنى بذلك أن التهكم ليس «نوعاً» واحداً من الضحك ولا شكلاً واحداً من الملكات ، ولكنه أنواع تختلف باختلاف الحالات والخلائق والأساليب . فخير لنا أن نرجع الى اختلاف هذه الحالات من أن نجتمع التهكم كله في باب واحد وصيغة واحدة ، وهو ليس كذلك .

وما من ضاحك الا وهو قابل لجميع هذه الحالات في مختلف الأطوار فهو متهمك حيناً وعاث حيناً ومازج بين هذين الشعورين في بعض الأحيان ، كما يتفق كثيراً أن يمتزج الشعوران المتضاران .

فاذا قلنا ان ابن الرومى ساخر فقد بقى أن نعرف نوع السخر لنعرف نوع الطبيعة التي توجيه، فان المرء - كما تقدم - يكون ساخراً وهو طيب سليم الطوية وساخراً وهو خبيث مظلم السريرة . فمن أى فئات الساخرين كان ابن الرومى وأى خليقة من الخلائق كانت تهيم على سخره ؟ أنسلكه فى الطيبين أو الخبيثاء وفى الخلائق الشفافة القوية أو فى الخلائق الكدرية العوجاء ؟

لنا نسال هذا السؤال ونبتسم .

نبتسم كما قد نرى الطفل اللارب يعدو وراء مضحكة من المضاحك أو فرجة من الفرج ثم يسألنا السائل فى جد ووزانة : ما هى العدوارة

التي يكنها ذلك الطفل لمن يعدو خلفهم ويلهو بمعايشتهم .. ! فأي
عداوة وأي صداقة ؟ وأي خيانة وأي طيبة ؟ هنا مضحكة وكفى .. !
ولن يفهم الطفل في منطقته الا أنه يستطيع هنا أن يضحك ، فلم لا
يضحك ؟ اي نعم لم لا والضحك لذيد والاغراء به حاضر !؟

فابن الرومي هو ذلك الطفل في سخره وضحكه وتهكمه وهجائه،
لسنا نقصه حق فهمه الا اذا مثلناه أبدأ في جدة الاحساس واخضراره
على هيئة الطفولة النامية التي لا تجف ولا تشيخ وان جفت المفاصل
وشاخت الأوصال ، وستر بنا عقد كثيرة من عاداته ومواهبه لا تدرك
ولا تفسر الا على اعتبار واحد وهو أنه طفل كبير لا يفرغ من الطفولة
طول حياته . فسل ما شئت عنه ولكن سؤالك عن الطفولة النامية
بمزيتها ونقصها وطيبها وخبثها ورضاها وغضبها ، وانتظر منه سوء
الأدب اذا غضب أو احتدم غيظه واختنق صدره ولكن لاتنس أن الأدب
السيء خلة غير خلة الطبيعة السيئة ، وان ليس الكظم والسكوت علامة
على الكرامة والصفح الجميل في كل حال .

وأجمل الناس بالطبائع الانسانية من يصف امرءا كابن الرومي
بالحسد والضغينة لأنه كان يألم ويتحسر لحرمانه ويمجب لحظوة
الجهلاء بالخير دونه ، اذ ليس الحسد أن يألم الانسان لأنه محروم
مزود عن النعم التي يشتهيها ويتذوقها ويعرف معنى المتعة بها ، ولا
أن يرى - مصيباً أو مخطئاً في رأيه - أنه أجدر وأليق بتلك النعم ممن
لا يحسبهم انداده في الفضل والذكاء وأقرانه في المناقب والمآثر ، كلا!
ليس هذا هو الحسد المذموم المعدود في ردىء الصفات ، وانما
الحسد المذموم هو خلق كرهه يتلى به المرء فلا يطيق النعمة عند
غيره وان كانت عنده ولا يستريح الى شعور الناس بالسعادة
لانقطاع ما بينه وبينهم من رحم العطف والمشاركة في الأفراح والآلام .

فالحسد بضوب في العاطفة وابن الرومي أبعد انسان من بضوب
العاطفة ، وتحجر في الشعور وليس للتحجر في خلائق ابن الرومي
وأمثاله مكان ، والحاسد لا يجعل الخير مقرونا بالفضل والنعمة

مرهونة بالمناقب ، ولا يطلب المتعة والجاه لأنه أقدر وأجدر ممن ينعمون
بهما في الدنيا بغير حق ولا معرفة ، اذ التفكير على هذا النمط غريب
عن جيلة الحاسد الذي انما يريد الخير لأنه يريد وكفى ! ثم لا يكلف
عقله أن يدلى له بحجة في طلبه غير حجة الأثرة الحيوانية التي لا تسأله
سبباً والأناية الصماء التي لا تعقل ولا توازن ولا تتدبر . ويسوؤه أن
ينعم الناس لأنه يرى النعمة وقفا عليه ويرى أن كل ما سر غيره مسلوب
منه ، وليكن ذلك السرور علما وهو لا ينافس العلماء أو صلاحا وهو
لا يتشبه بأهل الصلاح أو شرفا وهو لا يطمح الى الشرف ، فحسبه أنه
سرور في عرف أحسد من الناس وحظ ينعم به غيره ويتسلاه ليكون
ذلك السرور نارا عنده ويكون تنقيص السرور به من همه ودأبه .
وهذا هو الحسد الذي ليس في طبيعة ابن الرومي ذرة منه ، بل ليس
ما عنده الا نقيضه وضده .

فقد كانت أذمتعه التي وصفها تلك المتع التي غنمها مع صحبه
وسعد بها كما سعد غيره ، وربما كان لا يلح ذلك الاحاح في
طلب السمك الذي يجبه الا ليسرع به الى صديقه يدعو اليه
ويشركه فيه :

متى عهدك بالكرخ وبالشبوط والفرخ
وبالبكر التي لم تشق بالنار ولا الطبخ

وقد كان شعوره بحرمان غيره كشعوره بحرمان نفسه ولو لم تكن
بينه وبين الله يم صداقة ولا علاقة . فكان يرثى للحمال المكدود اذا
بصر به فيصف حاله وصف مشفق عليه يألّم لجميع ألمه .

رأيت حمالا مبين العمى
محملا ثقلا على رأسه
بين جمالات وأشباهاها
وكلهم يصدمه عامدا
والبائس المسكين مستسلم
يعشرفى الآلم وفى الوهد
تضعف عنه قوة الجسد
من بشر ناموا عن المجد
أو تائه اللب بلا عمد
أذل للمكروه من عبد

وما اشتهى ذلك ولكنه
فر الى الحبل على ضعفه
فر من اللؤم الى الجهد
من كلفات المكثر الوغد

وما كان بينه وبين ذلك الحمال من صلة حركت فيه ذلك الاشفاق
عليه والعجب من صبره الا أنه كان يؤثر مقاساة الجهد على مقاساة
اللؤم ، وبرح العناء على التكسب بمدح البخلاء ، ويريح نفسه ما
يعانيه الشاعر ويفتقر اليه من استجداء النوال وذل السؤال ، وهي صلة
لا تتحرك بها العاطفة الا في نفس مجبولة على العطف والتأسي بأحوال
الكبير والصغير والرفيع والوضيع .

« وكان هو وصديق له متصلين برجل جليل من حاشية السلطان
فكان المتصل به يسرف على صديقه في الاستخفاف به » فقال ابن
الرومي يلوم ذلك الرجل الجليل على استخفافه بصديقه :

أحب أن تشتمني بوزن ما تشتمه
أو توقع الأكرام لي وللذي أكرمه
فإن ما تفعله تكبير عظمي بحضرتي يحشمه

واننى يظسلسنى كل امرئ يظلمه

ولو رجل غير ابن الرومي في موضعه كان بنفسه حسد أو دخيلة
سوء لسه أن يخص بالحفاوة دون زميله والتمس الزلفى عند ذلك
الرجل الجليل بسوافقته على مزاحه واستخفافه . لكنه كان في الواقع
كأبرأ الناس من حسد وأعظمهم سروراً بعطف صديق، بل كان الصديق
مقدماً عنده على الحبيب .

عرج على ذكر الصمد يق وعد عن ذكر الحبيب

كم مسكتر لي مخبث ومقسل قول لي مطيب

لأن العطف حاجة من حاجات قلبه وضرورة من ضروراته ووقاء له
مما كان يرهقه ويشتد على صبره . فكان عطف الصديق يحيى نفسه
ويخلقه خلقاً جديداً كما قال :

خليل أطلل اذا زارنى كأنى أنشأ خلقا جديدا
أرانى وان كثر المؤنس ون ماغاب عنى وحيدا فريدا
فما كان الرجل حاسدا ولا شيها بالحاسد ، وما كان الا انسانا
كسائر الناس يحب الخير لنفسه ولا يكرهه لغيره ، بل ما كان الا ذلك
الطفل الكبير الذى كأنه فى حدة طمعه وقلة حيلته وقد فتح عينه
وفتر فاه الى قطعة الحلوى فى يد غيره فبلع ريقه وصاح فى براءة
وصراحة لا تعرفها طبائع الحاسدين :

لا تلومن حاسدا . ألم النفح من البخس يا أخى شديد !
وما حيلة المسكين فى شهوة قلبه وفى قلة حيلته وحوله ؟
وكيف الصدوف عن النعمة وما هو بزاهد فيها ولا بجاهل لقدرها ولا
بغافل عن لذتها ؟ أهو معصوم من الفتنة كما قد حرم
نصيه من النعمة ؟ لا ! بل ان فتنته لأشد وأضرى وأنه بالنهن لأحسن
وأدرى :

يألت أهل العقل اذ حرموا عصوا من الشهوات والفتن
لكنهم حرموا وما عصوا فقلوبهم مرضى من الأحسن
وههم أحسن على بليتهم من غيرهم بمرارة النهن
فببلغ القول فى حسده أنه كان شديد الرغبة فى متع الحياة
قليل الحيلة فى احتجانها ، فاذا سميت هذا حسدا فقل أن ابن الرومى
وقل ان الطفل الذى يتطلع الى الحلوى فى يد رفيقه الصغير .. حاسد .
وأضف الى الحسد بهذه التسمية معنى جديدا لم يكن من
معانى هذا الخلق البغيض الذميم .

ويقال فى حقه ما يقال فى حسده . فقد كان ساخطا ولم يكن
حاقدًا ، والبون بعيد بين السخط والحقد . وان التبتت أعراض هذين
الخلقين على طلاب الظواهر .

فهما خلقان متباينان وقد يكونان فى بعض الأحيان متناقضين ،
فيسخط الانسان بل يدوم سخطه وليس فى قلبه من الحقد أثر ، وقد

تكون كثرة سخطه لكثرة استجابته للمؤثرات الجديدة الطارئة التي تتعاقب على حسه أى لقله حقه وقلة اصراره على البغض القديم .

والحققد توأم الحسد فى خلة الأثرة الحيوانية والأناية الصساء، فلهذه الخلة يستكبر الحاقده الانساء الصغيرة الى نفسه كما يستكثر الحاسد النعمة القليلة على غيره ، والسبب فى الحالتين واحد . وهو أنه لغلوه فى حب نفسه وأستغراقه فى الأثرة الحيوانية لا يريد ان يساء هو ولا أن يسر غيره ، وليس يعنيه أن يساء بالحق أو بغير الحق وأن يكون عاديا فى هذه الاساءة أو معدوا عليه ، فان ذلك كله من وراء تفكيره وحسابه ، ولا فرق عنده بين أن يظلمه الناس فى الاساءة اليه أو ينصفوه وبين أن يسيئوا اليه بالعدوان عليه أو بصدده هو عن العدوان ، فمن الحاقدين من يحقد على الناس لأنهم أبوا عليه أن يضرهم ليستفيد من ضررهم ووقفوا بينه وبين مصلحته ولو كان وقوفهم هذا من حقهم ولانقاذ حياتهم !! وهو لا يفكر بالعدل ولا يكره المدوان لأنه جور وعسف ولا يعرف من الكراهة الا أن يكره ما يسوؤه كائنا ما كان وبالغا ما بلغ فيه العذر والاضطرار . وهذا غير الشعور الذى يشعر به المرء حين يعتدى عليه بغير الحق فيسوؤه ذلك ثم يتوالى العدوان فيتوالى الاستياء ويطول السخط والامتعاض ، فان من النبيل أن يفضب المرء للعدوان الذى وقع به ووقع بغيره فان لم يرتفع بغض العدوان الى مقام النبيل فهو لا يهبط بصاحبه الى ما دون منزلة العذر المعقول والطبع المستقيم .

من هذا القبيل كان شعور ابن الرومى حين توالى عليه أسباب السخط فتوالى سخطه وغضبه وتواصلت شكواه وضجره ، فكل سبب كان يثيره فهو سبب « أخضر » لا مشابهة فيه لأسباب الحقد التى يطول ثاؤها بالضمير حتى تفسد وتعفن أو تيبس وتتحجر .

وما كان لطبيعة مهتاجة كطبيعة ابن الرومى طاقة بضرب من الاحساس غير ذلك الذى نسميه « بالأخضر » لحدته وحرارة بغضه وسرعة أثره وسرعة زواله ، وانى لمثل هذه الطبيعة اصرار الحقد

وتدييره وثباته على ما فيه بين قلب الحوادث وتجسدد المسرات
والمصائب ؟ كل ما تطيقه هذه الطبيعة من الشعور هو ذلك الشعور
الذى تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته ، فإذا كانت الأسباب لا تزال
مؤلمة مفضية فالألم دائم والغضب لازم والناس يقولون حينئذ أنه
الحقد وأنه الضغينة وأنه خلق ذميم وطبيعة رديئة ، لأن الحقد هو
الاسم الذى يطلقه العامة على الاستياء اذا دام واتصل وتوالت موارده
فتوالى وجوده ، ولأنهم ربما بلغوا من بلاد الأناية وقلة الاحساس
بمعنى العدل أن يسيئوا الى المستضعف المخدول ولا يتوقعوا منه
الألم والاستياء .. ولم لا ؟ ألا يسرهم أن يعشوا به ويتماجنوا
عليه ؟ فما باله اذن لا يسر بما به يسرون ولا يضحك هو كما هم
يضحكون ؟

فكل ما كانت تطيقه طبيعة ابن الرومى من الشعور هو ذلك الشعور
تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته ، فإذا غابت الأسباب وقررت
المؤثرات نسي شعوره فى لحظة عين وأنقلب الى نقيضه ، وفى قصته
مع الأخفش عبزة لمن شاء أن يعرف ما وراء سخطه من الطيب والغفران
والمودة ، فقد صد الأخفش ما صد من الزمن يعبث به ويثقل عليه
فى العبث حتى منعه أن يبرح بيته ويتصرف لمعاشه ، فعاتبه ابن الرومى
خلم يرعو وأنذره فلم يحفل وقال له يتوعده :

لا يأمنن السفيفه بادرأتى
فاننى عارض لمن عرضا
عندى له السوط إن تلوم فى الـ
ير وعندى اللجام ان ركضا

وما تواعد الا بعد لجاج ومحال وصلح واعتذار ، فلما لم ينفعه ذلك
هجاء وأقذع فى هجائه كمادة أهل الزمان فى كل هجاء ، فعاد الأخفش
اليه يسترضيه ويستعطفه فرضى وعطف ، وأسرع فنى تثقيه ونسى
الهجاء وأقبل يقرظه ويطريه ويبالغ فى تقيظه واطرائه غير تارك لنفسه
يقية لوتر قديم ولا لوتر مستأنف :

ذكر الأخفش القديم فقلنا
وإذا ما حكمت والروم أهلى
أنا بين الخصوم فيه غريب
ومتى قلت باطلا لم ألق
بدأ النحو ناشئا فغذاه
.....
يا ظماء الى الصواب ردوه
هو بحر من البحور فرات
ان للأخفش الحديث لفضلا
فى كلام معرب كنت عدلا
لا أرى الزور للسحاباة أهلا
فيلسوف اولم أسوم هر قلا
أحدث الأخفشين فانقاد رسلا
.....
يستقكم بالصواب علا ونهلا
ليس ملحا، وليس حاشاه ضحلا

وأظن فى ذلك حتى دعاه مقومه وخدينه :

قل له يا مقسومي وسيمى
قد أردت الأطناب فيك فقالت
ورأيت اليسر يكفى من الحى
وكنى ومن غدا لى شكلا
لى غاياتك البعيدة مهلا
لى اذا النصل كان مثلك نصلا
.....
الا أن الأخفش لم يصف هذا الصفاء ولم يكن عابثا فى صلحه كما
كان عابثا فى خصامه ، فعاد الى شئنته معه وعاد ابن الرومى الى
سلاحه الذى نبذه حتى حسب صاحبه أنه حطمه ، فقال يذكره :

حذار عرامى أو نظار فانما
ولا تحسبن الصلح أنصل آلتى
ولكننى مستجمع الحطم مغبر
فان هاجت الهيجاء أو عادعودها
يظلكم قطع من الرجز مرسل
ولا أنتى فى هدنة السلم أغفل
أفوق نبلى تارة وأنصل
على بدئها لم يلق منى أعزل

وليس يفر الحاقده هذا الفرور ولا الناس يصنعون هذا بمن يعلمون
حقده ويحذرون منه تصميم نيته .

وانقلب ابن عمار على ابن الرومى وابن الرومى كما عرفت من
أخباره هو الذى أعانه بما فى وسعه وقربه من الرؤساء أصحابه وجعل
له سببا الى رزقه ، فجزاه انقلابا بانقلاب ومسبة بمسبة ، ولم يفعل
ذلك الا بعد أن تحيل جهده على عطفه واستلال حقدده وحسدده فلم
يفلح ، وكتب اليه يستعيده الى سالف مودته :

أيها الحاسدي على صحبتي العس
 حسدا هاجه على ثلب شعري
 وانتقاصي مع العدو وقد كا
 ليت شعري ماذا حسدت عليه
 أعلى أنني ظلمت وأضحى
 أم على أنني أمشي حسيرا
 أم على أنني ثكلت شقيقي
 عد كريما الي كسريم كما كذ
 لا عقاب بما تقول ولكن
 وتيقن أنني مقيم على العهد
 لا أعد الذنوب منك ذنوبا
 ر وذي الزمان والاخسوانا
 ولقائي معبسا غضبانا
 ن يرى لي نقائص رجحانا
 أيها الظالمى أخائى عينا
 كل من كان صاديا ريانا
 وأرى الناس كلهم ركبانا
 وعدمت الثراء والأوطانا
 ت والا لقيت منى هسوانا
 بجفاء أردفته هجرانا
 د حياتى ، وخذ بذاك ضمانا
 بل هدايا مقبولة وحنانا

فلم يجد ذلك فى استعطاف ابن عمار ولم يشنه عن عدائه وثلبه ...
 ثم تقرأ فى ديوان ابن الرومى فترى فيه قصيدة قالها قبل موته بخمسة
 أيام أو ستة يمدح الجراح على لسان ابن عمار هذا لتيسير منفعة كان
 يرجوها لديه .

ونظن أننا فى غنية عن سرد القصص والأمثلة على عطف ابن
 الرومى وغرارته وطيب قلبه ، فقد كان العطف كما أسلفنا حاجة من
 حاجات طبعه وضرورة من ضرورات حياته ، وآية ذلك بينة فى شعره
 كله وفى تفجعه على أحبابه وشدة فقهه لأهله ، وقناعته منهم باليسير
 من المودة يأخذها حيث وجدها ويأسى عليها حيث لا يجدها ، وهو
 القائل وقد صدق :

وانى لبر بالأقارب واصل على حسد فى بعضهم وعلى بغض

ولقد آن أن نبذ تلك الطريقة العتيقة التى كان بعض الأقدمين يعتمدونها
 فى نقد الأخلاق وتسمية أسمائها والمقابلة بين المتشابه والمتخالف منهما ،
 فانهم تمودوا أن يأخذوا فيها بالأعراض دون الجواهر وبالظواهر دون

المخابر ، وكانوا ينظرون الى السمات البادية ولا ينظرون الى ما وراءها من بواعثها . فللغضب الدائم والحقد سمة واحدة فهنا اذن خلق واحد ! ومتى كان الشاعر كثير الذم والانحاء على الناس فهذه حجة جديدة تضاف الى سمات وجهه ، فلا جدال اذن في حقه ولا شك في قبح سريره وجنوحه الى الشر دون الخير والعداوة دون المودة .. فاذا اتفق مع هذا أنه شهد على نفسه بالحقد فقد بطل الجدل وحقت عليه الكلمة ونفذ فيه القضاء . ألا تراه ناقما مفتما؟ ثم ألا تراه هاجيا لا يكف عن الذم والشتية؟ ثم ألا تراه يقر بذنبه ويصارع الناس بدفين بغضه؟ فماذا بقي بعد من أسباب الحكم غير أن يوصم وأن يدان؟!!

لا يقضاة .! بقي من أسباب الحكم كل شيء ولم يحصل لدينا بعد هذا كله سبب واحد يجوز لنا أن نعتمد عليه ! بقي البحث في أسباب نقمته وذمه وشهادته على نفسه ، فان هذه هي العناصر التي تتألف منها الأخلاق وليست ملامح الغضب ولا كلمات الشفاه . فاذا نحن عرفناها فذاك ، أما إذا ظلت مجهولة فقد جهلنا كل سر ولم نعرف الا ألوان الطلاء

علام تدل النقمة ؟

ثم علام يدل الاعتراف ؟

ان الانسان لينقم وهو من أشرف الناس في نقمته ، وانه ليرضى وهو من أخبث الناس في رضاه ، وان اعتراف المعترف لأحجى أن يبرئه من رذيلة المواربة والنفاق ، وهي رذيلة لا تخلو منها طبيعة الحاسد أو طبيعة الحقود .

ويلوح لنا أن نقاد الأخلاق على هذا النمط لا يختلفون كثيراً من قضاة الزمن العساير الذين كانوا يضربون « المتهم » ليقر بالذنب ثم يأخذونه بشهادته على نفسه .. فغاية الفرق بينهم أن نقادنا لا يضربون ولكنهم كذلك لا يسألون عن المتقود المسوق اليهم هل هو مضروب أو غير مضروب ؟ ونظالمهم يغتبطون بأن يساق اليهم مضروباً معترفاً ليفنيهم عن البحث ويعفيهم من مؤنة السؤال والجواب !

وشهادة الانسان على نفسه بالشركشهادته لها بالخير كلتاهما لاقيمة
لها ما لم يكن لها مصداق من الطبيعة والواقع . فابن الرومي قد شهد
على نفسه بالحق فقال وهو يتحدث بأخلاقه :

شكري عتيد وكذاك حقدي للخير والشر مكان عندي

وقال :

وما الحق الا توأم الشكر في الفتى
فحيث ترى حقدا على ذى اساءة
اذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع
ولا عيب أن تجزى القروض بشلها
وبعض السجايا ينتسب الى بعض
فثم ترى شكرا على حسن القرض
من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
بل العيب أن تدان دنيا فلا تقضى
فهذا اعتراف صحيح يتلف عليه القضاة : قضاة المحكمة العتيقة،
ولكنه بعد ليس بالمهم فى البحث عن أخلاق الرجل لأن وراءه سرا هو
الأهم فى هذا الصدد وهو الحقيقى بأن يدار البحث اليه .

فيجب أن نعلم أولا لماذا شهد ابن الرومي على نفسه بالحق هذ
الشهادة ، فان الحقود لا يشهد على نفسه بحقده والمطبوع على الصراحة
لا يكون مطبوعا على الحقود . وصراحة ابن الرومي هنا تلفت النظر
الى أمر شاذ فى هذا « الاعتراف » وتدعونا الى السؤال عن سره ،
وسره ليس ببعيد .

فالرجل كان يدعى الحقيد ليخيف الذين يستوطنون جانبه
ويستهلون ارضاءه بعد اغضابه ، فما كان يذكر الحقد الا وهو ينذر
ويتوعد من طرف خفى أو ظاهر ، ويخير الناس بين شكره وحقده
ليفنوا شكره ويجتنبوا حقده . فهذه الدعوى عنده كنتك السحنة
البغيضة التى يتعلها بعض الحيوان للاخافة والتهويل حين لا يكون
مخيفا ولا هائلا فى الحقيقة .. وهو محتاج الى دعواه حاجة الحيوان
الى سخته البغيضة فى معترك الحياة .

وسبب آخر لاعترافه بالحقد أنه كان يتفلسف ويدرس الجدل

ويتعاطى صناعة البرهان ويجب أن يمتحن قوته في المنطق والفلسفة بتقييح الحسن وتحسين القبيح حسبما يبدو له من وجهيه ومن تنازع الأقوال فيه ، وتلك سنة كانت معروفة في ذلك العصر يقيسون بها البلاغة ويقيسون بها قوة البرهان . فمدح ابن الرومي الحقد وذمه ولم يقصر بحجة الدّم عن حجة المديح ، وهو القائل في ذم الحقد والرد على مادحيه :

يا ماح الحقد محتالاً له شبيهاً لن يقبل السب زينا من يزينه قد أبرم الله أسباب الأمور معاً يادفن الحقد في ضعفى جوانحه الحقد داء دوى لا دواء له فاستشف منه بصفح أو معاتبة واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت والعفو أقرب للتقوى وإن جرم يكفيك فى العفو أن الله قرظه شهدت أنك لو أذبت ساءك أن نعم وسرك أن ينسى الذنوب معاً انى اذا خلط الأتوام صالحهم جعلت قلبى كطرق السبك من حسد ولست أجعله كالحوض أمزجه	لقد سلكت اليها مسلكا وعشاً حتى يرد كبيراً عاسياً حسداً فلن ترى سبياً منهم منتكشاً ساء الدفين الذى أمست له جذثاً يرى الصدور اذا ما جمره حرثاً فانما يبرىء المصدور ما نثب ولا تكن لصغير الأمر مكثرتاً من مجرم جرح الألباب أو فرثاً (١) وحياً الى خير من صلى ومن بعثنا تلقى أخاك حقوداً صدره شرثاً (٢) وأن تصادف منه جانباً دمثاً بسيء الفعل ، جدا كان أو عبثاً يستخلص الفضة البيضاء لا الخبثاً يحفظ ما طاب من ماء وما خبثاً
--	--

وهو القائل فى هذا المعنى :

ياضارب المثل المزخرف مطرباً أصبحت خصم الحق تهدم مابنى أطريت غثك لا سمينك ضلة	للحقد لم تقسح بزند وار والحق محتج ، وأنت تمارى واخترت من خليك غير خيار
--	--

(١) فرث شق وفرث الرجل ضرب كبده وهو حى .

(٢) الشرث من السيوف والاسنة المحدد وشرث الرجل قلظ ظهر كفه

شبهت نفسك والأولى بولونها
ورأيت حفظك ما أتوا من صالح
وزعمت فيك طبيعة أرضية
ولقد صدقت وما كذبت فانه
لكن هاتيك الطبيعة فى الفتى
ولصسته عن ذكرها أولى به
فينا وفيك طبيعة أرضية
هبطت بآدم قبلنا وبزوجه
فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها
بنست لعمر الله تلك طبيعة
واستأرت ضعفى بنيه بعدها
لكنها مأسورة مقسورة
فجسومهم من أجلها تهوى بها

عرفوا لروح الله فيهم فضل ما
فتزهوا وتعظموا وتكرموا
نزعوا الى النجر الذى منه أتت
قد أثرت من صالح الآثار
عن لثوم طبع الطين والأحجار
أرواحهم ، وسما عن الأغوار

فابن الرومى القائل هذا هو ابن الرومى القائل ذلك ... وكأننا
بقضاة المحكمة العتيقة يتحفزون للادانة المبرمة ويبحثون بين أيديهم عن
المجرم الذى دانوه فلا يجدون هنالك الا متفلسفا يقلب القضية على
وجهيها ، أو هرا مستضعفا يزأر لأنه خائف لا لأنه مخيف .. أو يعلمون
أن الرجل قد يستجمع سمات الغضب الدائم ولهجته ويعترف على نفسه
بحقده ولا يكون بعد ذلك على شيء من الحقد كثير ولا قليل .

وجميع أخلاق ابن الرومى تنتهى عند البحث فيها الى مثل هذه
النهاية فهو كما أسلفنا لا يعرف من الأخلاق الا «الأخضر» الذى يجرى
فيه الماء لوقته . أو هو لا يعرف من الأخلاق الا ما يحضره سببه وتخلج
فى صدره دواعيه :

أيندم ويتوب عن المعاصي ؟

نعم ! وجبت التوبة والندم . اذ

حتى متى نشترى دنيا بآخرة سفاهة ، ونبيع الفوق بالدون

معللين بآمال تخادعنا وزخرف من غرور العيش موزون

أيلهو ويقصف ؟

نعم ! يلهو ويقصف ويقول لمن يتوب ويندم :

لا تخط الخب بالتقوى فتعطفنا على المقاسى عذاب الهجر والبين

ولم نبع قط دنيانا بآخرة ومثلنا لا يبيع النقد بالدين

أيسكر بعد اقبال المشيب وادبار الشباب ؟

نعم

فأعذر شراب المدامه شارب لتقصير أيام المشيب الأوطال

أو

فالأآن حين أجد الشيب يطلبنى أبادر الشيب باللذات عجلانا

أم يقلع عن السكر بعد اقبال المشيب وادبار الشباب ؟

قد يكون ذلك خيراً

فدع شربها اذ أصبح الرأس مشرقاً

محاذرة أن يصبح القلب مظلماً

ولاترينك السن والله والنهى

على الشيب والاسلام واللوم مقدماً

أيشح ويحرص على ماله ؟

نعم . فانه ..

اذا لم يكن عندى سوى ما يكفى فشحى عليه مثل شحى على عرضى

لأنى متى أتلفته احتجت حاجة تذييل مصون العرض فى طلب القرض

أيجود ويسرف ؟

نعم . و

لا تحلن همسوم أيام على يوم لملك أن تقصر عن غده

بل هو يسأل الله أن يقيه الشح ويلهمه الجود :

قنى يا الهى شح نفسى فانى أرى الجود لى حظا وشيمتى البخل

وربما تعاورته العالتان فى لحظة واحدة ، فتراه حائر النفس بين

الحرص والتوكل لا يطمئن الى هذا حتى يثوب الى ذاك :

وقضاء الاله أحوط للنسا س من الأمهات والآباء

غير أن اليقين أضحى مريضاً مرضاً باطنياً شديداً الخفاء

ما وجدت امراء يرى أنه يو قن الا وفيه شوب امراء

لو يصح اليقين ما رغب الرا غب الا الى ملك السماء

وعسير بلوغ هاتيك جسدا تلك عليا مراتب الأنبياء

أو قد يدركه الخدر أو الأريحية فيحجم عن هجاء السلطان ويعلم

سر احجابه كأنه مطالب بهذا الاعلان :

لا أقذع السلطان فى أيامه خوفاً لسطوته ومرعسابه

وإذا الزمان أصابه بصروفه حاذرت رجعته ووشك مثابه

وأعد لثوما أن أهم بمضسه اذ قلت الأيام من أنيسابه

ذلك حين يساوره الخوف ويذكر الأريحية . فأما اذا ثارت بلابله

واضطرمت لواعجه وملكه الفيظ فاجتاح حزمه وخوفه فهو أهجم هاجم

على سلطان حديد ناب أو مفلوله ! وهو الجسور فى هجائه على ما

يخافه الجسور الذى لا يخاف .

فهو ابن ساعته وطلوع الحاضر من احساسه ، و « النوبة الطارئة »

هى المفتاح الذى يفض به كل ما استغلق من أسرار نفسه على الجملة ،

وما كان فى نفسه من سر مغلق الا وجدته هو معنى منهوما بالنوص

عليه والكشف له لقارئى شعره !

عاش ابن الرومي حياته كلها في بغداد ، لا يفارقها قليلا حتى يعود سريعا وقد نازعه اليها شوق وغلبه نحوها حنين ، وكانت بغداد يومئذ عاصمة الدنيا غير مدافع : فيها كل محاسن العمار الواسع وعيوبه وكل رفاهة العمار الواسع وشقائه . قصور تبلغ النفقة على بنائها وتأثيئها الوف الألوف ، ومتاجر يؤمها أصحاب القوافل من أقصى المشرق وأقصى المغرب ، ومدارس ومكاتب وحلقات للمذاكرة يجلس فيها الأئمة في كل فرع من فروع العلم والأدب ، والى جانب ذلك يسوت في كل منزله ومرتاد على النهر أو في الخلاء للهو والمعاقرة والسمر يفنى فيها القيان وترقص الجوارى وينشأها العلية والسواد ، ويسكت عنها الخلفاء حيناً فتكثر وتعمر أو يفضبون عليها فيبعدونها الى حيث تغيب عن الأنظار ولكنها لاتغيب عن الطلاب والرواد ، ومن وراء ذلك احياء منبوذة يكمن فيها اللصوص والمفتالون ينألبون على نهب الدور وحمل الخزائن واستدراج الموسرين على نحو ما نقرأ عن عصابات الاثم والجريمة في عواصم هذا الزمان ، فاذا تصفحت أخبار بغداد بما اشتملت عليه من جمال وشناعة وبذخ وفاقة وأحتيال على طلب المال والمتعة من كل مطلب وانصراف الى السرور والرغد في كل وجهة فكأنك تتصفح أخبار الغرائب في عواصم الدنيا التي تسمى اليوم باريس وبرلين ولندن وشيكاغو ونيويورك .

وهذه العواصم كافة لاتطيب فيها اقامة الابل ، أما بغداد خاصة فكان ساكنها أحوج الى المال من ساكن العواصم الحديثة ، لأنها كانت عرضة للغلاء في القرن الثالث لاضطراب الأمور في الجهات التي كانت تديرها وانقطاع الوارد عنها حيناً بعد حين . فاذا وقع فيها الغلاء ندر الخبز وارتفع سعر الدقيق وكان ما وصفه ابن الرومي في بعض شكاياته .

أحسن ما كان الدقيق موقعا من رجل أفلس حتى أدقعا
وأصبح القوم البطان جوعا وخشى الجائع ألا يشبع

وهي اذا لم تغل لم ترخص ولم يستغن طالب المعيشة فيها عن بعض
اليسار كما قال بعض الشعراء

سقى الله بغداد من جنة غدت للورى نزهة الأنفس
على أنها منية المورس ين ولكنها حصرة المفلس

وابن الرومي لم يكن طالب معيشة وحسب ، بل كان طالب معيشة
ومتعة ومسرة ، وكان منهوماً في مطالبه كلها قليل الصبر على غواية
المناعم واللذات أنى كانت وحيث أمكن منها الحول والحيلة :

فيادر الدهر بالمناعم واللذات واحذر من وثك مرتحل
فان تعذر أن يجتلك بالقوة فاحتل لطائف الحيل

وكان كثير الألفة لبيوت القيان يعاشرهن ويسمعن ولا يسمع
فيهن لوم لائم :

ولاح في القيان فقلت مهلا رميت بنبل أوتار القيان

شبهات الرماح قنصامتون وكلما في القلوب بلا سنان
وهل من حربة أو من سنان كعين أو كغفر أو بنان ؟

وربما كان الشعر من حيله التي كان يحتال بها على ودالقيان
وحضور مجالسهن فيثنى عليهن حيناً ويهجوهم أحياناً وينال بذلك ما
يناله غيره بالدنانير والدراهم ، بيد أنها حيلة تغنيه في هذا الغرض
قليلاً ولا تغنيه كثيراً ، ثم هي لاتغنيه عن المال كلما احتاج إليه في سائر
وجوه عيشه ولهوه .

فصاحبنا في مدينة الغلاء قد عاش وعلى غير التقشف والزهد قد
فطر ، فهل كان ميسور الحالة مكفى المؤنة ؟ وهل كان الشعر كفيلاً
له بما لا يغنيه في ضروراته ونوافله ؟ أو هو كان فقيراً محروماً لا يصيب
من فرص العيش إلا ما يغبه على موائد الأمراء أو يحتال له «لطائف
الحيل» حيثما أسعفت وأفادت ، وقلما تسعف وتفيد ؟

ان قصائد ابن الرومي في جملتها لاتدع الا أثرا واحدا في ذهن القارىء من هذه الوجهة ، وهو أنه كان في ضحك وفاقه ، كثيرالحرمان كثير الشكاية . ولكنها لاتخلو هنا وهناك من آيات تدل على كفاف أو حفظ من اليسر ، وعلى أن بعض مهدوحيه كانوا يحرمونه عطاياهم لذلك اليسر الذي يروونه عليه .

أتحرمنى لأنى مستقل وانى لست كالرزحى السقاب
فما تحمى ذوات الدر درا اذا صادفن ملاك الوطاب

ومن آياته ما يدل على أنه كان صاحب ضيعة وصاحب دارين وثرأ وتحف موروثه منها قدح زعم أنه كان للرشيد وقال في وصفه وقد أهداه الى على بن يحيى المنجم .

وبديع من البدائع يسبى كل عقل ويطبى كل طرف
وفى الحسن والملاحة حتى ما يوفيه واصف حق ووصف
قدح كان للرشيد اصطفاه خلف من ذكوره غير خلف
كفم الحب فى الحلاوة بل أحلى ، وأن كان لايناغى بحرف
صينج من جوهر مصفى طباعا لا علاجا بكيمياء مصف
تنفذ العين فيه حتى تراها أخطأته من رقة المستشف
كهواء بلا هباء ، مشوب بضياء ، أرقق بذلك وأصف
وسط القدر لم يكبر لجرع متوال ، ولم يصغر لرشف

فعلى هذا يلوح لنا أنه كان ميسر المعيشة ولو بعض التيسير ، وأنه كان فى وقت من أوقاته « مستقلا » ليس « كالرزحى السقاب » غير أننا لانعلم بخبر تلك الضيعة الا لنعلم أنها مجدبة تطيل عناه ولا نفل عليه :

أعانى ضيعة ما زلت منها بحمد الله قدما فى عشاء

وأنها كانت تصاب بالجراد فيأتى على زرعها فى بعض السنين :

لى زرع أتى عليه الجراد عادنى مذرزئته العنواد
كنت أرجو حصاده فأناه قبل أن يبلغ الحصاد الحصاد

وأنه كان يستغنى من دفع خراجها ويكتب الى وهب بن سليمان يشكو اليه ضيقه وسلب الخطوب ما فى يديه :

هب لراجيك ما عليه فان اسـ	مك وهب ووسك الوهاب
أنت بحر ومن له تجبى الأمـ	وال بحر لجانيه عباب
فارغبا عن مداد شعبي فليست	فيه الا صبابة . بل سراپ
وارثيا لامرىء ألح عليه	للزمان الصئول ظفر وناب
سلبته الخطوب ما فى يديه	وله من تجميل أثواب
.....
غير أن ليس فى خراجى وحدى	ما بأعلاقه يسوغ الشراب
لك فى مكثرى الرعية دونى	حلب كيف شئت بل أحلاب

كذلك لا نعلم « بثرائه » الا لنعلم أنه أصيب فيه بحريق و

حدوث حوادث منها حريق تحيف ما جمعت من الثراء
وانه أصبح يستطعم بعد أن كان من المطعمين :

أمن بعد منزلة المطعمين أعدم منزلة الطاعم

وكذلك لانعلم بخبر داريه الا لنعلم أنهما غصبتا منه كما زعم أو خرجتا من يده بحق أو بغير حق على أية حال ؛ فلما كان فى نحو الثلاثين جار على دار له تاجر يعرف بابن أبى كامل - فى رواية زهر الآداب - فاغتصب بعض جذرها وأجبره على بيعها وفزع ابن الرومى الى سليمان بن عبد الله بن ظاهر يستعديه ويذكر تلك الدار أو ذلك « الوطن » .

ولى وطن آليت ألا أبيعـ	والأرى غيرى له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة	كنعمة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجال اليهم	مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم	عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألقته النفس حتى كأنه	لها جسد ان بان غودر هالكا
.....

وقد ضامني فيه لئيم وعزني
وأحدث احداثا أضرت بمنزلي
وراعمني فيما أتى من ظلامتي
فما هو الا نظمك الشعر سادرا
مقالة وغد مثله قال مثلها
صدوفاعن الخيرات لا يرام الملا
من القوم لا يرعون حق الشاعر
يعيرني سؤل الملوك ولم يكن
مدلا بمال لم يصبه بحلة
وحسبي عن اثم الألية زاجر
واني وان أضحي مدلا بماله
فان أخطأتني من يمينك نعمة
فلا تغطئنه نعمة من شمالكا



فلم يصنع اليه سليمان بن عبد الله

وهذه هي قضية الدار الأولى التي غضبت وسليمان وال على بغداد وابن الرومي يومئذ في نحو الثلاثين . وهي قضية كما ترى مفصلة لم يسقط منها حرف ما قيل بين الخصمين المتنازعين ! ! تقرأ الأبيات حتى تنتهي منها فلا يسمعك الا أن تنسى الدار وتنسى يسر ابن الرومي وعسره التفاتا الى هذا الاستقصاء الدقيق في سرد وقائع المشكلة والمشاجرة التي نشبت بين صاحب الدار والتاجر الباغي عليه في زعمه ، فما من كلمة قيلت في تلك المشاجرة أو تقال في أمثالها الى اليوم الا جاء بها ابن الرومي وأبرأ بها ذمته كما يبرىء الذمة حالف اليمين العموس : يجور التاجر على دار الشاعر فينقض جدارها ويتلفها ليجبره على بيعها ، فيقوم الشاعر ويقعد ويرغى ويزبد وينذر خصمه الويل والشبور وعظائم الأمور ، فيهزأ التاجر المعترز بثروته الساخر بكل شيء غير ذهبه وفضته ويقول له : وماذا عمالك أن تفعل ؟ قصارك أن تنظم قصيدة .. فاذهب وانظم ما بدا لك ودع الشعر ينفعك ! فما هو الاضلة من ضلالك وبلاء لك يضر بك ولا يجدي عليك ،

فيغضب الشاعر لشعره ويذكر الأدب والعلم والملوك والأمراء فيستخف
التاجر بفخره ويقول له : وما أنت من ذاك كله... ما أنت الا متسول
مسترفد تمد يديك الى مال غيرك !! فيرتد عليه الشاعر مزرياً بما له
يجمع الا من السرقة والخداع والسحت والحرام ، ويذهب يشكو
ويستعدى ويرجو ويستجدي ، وهكذا تدور الملاحاة والمنازعة في
القصيدة وتسجل القضية كلها في الشعر على نمط لا يخرم حرفاً
ولا يزيد فيها ولا ينقص كان الشاعر مشغول بالرواية عن الدار
والمنازعة عليها !! ومن الطبيعي أن يحدث جميع ما حدث ولكن ليس
من الطبيعي أن يثبت الشاعر جميع ما حدث في قصيدة . اذ لا فرق
بين أقدر الشعراء وأضعفهم الا أن أقدر الشعراء يجيء في شعره
« بالطبعي » البسيط وأضعفهم يهمل « الطبيعي » البسيط وينقص
منه أو يزيد عليه .

وللدار الثانية قضية نعرف تفصيلها كما عرفنا تفصيل هذه القضية،
فقد نازعته فيها امرأة ونزعته منه عنوة فكتب الى الوزير عبيد الله
ابن سليمان يعرض عليه القضية ويستغيث :

تهضمني أثى وتغصب جهرة

عقارى ، وفي هاتيك أعجب معجب

لقد أذكرتنى لامرئ القيس قوله

« فانك لم يغلبك مثل مغلب »

وكانت آخر قصيدة قالها - كما في الديوان - لامية يقول فيها :

أقول اذ غصبتنى كف جارية	الله أكبر من ود ومن هبل (أ)
ان العوانى بما أملن من أمل	فما يبالين مالاقين من أجل
متى غلبن رجال الجد فى زمن	كما غلبن رجال اللهو والغزل
وان أعجب شئ أنت مبصره	فى كل ما حملته الأرض من ثقل
كف خضيب من الحناء غاصبة	كفاخضيباً من الابطال والعضل

يا حسرتا لي ! ويا لهفا ! ويا عجباً
في دولتي أنا مغضوب وفي زمني
ان هذه الحال لم تنكر ولم تزل
عودى ظمىء بلا رى ولا بلل

يريد دولة بنى وهب وهم أنصاره ومدوحيه

ومن الواضح أن هذه الدار أخذت منه قبيل موته بزمن قليل ،
لأنه يطلب رجوعها في أواخر شعره ويقول أنه لم يكن يومئذ « من رجال
اللهو والغزل » . وقد يحتمل أن هذا الشعر كله قيل في دار واحدة
لا في دارين وأنه تشبث بتلك الدار بعد ما أحدث فيها التاجر الأحداث
ورام أن يضطره الى بيعها فلم يبيعها وظل مالكا لها حتى ضاعت منه
في أخريات عمره ، وهو احتمال يرد على الخاطر ولكننا نستبعده لأن
زهر الآداب صريح في أن التاجر « أجبره » على بيع داره ولأن ابن
الرومي لا ينسى أن يذكر الصبا وطول العهد بسكنى الدار لو
كانت هي الدار الأولى التي ملكها وعاش فيها من صباه الى هرمه .
وثم قصة أخرى « لدار » كان ابن الرومي يسكنها ويخاطب في
شأنها والى الشرطة أحمد بن محمد الوثائقى الذى بقيت له الولاية
الى ما بعد موت ابن الرومي بيضع سنوات ، فمن تلك الدار
يقول :

بينما النفس وبيها بك ترجو
وتراعى آمالها منك انجبا
ملك دار معمورة مأهولة
ز مواعيد للمنى مطولة
اذ أتانى الرسول منك بأمر
وهو ازعاجها بأعنف عنف
أنا ان لم تذد بينناك عنى
غير شك فريسة مأكولة

ونظن أن البيتين الآتين ما قاله في هذه الدار بعينها

يا ويح من أصبح فى غممة
فروحه تزعج عن جسمه
ليس له من كربها مخرج
وجسمه عن يته يزعج

وقد تكون هذه الدار هي التي نزعها منه المرأة ، وقد تكون
داراً مأجورة وهو الأرجح عندنا ، لأن الشاعر لا يقول في مزاياها الا

انها « محل قد استظاب حلوه » و « منزل أحب نزوله » وأنها مكان :

فيه عافاني الاله من الشكو ووفك الاله عنى كبوله
بعد جهد حملت منه ضروبا ليس أثقالهن بالمحمولة

وهو كلام أشبه بأن يقال في مكان جرب بعد تجربة غيره، وكان فيه معنى للاستظابة والاختيار، وله على غيره من الأماكن المأجورة مزية الموافقة والاستحسان. ويزيد في ترجيح ذلك أن الشاعر يقول أنه كان يرجو « ملك » دار معمورة مأهولة فما كفاه أن تفوته الدار المملوكة حتى أزعجوه عن مسكنه .. وذلك بما تقدم أشبه .

وأيا كان الخلاف فيما سبق فالأمر الذي لاخلاف فيه أنه مات في دار مأجورة . فإن الناجم يقول حين قص علينا قصته في مرض وفاته أنه انتقل من الكرخ الى باب البصرة فسكن في دار ابن قلابة ولم يسكن في دار ابن المعافى كما أشار بعض أصدقائه وهو يصف حاله قبيل ذلك فيقول من قصيدته البائية الى القاسم بن عبيد الله حين عزم على الشخصوس الى « آمد » مع الخليفة المعتضد .

ثوبى الرث والنياب طراء وطعامى برغمى المجشسوب
ومحلى عارية وجسدارا ت يوتى فكلها منقسوب
ومقيلى فى الصيف سخن بلاخب ش ، فعظمى يسكاد منه يذوب

فالذى يفهم من هذه الأخبار حين يجمع بعضها الى بعض أنه ورث داراً من أبيه هي التي يقول انه قضى فيها أيام صباه ، فلا تكون على هذا الا ارثاً نشأ فيه قبل أن يدرك السن التي يكسب فيها ثمن الدور، وورث تحفاً تقتنى كذلك الكأس التي زعم أنها كانت للرشييد ، وقد تكون الضيعة بعض ارثه من أبيه وقد تكون مما اقتناه في بعض حالات وفرة ، ولكنه كان يحتاج الى الدين فيعرض عقاره للضياع وتقوم عليه الحجة فلا يقدر الولاية على دفع خصومه وقبول دعواه ، وشكاياته من الديون كثيرة تؤيد هذا التفسير . فمنها :

على دين ثقيل أنت قاضيه يامن يحملنى دينى رجائيه
وقد حملنى اخوانى مواردهم ووكلننى الى بحر سواقيه
ومنها :

أقول لما رأيت عرسى تسترزق الله باليسدين
سيجعل الله بعد عسر يسراً بجدوى أبى الحسين
من حسن حال ورقة بال ورفع قدر وحط دين
ومنها :

وارتكاب الديون اياى فى ظلم ك يهجوك باللسان الفصيح

ففى هذه الديون ضاع عقاره واستبد به دائنوه .

ومثل ابن الرومى لا يستغرب منه أن يسرف ويستدين وأنما
يستغرب منه أن يقصد فى نفقته ويعتدل فى تصرفه ، فهو اما مضياع
متلاف واما شحيح مقتر حسبما يتجاوز من المغريات بالانفاق
وهواجس الخوف من الفاقة، وقد كان هو مضياعا متلافا وشحيحا مقترا
فى نوبات نوبات لا يدري لها سبب ولا يضبط لها ضابط ،
فكان مضياعا متلافا على الكره منه وشحيحا مقترا على الكره منه
كذلك ، وكثيراً ما أنحى على نفسه باللوم لحرصه وضعف ايمانه
وشكاها الى الله كأنما يغالبه على الحرص مغالب شديد المراس
كما قال :

الى الله أشكو شح نفسى لأننى أرى الجودلى حظاً وشيمتى البخل
وقد كان حق الجود بذل ذخائرى الى أن يرانى الله يعوزنى الأكل
ولكن نفسى آثرت نبل مالها وما حيث نبل المال ما يوجد النبل
أو كما قال :

وفىما اجتهدى فى محاولة العنى وما للعنى عند الجواد به قدر

وحينا يثقل عليه الصراع بين حرصه وسرفه ويخذ الى العجز عن
المغالبة فيلتمس المعاذير لنفسه ويجعل الشح من المكارم المحسودة
لأنه يصونه عن الحاجة ويعصمه من السؤال والاقتراض :

اذا لم يكن عندي سوى ما يكفني فشحى عليه مثل شحى على عرضي
لأنى متى أتلفته احتجت حاجة تذييل مصون العرض في طلب القرض

فهو لا يزال أبداً شديد الزهد شديد الرغبة :

وأصبح في الاثراء أزهّد زاهد وان كان في الاثراء أرغب راغب
فلا جرم يضطرب في عيشه ويخرج عن القصد في حالتي شحه
وسرفه ، ويظل مدخراً لا ينتفع بما ادخر أو مبدداً لا يبقى من ماله
ولا يذر .



على أنه لو بقي له كل ماورث من أبيه وكل ما علمنا أنه ملكه لما
أغنانا ذلك عن البحث في مورد رزقه وسبب اتصال عيشه . اذ كان
البيت الذي يسكنه مالكه لا يحسب من موارد الكسب ، والضيعة
التي « مازال منها في عناء » لا تبلغ أن تدر عليه رزقا يكفيه ، ومن
أخباره ما يقطع بعثور جده وبؤسه الغالب عليه معظم حياته ، فلولا
هذا البؤس لما لزمه ميسم النحاس ولا عيروه الخيبة والخصاصة ، ولولا
عسره وافتقاره لما وقع بينه وبين البحترى ما وقع ، اذ هجاه « فاهدى
اليه تحت متاع وكيس دراهم وكتب اليه ليريه أن الهدية ليست تقيه
منه ولكن رقة عليه ، وانه لم يحمله على ما فعل الا الفقر والحسد
المفرط » !! فاذا خطر لنا أن مطالبه الكثيرة لاتدل على حقيقة فقره
وانها عادة جرى عليها كما جرى الشعراء في عصره فاشتهاره بالنحاس
والتخلف ورد البحترى عليه دليل على عسر حقيقي ما فيه ريب ، أو
دليل على حاجة دائمة الى المدائح والصلوات يعول عليها في ضرورات
معاشه فضلا عن نوافل لهوه .

فسؤالنا الذي ينبغي أن نسأله في هذا المعرض هو : ماذا كان

نصيبه من المدائح وكيف كانت حظوته عند مدوحيه ؟ والجواب الذي لا تردد فيه انه لم يكن نصيبا جزيلًا ولا حظوة مغبوطة . اذ هو لم يتصل بالخلفاء ولم يأخذ جوائزهم الكبيرة التي تغني الشاعر عن السؤال زمنا أو تغنيه عنه بقية حياته ، وانما كانت مدائحه كلها للولاة والوزراء والقواد والكتاب ومن يضارعهم ويقل عنهم في الرتبة والثروة ، فلم يمدح خليفة قط الا لملاقة بين هذا الخليفة وبين رئيس أو نديم من الذين يعرفهم ويتسنى اليهم ، فمدح المستعين وهجا المعتز حين تنازعا الخلافة بينهما لأن محمد بن عبد الله بن طاهر كان من حزب المستعين وكان مقبلا في بغداد وابن الرومي يمدحه ويقيم معه في المدينة ، ومدح المعتد لأن بنانا المغني اقترح عليه مدحه - وهو يكتب لبنان - فأجابه الى ما اقترح وذكر اسمه في ختام القصيدة :

فلا يزل في نعيم عيش مزاجه الخفض والليان
حتى يرى فيه كل سؤل ومنية عنده بنان

ومدح المعتضد بالمقاطيع الكثيرة لأنه كان صديق آل وهب وكانهم من لدن تولى العهد الى أن بويع بالخلافة .

وقس على ذلك سائر مدائحه للخلفاء وولاة العمود وما هي بالكثيرة في عددها ولا هي بالكثيرة في عدد أبياتها . فقد كان لا يعنى بتطولها كما كان يطول مدائح الولاة والوزراء لأنها مدائح لم تقصد لذاتها ولم ينظمها الا مرضاة لأصحابه وتلبية لاقتراح المقترحين عليه ، وكانهم كانوا يطمعون بذلك في تقريبه من الخلفاء وازلافه لعطاياهم ، ولكنهم لا يفعلون فظل محجوبا عن الخلفاء لا يستدعونه ولا يسألون عن شعره حتى مات وجاء المستكفي يسأل عما قاله في الطعام والشراب !

ونعود الى الوزراء والرؤساء لنبحث عن نصاب الجائزة عندهم وغاية ما يصلون به الشاعر اذا رضوا عنه وبالغوا في عطائه . وليس يطول بنا البحث في هذا لأنه واضح من الحديث الذي جرى بين

البخترى وابن الرومى حيث يقول البخترى : « أقرأنى أبو عيسى بن صاعد قصيدة لك فى آيه وسألنى عن الثواب عنها فقلت : أعطوه لكل بيت ديناراً » فكان هذا غاية ما يرتقى إليه الموصى بجائزة وغاية ما كان ينتظره ابن الرومى من شفاعته متشفع يتودد إليه ، وابن الرومى نفسه قد عين نصاب هذه الجوائز تعييناً فى بيت يخاطب به على بن يحيى المنجم يقول فيه :

وما المائة الصفاء منك بدعة ولا من أخيك الأريحي أبى الصقر
يعنى مائة دينار . فهى اذن غاية الغايات من جوائز الأمراء ،
ولا بد أن يحسب فى هذا التقدير حساب مبالغتين مفروضتين فى هذا
المقام هما مبالغة الطمع ومبالغة الثناء ، بل حساب مبالغة أخرى
صريحة فى البيت وهى أن الانعام بمائة دينار كان أقصى ما تسمو
إليه الأريحية وكان بدعة فى ذلك العصر من غير هذين المدوخين
فن الرؤساء - على هذا - من كان يجيز الشاعر أن أجازه
بمشرين ديناراً وعشرة دنانير وما فوق ذلك وما دونه ، وكانت هذه
هى السنة الشائعة والنصاب الذى جرى عليه العرف بين معظم الرؤساء
ومعظم الشعراء .

وأنت تقلب ديوان ابن الرومى فتقرأ فيه عشر قصائد فى الشكوى
والتذكير والاستبطاء والالاحاح والانداز والهجاء الى جانب قصيدة
واحدة فى المدح البخالص من العتاب والاستنجاز ، فلنقدر أنه نجح
فى مائة قصيدة وأخذ عليها مائة جائزة فحصل ذلك كله لا يزيد على
ألفى دينار مع التسهل فى عدد الجوائز ومقدار الدنانير ، وألفا دينار
يتلقفها الشاعر فى نحو أربعين سنة ليست بالرزق الرخى ولا بالوقاء من
العوز والدين فى مدينة الغلاء وعصر البذخ والاسراف ، ودع عنك
أنها تجيء متقطعة سنونة لا يعرف لها موعد ولا توافق أوقات الطلب
والحاجة .

ذلك نصاب الجوائز عند الرؤساء والوزراء اذا رضوا وسمحوا
بالمعطاء ، فاما الخطوة عندهم فلم تكن من قسمة ابن الرومى فى أكثر

الأوقات وان أكثر وان أجاد وان أفرط في التزلف والاسترضاء : فما أكثر ما كانوا يتجنون عليه ويستخفون به ويتمحطون العلل الواهية لحرمانه وجفائه والقدح في شعره! فهذا اسماعيل بن بلبل مدحه بقصيدة معدودة في شعر المدح العربي من أقدم أزمانه الى أحدثها فتجهم له وضمن عليه ، ولأى ذنب ؟ لأنه قال فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت اهم كلاً لعمرى ولكن منه شيبان
وأى شيء في ذلك ؟ فيه كما زعم أنه هجاه وأنكر عليه ما ادعاه
من نسبه .! ف قيل له هذا من أحسن المديح ، فاسمع ما بعده :

وكم أب علا بابن ذرى شرف كما علا برسول الله عندتان
فتجنى وتعلل وقال : أنا بشيبان ليس شيبان بى ، ف قيل له انه لم
يخس شيبان وقد قال فيها :
ولم أقصر بشيبان التي بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان
فه شيبان قسوم لا يفتيهم روع إذا الروع شابت منه ولدان
فأصر على التجنى والتعلل وأقسم لا أئابه ، ورجع الشاعر مغضوباً
عليه فوق حرمانه وطرده .. وقد كان رجاءه بما جود وأطال أنه
يرضى عنه ويثاب . ولم يكفه هذا حتى جنى على نفسه انحراف الوزراء
الآخرين عنه لأنهم لم يمدحوا بتلك القصيدة ، فراح منهم من يقول
انها دار البليخ ا

ومدح محمد بن عبد الله بن طاهر مرة فانقلب ناقدا منافسا للشاعر
وهجا شعره ولم يجزه بشيء :

مدحت أبا العباس أطلب رفته

فخبيني من رفته وهجا شعري

فهبني قد أعفيت من مشيوتى

أيغضى له شعري على مضض الوتر

ومن افعالهم اياه أنه كتب قصيدة عتاب الى أبي سهل النوبختي
قنظر اليها والرياح تلعب بها في جانب الدار وقد خطط في ظهرها
بالمداد ! فثارت ثأثرته وأقبل يعاتب لاهمال العتاب بعد أن كان يعاتب
لاهمال الثواب :

رقعة من معاتب لك ظلت ولها في ذراك مشوى مهان

سطر العابثون فيها أسانا
يرغت منها فما يستبان
خط ولدانكم أفانين فيها أو رجال كأنهم ولدان

وقييح يجوز كل قبيح
رقعة من معاتب لا تصان

ويتمسجون فيقولون إذا مدحهم أنه ينظم الشعر كأنه قائم ..
فيرى المسكين فرضا لزاما أن يسلم لهم العيب الذي عابوه وأن يستخرج
معنى جديدا من معاني الثناء على ذلك الممدوح الذي تماجن عليه :
مدحك مدح المستنيم الى امرئ كريم فقلت الشعر وسانا هاجما
ولا ترى له شعرا في أحد من الذين انقطع لهم وأكثر من قصدهم
الا رأيت يشكو في خطابه له أنه يظلمه حقه ويخصه بالحرمان دون أمثاله
ومن هم أقل منه . فهو يقول لبني وهب :

فاز الوري من ريحك بسحاب هطت ، وفزت بسافيات تراب
ولبني طاهر ..

أرى الشعراء حظوا عندكم سسواء عيهم واللسن
سواي ! فاني أراني امرءا هزئت ، وكلهم قد عن
ولبني هاشم :

بني هاشم مالي أراكم كأنكم
تجورون أحيانا وأتم أولو عدل
كما لو هجاكم شاعر حل قله
كذلك فأوفوا مادحا دية القتل

ولاسماعيل بن بلبل :

أبا الصقر لست أرى مهديا لك المدح - غيرى - الا مثابا

ولعل قربه منهم وحسابه عليهم هو الذى أنزر نصيبه من جوائزهم وحفاوتهم ، لأنهم كانوا يحسبون عليه حضور مجالسهم وموائدهم واسهامه أحيانا فيما يسهم فيه الجلساء والندمان من الطافهم وهداياهم ، ويوجبون عليه بذلك أن يظل لهم وخدمهم شاعرهم وأديب بيتهم يطرفهم بالملح الأدبية ويواليهم بالتهنئة فى مناسبات التهنئة والثناء فى معارض الثناء ثم لا ينتظر منهم الخلع والصلوات على كل قصيدة ولا فى كل موسم كما ينتظرها الشاعر الطارىء الذى يلتقى قصيدته وينذهب لطيته . وهم فوق هذا يبنون عليه أن قبلوه فى مجالسهم وأحضره موائدهم ويفرضون عليه وفاء العبد للسيد والصنيعة لولى النعمة ، ويظنون أنهم كفلوه بالعيش الرغيد والظل والظليل :

مراحماتكم بغير علمى

وہ تمیید رب لمربوبہ	اذا امتاحهم آكلة عبد
ہ بالقوت أفضل مطلوبہ	يخالون أنهم بلغو
بہ من غوائل مرهوبہ	وأنهم حرسوا نفسہ
كلبوسہ أو كمرکوبہ	يذيل مضيفهم ضيفہ

والأغلب عندنا أنهم كانوا يقبلونه فى مجالسهم ويحضرونه موائدهم غراما بضروب الشذوذ والشهرة وكلفا بالطرائف والملح كما هو دأب أصحاب المجالس فى كل أمة ، فكانوا يأنسون به فى بعض حالاتهم ويقربونه لغرابة أطواره ووفرة محفوظه من الأشعار والنوادر والأمثال وسرعة ارتجاله للتشبيه والمحاكاة ، فكانتهم اصطنعوه للأغراب لا للمودة وتخيره للمظهر لا للثقة والكرامة ، ولهذا كانوا يحضرونه مجالس الاحتشام وينحونه عن خلوات الحفاوة والتبسط ، وكان يعلم بهذا فسوؤه فوق مساءته بالحرمان ويعجله الغيظ الذى لا يقوى على

كظمه أن يسكت عن العتاب في مثل هذا الأمر ، فيعتب كلما حجب
كما قال في مرة من هذه المرات للقاسم :

في جنسار واختها دبسية
يا ابن الوزير لعاتب متعقب
أحضرتسوني جنسار وأحضرت
دبسية الكبرى لغيري تحجب

وكان يحار في هذا الحجب ولا يدري ما علته ولا ما النقص الذي
استوجبه ، ويسائل الأمير عن نفسه :

هل ترى الغفلة شابت حلمه أم ترى النكراء شابت فظنه
هل ترى العي يثواخي صسته أم ترى الغي يثواخي لسنه
هل ترى الشك عليه غالبا عند حق ، أم تراه يقنه
هل رأى منك قبيحا بشه أم رأى منك جيلا دفنه
هل لديه لك ستر ذائع أم أمانات غدت محتجئة

لكن حيرة ابن الرومي هذه قد ترشدنا الى أسباب حجه لأنها
ترشدنا الى بضاعته التي أعدها للمنادمة وحسب أنه مستحق بها التقريب
والمصاحبة ، وهي أدوات العلم والبحث والشك في موضع الشك
واليقين في موضع اليقين ! وما هي بالزوم ما يلزم النديم في مجالس الخلوة
فضلا عن مجالس الاحتشام ، فقد يستغنى النديم عنها كلها بالقدرة على
المصانعة ومسيرة الأهواء ، في حين أن العلم لا يغنيه عن تلك القدرة
ولا يسد مسدها في مجالس الاحتشام ولا مجالس الإباحة .

بقي حفظ السر وما نظن دعواه فيه مطابقة للحقيقة أو لرأي
جلسائه المحتجزين عنه في خلوات الإباحة : لأن من كان مثله
مطبوعا على « الاعتراف » بعيوبه لا نخاله يمسك لسانه
ويحفظ سرا رأه ساعة لهوه ... فاذا حجه الأمراء عن مجالس
الخلوة فلأنه لا ينفعهم في تلك المجالس ولا يؤمن عندهم على

أسرارها وما يقع فيها من فلتات اللسان وبوادى رفع الكلفة وإرسال النفس على السجية .

لكنهم كانوا يحجبونه أيضاً عن المجالس العامة ولا يقتصرون على حجه عن المجالس الخاصة ، وكانوا يقطعون ما بينه وبينهم حتى تضيق به الدنيا ويتنمر له كل من يتمى إليه أو يتمى اليهم :

تعرفت فى أهلى وصحبى وخادمى هوانى عليهم مذ جفانى قاسم

فيعود يسأل الاذن فى المقابلة ويكتفى به عن سائر المطالب :

بل أنت معنى من جميع حوائجى

الا لقاءك فى السواد الأعظم

لا أبتغى ما كنت أسأل مرة

حسبى بوجهك ، فهو أفضل مغنم

قال هذا وقد حجه القاسم عن لقاءه وأمر الخدم برده ، وكان القاسم وأمثاله يمنعون بعض المنع وفى نفوسهم بعض الرعاية له وبعض الرضى عنه ، فأما اذا غضبوا عليه وصرحوا له بالجفاء فقد كانوا يبتذونه ويوصدون دونه كل باب ويغلون بينه وبين الحجاب يدعونه ويتصلفون عليه ، والحجاب لا يميزهم التصلف على مستأذن يأمنون العواقب فيه ويأنسون من سادتهم الرضى بايذائه ، فان الحاجب منافس لكل جلس ينزل من سيده منزلة الخليل والسير وهو قائم على الباب مقام الخادم ، وهو يود أن يدل عليه بقدرته على الرد والاذن والاقصاء والتقريب والتسييز فى الحفاوة والتعظيم ، فكان ابن الرومى فى فترات الاقصاء والاعراض يقاسى شديدا من غلظة الحجاب ويسرع كدأبه الى شرح ما يلقاه منهم على أبواب الرؤساء المعرضين عنه ، وهو شبيه بما يلقاه كل طارق مهيب الجانب من كل حاجب غاضب أو متغاضب :

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب

محا الله ما فيه من الكسر بالكسر

عبوس ، اذا حيته بتحيية
فيالك من كبراً ومن منطلق نورا
يظل كأن الله يرفع قنطرة
بما حظ من قدرى وصغر من أمرى
اذا ما رأنى عباد أعنى بلا عنى
وصم سميعا ما بأذنيه من وقصر

ولقد كان يحمد الله أحيانا أنه نجا من تعجراف الحجاب عليه بغير
أذى فى جسده :

عسم الأذنين بأذنة وتخلت
لكن نبذت مع اللفيف بسمع
بل ما أصابتى هناك شماعة
حالى ، فلم أذكر ولم أتوهم
وبمنظر للشامتين ومعلم
لكن غبغت لأننى لم أطمع !!

فلم يكن رزق الرجل أذن متصلا من الجوائز ولا من الطاف المجالس
ولم تكن حاجته الى ضرورات العيش بالحاجة المصطنعة التى تم عن
فاقة حقيقية فى معظم أيام حياته ، فسؤاله الدقيق والطعام والملبس
سؤال محتاج الى ما يطلب معتمد على ما يجمع من النوال . ولنا أن
نشك فى حاجته الى الشئ حين يطلبه ويلح فى طلبه ، ولكن ليس لنا
أن نشك فى حاجته عاجلا أو آجلا الى ذلك الشئ من طريق السؤال
كما كان يصنع عامة الشعراء فى الأزمان الماضية ، ولا سيما فى ذلك
الزمان الذى اضطرت شئونه وقل ضمانه وتلاحقت طوارئه ،
فمن مسائل ابن الرومى ما يصعب الشك فى صدقه كقوله يستعطف
وهو يكاد يأس :

ان لله غير مرعاك مرعى
وتيقن متى جنيت على عب
ان لله بالبرية لطفاً
يرتعيه وغير مائك مساء
دك ضيما وضبيعة وعناء
سبق الأهمسات والآباء
قوت فيهم ألفتهم سمحاء
لى خسون صاحباً لوسالت ال

أترى كل صاحب لى منهم يمنع الشهر بلغتى اجراء
لى فى درهمين فى كل شهر من فئام ما يطرد الحوجاء

وكثيراً ما ألم لهذه الحاجة الدائمة وتوسل الى الرؤساء أن يجربوه
فى ولاية أو جباية أو يتخذوه لعمل فى الديوان يريحه من ذل السؤال
وعذاب القلق والانتظار ، فكانوا يضمنون عليه بما سأل ويأبون أن
ينقذوه من سوء تلك الحال ، ولزم آل وهب ما لزمهم وهو يترقب أيام
دولتهم ويترجى الخير الجزيل على أيديهم ، فلما صارت اليهم الوزارة
لم يصنعوا شيئاً وزادوا أنهم قطعوه بعد صلة ومنعوه ما كان يناله
قبل الوزارة ! وكثر زوارهم وقصادهم فتأخر مقامه بينهم وربما رأوه
حيناً وهو مقدم على سواه .

أنا من عراك وباب دارك موحش من كل مؤتف على مقدم

وكان أسمح الرؤساء معه من كان يلهيه عن العمل فى الديوان
بوظيفة صغيرة يشاهاها عليه ولا يثبتها فى سجل الأرزاق المرصودة
المضمونة بعض الضمان ، ومن شأن هذه التوافل أن تحتاج أبداً الى
التذكير والتنبيه فما لا بد أن يجر اليه التذكير والتنبيه من السأم
والجفاء ، فاذا حصل ذلك - ولا بد من حصصه - خسر الوظيفة
وصاحب الوظيفة وباء الى شر مما كان .

والعمل الوحيد الذى ذكر فى ديوانه هو عمله فى الكتابة عند آل
بنان المعنى الذى كان ينادم الخليفة المعتمد ويفنيه ويسأل ابن الرومى
أن يمدح الخليفة بلسانه ، وكأنه لبث فى هذا العمل عشر سنين على
ما يجوز أن يؤخذ من قوله .

والغناء الشديد شدوا وضرباً

سحنة قد ملأت منه الأناء

ظلت عشرأ كواملا فى مغناية

أغنى وأسمع الايحاء

ولن يكون ذلك العمل الا ضئيل الأجر مغبونه كما يقطن بأجر
يتناوله كاتب مغن ، وكما يدل يتاه المشهوران في ننان :

تعالى جد دينارى بنان فحلا حيث حل الفرقدان
ولو أن النفوس بحيث حلا غدون من الحوادث فى أمان

فان قلنا أن « الدينارين » هنا للتلطيف لا للحصر فأقصى ما يرتقى
اليه الديناران أن يكونا عشرة ! وعشرة دنانير ليست بالرزق الطيب فى
عصر كعصر المعتمد بمدينة بغداد .

فمعيشة الرجل فى جميع أدوارها كانت معيشة عارف بالحياة
متذوق لها وهو مع المعرفة والتذوق ملدد محروم طويل الهم
بأمر الرزق مشتت الفكر بين القلق والخيبة والمطل والحرمان ،
وهى معيشة مزعجة مكهربة تهدد القسوى وتنهك الفكر والجسد
ولا تكون وخيمة الأثر فى نفس رجل مثله كثير المخاوف عليل
الأعصاب .

مركز تحقيقات كميونر علوم رسيدي

لماذا فشل!

فشل لأنه كان قليل الحيلة صغراً من الدهاء ، ذلك أوجز ما يقال في أسباب فشله ، فما من عمل كان يحتاج الى حيلة الا كان ابن الرومي فيه مخفقا أو كان مصدوقاً عنه حتى اللعب ، ومن ثم كراهته للعبة الشطرنج التي راجت في أيامه وكثر التفنن في طرائق لعبها بين مدوحيه حتى كان أحدهم يلعبها وظهره الى رقعتها ، وهو يقول فيه :

تقتل الشاء حيث شئت من الرقة سعة طبيا بالقتلة النكراء
غير ما ناظر بعينك في الدس ت ولا مقبل على الرسلاء
بل تراها وأنت مستدبر الظم ر بقلب مصور من ذكاء
ما رأينا سواك قرناً يولى وهو يردى فوارس الهيجاء

ولكنه هو كان يجهلها ويحاول البراعة فيها فلا تساعده الحيلة ، فينقلب هازئاً بها ويقضى عليها بأنها من تعلات الفراغ والجوع !

أرى لعبة الشطرنج أن هي حصلت
أحق أمور الناس ألا تحصلا
تعلة بوابين جاعاً وأرملا
يباب قليل خيره ، فتعللا

أو يقول :

تفرست في الشطرنج حتى عرفتها فان صح رأيي فهي بالوعة العقل
وحسب الرجل أن تقل حيلته في أواسط القرن الثالث ليكون
مقضياً عليه بالهلاك أو بالفاقة وان اتصل بذوى الأخطار والعاملين
في سياسة الدولة ، بل يقضى عليه بالهلاك والفاقة لأنه اتصل بميدان
هو أحوج الميادين الى المكر وسعة الحيلة ، فسدائح ابن الرومي
نفسه أدل شيء على ضرورة الدهاء في أيامه وشيوع هذه الخصلة
بين أبناء عصره . فانه من مدح أشتاتاً من ذوى المقامات بينهم الوزير

موسى بن يحيى - قمر - ابراهيم

والقائد والنديم والكاتب والفيلسوف فكان الدهاء صفة تتكرر في مدح كل واحد منهم وثناء مشتركا بين من يطلب منه الدهاء بحكم عمله ومن لا يطلب منه ولا يعيبه أن يفوته ، واليك أمثلة قليلة نكتفي بها عن احصاء كل ماجاء على هذا المعنى في مدائحه الكثيرة .

قال في علي بن يحيى النديم :

فل بالحجة الخصوم وبالكيد زحوف العدى ذوى التاليب

وقال في ابن ثوابة الكاتب :

وبكيد يروى القنا علقا ويختضب اختضابه

وقال في القاسم بن عبيد الله الوزير :

يرمى بدهياء من فلائقه فى وجه دهياء من فلائقها

وقال في عبيد الله بن عبد الله القائد :

يصاول القرن أو يحسائله جلدا أرييا بعيده سريه

كالليث فى بأسه وآونه مثل الشجاع الخفى منسربه

وقال فى الجنود الأتراك :

ترى شبه الآساد فيهم ميينا ولكنهم أدهى دهاء وأنكر

وقد صدقت فى هذه المدائح فطنة ابن الرومى الى صفة عصره والخلق الذى لا بد منه للمتقدمين فيه من ندماء أو كتاب أو قادة أو وزراء أو جنود ، فلم يكن لواحد من هؤلاء غنى عن الكيد والختل والدهاء ، ولم تكن للعصر كله صفة بارزة بروز هذه الصفة التى اشتدت الحاجة اليها بين القلائل والدسائس والأضطرار الدائم الى اتقاء الشر ومداراة الأقوياء والحيطة لما تأتى به طوارئ الأحداث ، وأحجى أن تشتد الحاجة اليها حيث تعمش الفتنة وتبيض وتفرخ بين رجال الدولة ومن يعاشرهم ويلحق بهم من الشعراء والندمان ومغتسى الفرص من صعود هذا وهبوط ذلك واقبال هذه الدولة وادبار تلك ، فقد كان هذا هو عمل كل يوم وشاغل كل ساعة فى البيئة التى عاش فيها ابن

الرومي خاصة ، فما كانت أيامهم تنقضي على غير خليفة يعزل أو يدبر له العزل وولى عهد يخلع أو يدبر له الخلع ووزير يكاد له أو يكاد لخصمه وصاحب مال يستصفي أو يسعى لاستصفاء مال غيره ، وهذا وأشباهه شغل يفتر من يزاوله ويميش في يئته الى الدهاء افتقاره الى أداة المعيشة الأولى وسلاح الحرب الألزم له من كل سلاح .

في ذلك العصر عاش ابن الرومي وهو أعزل لم يستعد له بعدة ولم يحسن قط أن يتداهى على أحد ولا أن يحترس من دهاء أحد . وراح يتقلب فيه باحساس طوع الحوادث ولسان طوع الاحساس ! فكان نقيض الرجل الذي يصلح لمثل زمنه . اذ كان ألزم ما يلزم ذلك الرجل أن يملك احساسه ولا يطيبه ، وأن يجعل بين احساسه ولسانه سدا منيعا من الرياء يستتر خلفه ، فأخطر ما يجبر الخطر على المرء في عصور القلق أن يرسل نفسه وأن يطلق لسانه وأن يلهو بما بين يديه عما حوله ، كما كان يفعل ابن الرومي ومن طبعوا على غراره . وما نظنه كان يكرر صفة الدهاء في مندوحه الا وهو يشعر بخلوه منه وحاجته اليه ، غير أن الشعور بالحاجة الى الدهاء لا يعطيه الدهاء ! كما أن شعور المريض بالحاجة الى القوة لا يعطيه القوة ، وغاية ما يستطيعه أن يأسى ويتكلف ما ليس في خلقه ، فلا يفيد الأسى ولا التكلف الا أن يبدي من ضعفه ما هو أولى باخفائه .

ذلك أول الفشل أو ذلك أوجز ما يقال في اجمال أسبابه . وهو مع هذه الغرة التي تعد من أكبر الجنایات في عصر الديسنة والمداورة - كانت له جناية أخرى تعد من أكبر الجنایات في جميع العصور وبين جميع الأمم وعند جميع الأفراد . كان غريب الأطوار ولا أضر على الضعيف الحيلة من غرابة الأطوار . لأنها تفردده بين الملا قنصبه وحده هدفا لكل ما في الطبائع الانسانية من لؤم وسفاهة وسوء ظن ومجانة . و « الشيء مستوحش اذا غربا » كما يقول ،

فحسب المرء أن يشتهر بهذه الغرابة وأن يسجلها عليه من يعرفه ومن لا يعرفه حتى تبطل دعواه وتسقط حقوقه . ويكون المجتمع قد أصدر عليه حكما سرمدًا كذلك الحكم الذي كان يصدره السلطان في غابر الأزمان باهدار دم الطريد الهارب من عقوبته وسخطه . فلا ينصفه أحد ولا يتحرج متحرج من العدوان عليه والتعرض لفضبه ، فانما أساس الانصاف أن يعرف للانسان حق الرضى والفضب وحق الشكوى والملام ، فاذا سلب هذا الحق واشتهر عنه أنه يألم لغير ما يوجب الألم ويفرح لغير ما يوجب الفرح ويمعجب والناس لا يعجبون ويشور والناس لا يشورون ويطلق وهم لا يعرفون فيهم يترك ويهلل وهم لا يشعرون فيهم يهلل - فهم اذن فى حل من اسخطاه واهتضام حقه ! وهو اذن طلبه السلطان الأعظم سلطان المجتمع الذى أهدر دمه وأباح أمنه وماله ، فلا يشكو الا وهو متهم ولا يشكى الا وللشاكى عليه حجة .. وكل ذنبه بين الناس أنه من معدن غير معدنهم وذو شعور بالحياة غير شعورهم وقد يكون خيرا منه وأجدر بالانصاف .

بل حسب المرء أن يشتهر بالغرابة حتى يصبح المألوف من عمله غريبا يفعله هو فيلاحظ ويتبعه الناس بالغمزات ، ويفعله غيره فلا يلاحظ ولا يتغامز أحد عليه . لأن سمعة الغرابة هى المهم فى هذا الصدد ، وليست الحوادث التى توصف بالغرابة .

وقد يعنى الغريب الأطوار من هذا « الاهدار » اذا كان مع غرابة أطواره له سطوة أو ثروة أو عصبة يعتمصم بها من عشيرة تفار عليه أو جار يسيل اليه ، فربما أساغوا منه غرابته فى هذه الحالة وعدوها حلية تزينه وظريفة ترغبهم فيه . فاما أن يكون ضعيفا لا حول له ولا حيلة وغريبا فى خلقه وشعوره فذلك هو الجرم المضاعف الذى لاشفاعة فيه ولا نجاة من عقوبته ، وقل فى عقوبة مشدد فيها كما يشاء لؤم من لا يخاف عاقبة لؤمه ، مبالغ فيها كما يسالغ فى ايداء كل معدوم النصير .

عاش ابن الرومي في ذلك العصر قليل الحيلة فهو أعزل ، غريب
الأطوار فهو مستهدف لكل من يرميه ، دقيق الحس فهو معذب بما
يصيبه . وثقلت عليه صدمات الخيبة وساء ظنه بانصاف الناس فوهن
ما فيه من بقية عزم الشباب - وعاف السعي وانطوى على اليأس
ووجدت نفسه لذلك وجداً تعرفه من صرخته :

لا عذر لي في أسفى بعدها على العطايا . عفتها ! عفتها !

فكان هذا مع ضعفه واعتلاله وحذره المفروس في تركيبه وحاجته
الى من يرهه ويعينه صارفاً له عن السعى في طلب الرزق والنزوح عن
الوطن ، جانحاً به الى القعود حيث قعد لا يرى الا أن البلاد كبلده وأن
الأخيار والأشرار سواء في قلة انصافه .

ذقت الطعوم فما التذذت كراحة من صحبة الأشرار والأخيار
وما كان الرجل مخلوقاً للجلد والمشقة في أيام الشباب بله المشيب،
ولكنه كان ربما رحل في تلك الأيام الى الأبله أو سامرا «سر من رأى»
أو بعلبك، وهي فيما نظن أبعد ما يصل اليه في رحلاته . فلا يلبث أن
ينكرها وتنكره ويعود منها وما لقي فيها الا مثل ما لقي في وطنه :

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها بل الأرض بل بغداد صاحبة البتل
ويرسل الى أصحابه في بغداد يتشوف ويقسم لا أزمع بعدها سفراً
ولا آثر على قلوبهم مطعماً :

وان يقض لي الله الرجوع فانه

على له ألا أفارقكم نذر

ولا أتغنى عنكم شخوصاً ورحلة

مدى الدهر ، الا أن يفرقنا الدهر

فما العيش الا قرب من أنت الفه

وما الموت الا نأيه عنك والهجر

و « طول مقام الحزن في الحى مخلوق لديناجتيه » كما قيل . فاذا
أحصينا أسباب الجفاء الذي كان يشكوه من مندوحيه وأسباب

فشله بعبارة أخرى فلا شك أن طول مقامه ببغداد واحد من تلك الأسباب التي رجحت عليه غيره من أنداده الشعراء ومن هم أقل في الطبقة ، لأنهم كانوا يغيبون ويحضرون فلا يضمن عليهم الأمراء بالعضاء في السنة بعد السنة أو بعد السنوات ، ولأنه كان مقيما أمام أعينهم في كل يوم فلا يلقي عندهم حفاوة الطارق بعد غياب .

وهو لم يرحل تلك الرحلات القصار التي كان يظنها غربة طويلة الا وهو في ابان القوة والمطمع في الولاية والجوائز . فلما طال عليه الأمر ووطن نفسه على اليأس قعد في بغداد لا يريها وقع بما يتفق له وهو وادع في بلده وأبى أن يجيب من يستدعيه اليه ويحضه على « الحطب لناره » .. لأنه يكلفه ركوب البحر وهو أخوف ما يكون من ركوبه .

حضضت على حطبي لناري فلا تدع
لك الخير تخونني شرور المحاطب

مراثي تكملة لقصيدة

أعزب عنك الرأي في أن تسيئني
مقيما مصونا من عناء المطالب

وما هي بعد الا دعوة فيما نظن لم يكن بالمنظور أن تتكرر ، اذ قل في الولاة من كان يعنى بشأه وشأن رزقه في حالة شبابه ومشيبه وقل فيهم من كان يرعى حقه ويخلص في مودته .

وربما اغتر هو ببعض المجاملة منهم وخيل لنفسه حقا عندهم فتشفع اليهم في اتباعهم كما تشفع لمهندس القاسم الأسير المغضوب عليه « وما ضيف بأضعف من أسير » ... أو كما تشفع لكتابه الذين « أضحوا وهم أسوأ الكتاب أحوالا » ... أو كما تشفع فيما هو أكبر وأجل وهو شكاية الحسين بن عبيد الله الى أبيه من تقديم أخيه القاسم عليه وترشيحه لعظيم المراتب دونه . الا أنها شفاعات لا نعرف ماذا أوجبها على ابن الرومي ولا نعرف ماذا كان مصيرها عند المشفوع

لديهم، فهي ان دلت على شيء قاطع فانما تدل على أن قوماً ذوى حوائج كانوا يتصدون فيها من يقبل تبليغها ويأمنون من ابن الرومى تلبية لا يأنسونها في صحابة الأمراء غيره ، وربما أغراهم به سداجة تبسه وسرعة استماته . ولا سيما في وساطة الحسن عند أبيه والتسامه منه أن يسوى بينه وبين أخيه القاسم ، لأنه

ليس يوهى أخاه شدك ايا ، ولكن يزيده في اشتداده

ولا يبعد أن تكون هذه الوساطة علة اعراض القاسم عنه ومجاافته اياه تلك المجافاة التي قيل انها انتهت بقتله . فقير ابن الرومى لا يقدم على هذه الوساطة وهو جليس القاسم المطالب في شريعة تلك الأيام بنصرته على كل من ينافسه ولو جاءت المناقسة من أخيه ، اذ يرى الحزم والحكمة أن يتبع الدولة حيث كانت وألا يعرض نفسه لعضب صاحب الخطوة من أجل أخ له مهجور ضعيف الأمل في النجاح ، فاستشفاع الناس بابن الرومى لا يدل على أكثر من هذا ولا على أكثر من أنهم ارادوه للتبليغ والتذكير عني أن يشهوا غافلاً ويسمعوا من لم يسع . وقد يدل على أنه أصيب بسبب هذه الشفاعة في رزقه وحياته كما يلوح لنا من جرائر الوساطة بين الحسن وأبيه ، فأما أن تدل هذه الشفاعات على حق مرعى له عند الأمراء وعناية منهم بأمر رزقه ووصباته في قربه وبعده فذلك احتمال بعيد تناقضه أخباره وأشعاره على السواء .

وما نخال أن أحداً من مسدوحيه كان بينه وبين ابن الرومى من المؤاخاة في الأدب مثل ما كان بينه وبين أبي سهل بن نوبخت سليل البيت الفلكي المعروف ، فقد كانت بينهما مساجلات كثيرة تلمح فيها مخاطبة الند للند والصديق للصديق في بعض الأبيات ، فابن الرومى يعرب في مدحه فيقول :

أعلم اناس بالنجوم بنو نوبخت علميا لم يأتهم بالحساب
بل بأن شاهدوا السماء سلوا ورقيا كفى المكرمات الصعاب

وأبو سهل يجيبه وهو يعتذر من قلة اضطلاع به بجوابه :

هكذا يجتنى الودود من الاخو ان اهل الأذهان والآداب
نظم شعر به ينظم شمل الم جد كالعقد فوق صدر الكعاب
قد سمعنا مديحك الحسن اله رض ولكن لم نضطلع بالجواب

ومثل هذا الخطاب لا يكون الا بين رجلين صديقين أو كالصديقين
فيما توجه العلاقة بينهما من الولاء والمعونة . فانظر مع هذا كيف كان
أبو سهل في رعايته لحقه وعنايته بأمره وصيائته لقدرة ؟ كان كما قال
فيه :

لى صديق اذا رأى لى طعاماً لم يكد أن يجود لى بشراب
فاذا ما رآهسا لى جيماً كفيانى لى لى لى الثياب
فستى ما رأى الثلاثة عندى فهى حسبى لى لى من آرابى
لا يرانى أهلا لى لى الملك رى ولا موضع العطايا الرغاب
وكأنى فى ظنه لى لى شأنى لهو ذى نهية ولا متصاب
فى طبع مسلائكى لى لى عازف صادف عن الأظراب
أو حارية ! فقذار حظى شبة عنده بلا اتعاب
انا حظى اللقواء لى لى مع ما فيه بى من الاعجاب
ليس ينفك شاهدأ لى لى بفهم وبيان وحكمة وصواب
ومتى كان فتح باب من الل توقعت منه اغلاق باب

نعم ! مع ما فيه من الاعجاب به والشهادة له بالفهم والبيان . فقد
كان قصارى حقه عند صاحبه هذا وعند أصحابه الموسرين جميعاً أن
يمجوا به أو يمجوا لفظته وغرائب أحواله ، أو يساجلوه فى الشعر
مساجلة يظهر بها قدرتهم على مجازاة شاعر قدير منقطع للشاعرية ،
أو يسامروه سرا يلهون فيه بحديثه ونوادره ثم يستأدوه الثمن غالباً
من صبره وماء وجهه . فأما ما وراء ذلك من تقع ومبرة فليس من حقه
عندهم وليس له منه كما قال الا نصيب الملائكة أو نصيب الحمير . . .
وما كان واحد من كبار سدوحيه عاجزاً عن اغائته واصلاح أمره وتدير

عمل له يناسبه لو صححوا النية ولم يساوموه مساومة التاجر الشحيح
ليأخذوا منه أكثر مما يعطونه . وليأبوا أن يهبوه مادام في وسعهم أن
يمنعوه . ففي قدرتهم كانوا أن يستحضروا النية في اصلاحه وجبر
نقائصه وتلافى عيوبه . وفي قدرتهم كانوا أن يجدوا سببا واحداً على
الأقل يوجب هذا الحق عندهم من باب الوفاء أو من باب الرحمة ،
بيد أنهم لم يجدوه ولا حاولوا ايجاده . . . ووجدوا أسباباً شتى
لحرمانه واهماله والاعتذار من توجيه الأعمال اليه واتخاذها للكتابة أو
النظر في بعض مرافق الديوان .

ونحن نقرأ قوله لأبي سهل الذي تقدم ذكره :

أترجم أنى ان توليت قرية

رأيت أزورارى عن صديقى من الفرض؟



وقوله للقاسم :

أركيكا رأيت عبدك صنفراً لا جنى فيه ؟ أم جنى شنعاء ؟

فنفهم جملة هذه العلل التي كانوا يعتلون بها عليه ، نفهم أنهم
كانوا يكرهون توليته لئلا يستقل عنهم ويعرف له مورداً غير موردتهم
أو أنهم كانوا يحسبون عليه غراراته ذنباً يحرمه الولاية كما حرمه
العطاء وكفالة الرزق من جناية لا يكدرها المن والتسويق ، وهي
- ولا مرأى - أسباب طبيعية للحرمان في الحياة نفهمها حين نبحث عن سر
حرمانه . ولكنها لا تصلح عذراً للمتفضل الذي يريد الافضال ولا تعد
ميزاناً رفيعاً للسروء ومكارم الأخلاق . فمن الطبيعى أن يأكل الذئب
الحمل وأن يعبث اللثيم بالغرير وأن ينهب المحتال مال الطفل اللثيم
والمغتال مال الاعزل الضعيف ، الا أن البون بعيد جداً بين هذه
الأسباب الطبيعية في الدنيا وبين معالى الهمم ومكارم الأخلاق ، وأن
هذا البون البعيد جداً لهو مناط الحميد واللوم والشرف والضعفة
والفضل والقصور .

وكان لفشل ابن الرومي وحرمانه سبب آخر هو فشله وحرمانه .

نعم كان فشله وحرمانه سببا لنفرة الناس منه واتهامهم اياه، فكانوا يلومونه على بلواه ويعدونها من ذنوبه وخطاياهم : وكان لومهم هذا بلاء فوق بلاء وحسرة فوق حسرة ، وشكاية أشد عليه من سائر الشكايات لأنها تحرمه حق الشكاية :

يارب ما أطول البلاء وما أكثر في أن بنيت لوامي
يلومني الناس ان حرمت وما الأزمني الله غير احسرامي

فاذا شكوا فهو مذنب ، واذا سكت فالرزية عنده أعظم من السكوت وهذا ألم ما يتلى به المنكوب وأظلمه وأدعاه الى المزيد من نكته وظلمه .. ولكنه كذلك طبيعي مألوف في الناس ، لأنهم لا يكلفون أنفسهم الرأفة بأحد اذا استطاعوا أن يحيلوا عليه جريرة خطاياهم ! فاذا حرم فما ذاك الا لأنه محروم مستحق للحرمان بما جناه على نفسه أو بما جناه عليه القضاء ، واذا كان كذلك فهم أولى بالاجفال منه والهرب من عدوى شقائه ! والا فماذا يصنعون له وهو الجاني على نفسه ؟ ثم ماذا يصنعون للقضاء ولا طاقة لهم برد القضاء ؟ فمن حرم وفشل فليحرم أبدا وليفشل أبدا ، وليكن مصابه حجة للمزيد من مصابه ودليلا على شقاء مكتوب عليه ، لا خلاص منه ولا للناس فيه حيلة !

وتضاف الى ذلك الحرمان نكبات متواليات لا يد لمخلوق فيها ولا هي مما يجنيه انسان على نفسه أو يرده انسان عن حوزته ، فتحقق عليه تهمة الشؤم وتثبت عليه مطاردة الأقدار ! فلا رأى للعاقل الا أن يفر منه ويلتمس العصمة والأمان بالبعد عنه .. وقد أطبقت على ابن الرومي النقمتان نقمة الفشل والحرمان ونقمة الفجائع في أهله وولده والتلف في زرعه والحريق في تراثه والضياع في عقاره . فالرجل لاريب مشنوم يستعاذ منه ، وطريدة للأقدار لا يجيرها مجير وهو آمن على سربه ، فمن غرر بنفسه وعالج خلاص الطريدة من القدر الذي يتعقبها فهو مبتلى لا محالة بمثل بلائها ، ثم لا يلومن الا نفسه ورأيا سخيفا

سول له التورط في المهالك وخيل اليه أنه مجير من قدرة الله وراذ
لما لا مرد لحكمه .

وحق لابناء القرن الثالث أن يخافوا المشومين وطردها القدر لأنه
كان عصر السعد والنحس والقلقل والمفاجآت ، مع الايمان بما
يصحب ذلك من الخرافات والأوهام ، ولأنه العصر الذي تمت فيه ترجمة
الكتب الهندية والفارسية وشاعت بين المسلمين أحاديث النجوم
والطوالع ما كان منها خرافيا كاذبا وما كان من قبيل العلم الصحيح ،
وزاد في شيوع تلك الأحاديث أن الدولة كانت يومئذ للفرس وأن
آداب المجالس في قصور الملوك والشرفاء كانت آداب الفارسية
والناشئين في البلاد الفارسية ، وكانت لهؤلاء ساعات للسعود وساعات
للنحوس ومقارنات بين الأفلاك يطيب معها الطعام والشراب تارة ولا
يطيبان تارة أخرى ، بل كان لكل شيء في الأرض والسماء حسابه
وأرصاده وبشائره ونذره ، فلا يسافر المسافر ولا يتحرك العامل الا
بعد استشارة للنجوم وموافقة لإرصاد الطوالع ، ولا عجب أن يدرج
الفرس على ذلك وهم أمة عبدت الكواكب زمانا وجعلت لها صفات
الخير والشر وأسندت اليها تدبير الحوادث وتحويل الدول وتقدير
المقادير .

وكانما شاءت الأقدار أن تهيم للقرن الثالث كل أسباب العناية
بالنجوم فظهر في أوائله مذهب « هالي » الذي رأيناه هنا في دورته
الأخيرة قبل نيف وثلاثين سنة ، والذي قال فيه أبو تمام في تلك
الأيام .

وخوفوا الناس من دهيماء داھية
إذا بدا الكوكب الفسري ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة
ما كان منقلباً أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة
ما دار في فلك منها وفي قطب

وليس يصعب علينا أن تمثل كيف يكون أثر ذلك المذنب المرهوب أول ظهوره في زمان كذلك الزمان وبين أناس كأولئك الأناس قد غلب عليهم الاشتغال بالتنجيم صادقه ومكذوبه وكثر بينهم جدا من يعلقون حوادث الأرض بأنباء النجوم .

ولقد تردد ذكر السعود والنحوس وأسماء الكواكب في كلام شعراء القرن الثالث والقرن الذي بعده من أثر هذه العوامل كلها فالملح اليها أبو تمام والبحترى مراراً وأفرط ابن الرومي في الإشارة اليها لأنه كان أعلم من صاحبيه بهذه المطالب . وتمادى الأمر بمن بعدهم حتى أصبح درس النجوم فريضة على كل رجل مثقف مطلع على آداب زمانه ولو كان كالمعري مكفوف البصر غير صالح للتوسع في هذا الباب . فكان رهن المحبسين يذكرها في سقط الزند واللزوميات ويصف مواقعها ويتكلم عن مقارناتها كأنه فلكي مشتغل بصناعته وليس بأديب ضير واضح العذر في جهل هذه الصناعة .

ثم اتفق أن راجت عقيدة النجوم في الأستين اللتين علق بهما ابن الرومي وكان لهما نصيب من شعره ومدحه وعتابه أكبر من نصيب سائر مددوحيه : نعتى أسرة بنى طاهر وأسرة بنى وهب ، وهما أقوى وأغنى من حكم في ذلك الزمان من الأسر التي تصرف في الدولة وتصدى أبنائها للسدح والعتاء وتولية الأنصار وعزل الخصوم . فلما مات محمد بن عبد الله بن طاهر وخسف القصر تحدث أهله وتحدث الناس أن القصر خسف لموته ، وكتب ذلك المؤرخون فيما كتبوا من تاريخه ، وذكره ابن الرومي في بعض شعره فقال :

بات الأمير وبات بدر سائنا هذا يودعنا وهذا يكسف
قمر رأى قمرأ يجود بنفسه فسكى عليه بعبرة لا تدرف

وكسفت الشمس مرة فخاف القاسم بن عبد الله (بن سليمان بن وهب) أن يكون كسوفها مؤذنا بموت عظيم في الدولة وهلع لذلك فكان ابن الرومي هو الذي هدأ روعه ونصح له باللهو والسماع للتسرية عن نفسه وكتب اليه :

لا تهولنك شمس كسفت دون أن تطلع من مغربها
هان ذاك الرزء فيها مثلما هان ما عزك من مطلبها
هي نار وافقت مظفئها لست بالآيس من ملهبها
فابك من تشفق من معطبه . فلقد أومنت من معطبها
ضل باك أن أبيضت جمره سوف تذكها يدا مثقبها
ليس للشمس اذا ما كسفت غير شمس تخلف الشمس بها
من بنات الروم لا يكذبنا لونها المشرق عن منصبها

وانها لفكاهة مضحكة من فكاهات الخطوب أن يكون ابن الرومي مهديء روع في هذا وهو أحوج انسان الى من يهدىء روعه ويذهب عنه الوجل من نذر الزمان وعلاماته !!

فالخوف من شؤم صاحبنا كان من أقوى أسباب فشله واجتنابه .

وفي بعض معاتباته اشارة صريحة الى تطير أبناء طاهر وأبناء وهب من هذا الشؤم واجتنابهم اياه بعد أن جاءتهم الدولة وزخرت لهم النعمة ، مخافة على سعودهم أن يدركها طائف من شقائه ونحسه ، فكان يقول لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر يدفع عن نفسه هذه التهمة :

نحن ميامين على أننا على أعساديك مشائيم
لما دخلنا دخلت نعمة كان لها حولك تحويم
ولم يفخمك الذي نلته بل للعطايا بك تفخيم

وكان يقول للقاسم بن عبيد الله :

طلعت بأيمن ما طائر عليكم وأسعد ما طالع
فجاءتكم دولة غضة تفيأ في ثمر يانع

وكانما كان حاسدوه ومزاحبوه يعرضون بشؤمه لبني وهب وينسبون اليه ما يكره الوهبيون من رحلة أو مشقة ، فكان يبرأ اليهم ويسرع الى تفنيد ما نسبوه اليه قبل أن يحسب عليه ، وما هو في حاجة عندهم الى اختلاق الذنوب :

ولقد خفت والبريء ملقى
ان يقول الوشاة بي ان شؤمى
وجوابى أن لم يغيبوا وشاهد
أنا من لا يشك فى اليمن منه
جئت والدولة السعيدة خلفى
كل ذنب برأسه معصوب
قادهذا الشخصوس، والافكحوب
ت فزالت مخاوف ونسكوب
أو يمين ابن فجرة ويحوب
رأسها فى مقادتى مجنوب

فحسب الانسان فى ذلك العصر أن تلوح عليه شبهة من السعد
أو النحس فيقال انه مسعود أو منحوس ، ثم تلزمه التهمة وتلصق به
طول حياته وتشتد لصوقا به اذا كان فى أحواله وأخلاقه ما يفرى
الناس بالالاح فيها والإصرار عليها . وهل كان شىء من ذلك ناقصا
عند ابن الرومى ؟ كلا ! بل عنده كل شبهة النحس لأنه كان عالما ذكياً
ولا حظوة ولا جاه ، فما الذى يحول بينه وبين حظوة أمثاله الا أن
يكون الجد العاثر والطالع المشؤم ؟ ولأنه فقد أباه وأمه وأخاه
وزوجته وأبناءه وعاش بعدهم كثيراً حزينا مستهدفا للبلاء من الأيام
والناس . وهل يفقد كل هؤلاء ويميش بمسدهم فى تلك الحال الا
المنكود المرزأ المنحوس ؟ ولأنه منى كما رأينا بالجراد فى ضيعته
والحريق فى ماله والضياع فى عقاره ، وهل يسنى بذلك - مع مصائب
الموت والفضنك - الا من شمله النحس فى شبكة لانجاة منها
لشبوك ؟

ثم هل كانت لابن الرومى مبرءاً من تلك الخلائق التى تفرى به
أهل العبث والمجون فليحسون عليه بتهمة الشؤم ويتفكهنون بسا
يؤلمه من ذلك ويؤذيه ؟ لا ! بل كان الرجل أول المتفائلين المتشائمين
وأول من يسوغ للناس التباشر والتطير ، ولزمته الحججة من ذكائه
وادبار حظه ومن مصائبه فى ذويه وصحبه ، فكان الذكاء نكبة عليه
تعهد فى النكبات ، والمصائب ضعفين ما يصيبه من شرها وما يصيبه
من سعة نحسها وولع العابثين بالسخر منها ، وأنه لمصاب عظيم ..

ولقد رأينا أن أخاه أبا جعفر كان يكتب لرجل فعزل الرجل بعد

مدة فعبث به أصدقائه آل أبي شيخ وقالوا له : « انما عزله شؤمك »
كان حديث الشؤم والسعد كان حديثها في كل نكبة وفي كل نعمة ،
ولو أنصف القوم لكانوا كلهم مشؤمين منحوسين اذ كانوا كلهم قد
فجعوا في الأصحاب والأنصار وشهدوا نكبات الأخيار والاشرار .
واذ كان ابن الرومي قد فقد أعداءه كما فقد أحبابه فلا فضل لشؤمه
على سعيه ولا رجحان لطوالع الخيرات فيه على طوالع الشرور . ولكنها
الحظوظ التي لا تعرف القسط في الموازين !! ومن الحظوظ التي
ألمنا بأسبابها أن يكون ابن الرومي منفرداً بسمعة الشؤم في ذلك
العصر دون سائر المشؤمين !!

وسواد الناس لا ينصفون مختارين ، ثم هم لا ينصفون اذا كان
الانصاف يكلفهم واجباً أو يحرمهم فكاهاة يضحكون منها ! فليس
لابن الرومي اذن الا أن يبوء وحده بجريرة ضعفه وعقائد زمنه ، فغاية
الحكم فيه أنه ولد مقضياً عليه بالفشل وعاش في زمن لا رحمة فيه
لمثله ، ووجب أن يترك لقضائه يصنع به مالا حيلة في دفعه .

ان من الباحثين من يرى أن رجال الفنون في الجماعات الانسانية
كالأطفال في الأسرة لا بد لهم من رعاية تكتنفهم وأمداد قومية تغنيهم
عن السعي لأنفسهم ، لأنهم لا يحسنون حيل السعي ولا يجيدون عملهم
اذا تفرغوا لممارسة العيش واتقان حيله ، فاذا التمس هؤلاء الباحثون
مثلا يدعون به رأيهم فما نخالهم يجدون في تاريخ الآداب مثلاً أصح
من شاعر كابن الرومي في زمان عجيب متناقض كأواسط القرن الثالث
للهجرة .

طيرته :

الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشئ من ضعف الأعصاب واختلالها الذي أشرنا اليه في الكلام على مزاج الشاعر ، الا أنها خوف خاص له بواعثه وأعراضه ، وهى فى ابن الرومى خلة خاصة قد بلغت مداها ولبست ألوانا غير ألوانها فى أكثر المتطيرين ، بحيث وجب أن نردها بالبحث فى هذه الكلمة ببعض التفصيل .

فأصل البواعث التى أصابت ابن الرومى بداء الطيرة هو اختلال الأعصاب قبل كل شيء .

فالرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم ، لأنه ينتظر من الدنيا خيرا ولا يحس النفرة بينه وبينها ، ومن ثم لا يحس الخوف والتطير منها .

وقد تصادفه الحوادث كما تصادف الناس كافة فتقع على نفسه موقعا خفيفا يسلك معه عزمه ويضبط معه شعوره ، فهو فى شئى عن الحذر والتوجس مذ كان يلقى الخطر - حين يلقاه - بعدة كاملة ونفس مطمئنة ، لا يتسلف الفرع منه قبل وقوعه ولا يفرط فى الفرع منه متى وقع واستحال عليه دفعه . وقد تؤدي به هذه الطمأنينة الى نقيض الطيرة ، فيحتجب عنه الخطر الصحيح والمتوهم على السواء ، ويستسلم للأمن الصادق والكاذب استسلام المتطير لكاذب النوف وصادقه وظاهر الوهم ومكنونه ، فهو أبدا فى حالة سلم وأمان ، اذ يكون المتطير أبدا فى حالة حرب وارتياب .

هذه طبيعة السليم من حيث التطير خاصة والخوف من الطوارئ عامة .

أما مختل الأعصاب فالصغائر مكبرة فى حسه والأشباح والأطياف كثيرة فى وهمه ، يتخيل ويتوهم ، ثم يفرع مما يتخيل ويتوهم ، ثم يزيده الفرع من الأخيلة والأوهام . فان كان الى ذلك شاعرا وكان خياله قويا فللطيرة فيه معين لا ينضب من الخلق والابتكار والطوارق .

وتتوارد عليه المنبهات - وكل طارق في الدنيا منه لأصحاب هذا المزاج - فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ويلجح المخاوف حيث لا يلحها الآخرون . كما هو الشأن في كل مستحضر للحذر متوقع للمفاجأة .

فأنت تسير في الطريق المأمون فلا تزعجك نبأة ولا يلفتك ماقد يوجب التلفت . ولكنك اذا أدلجت في الأجمة المرهوبة واستحكك الليل حولك خيل اليك أنك تسع في كل همسة فحيح أفعى وفي كل نفخة هممة أسد وفي كل خبطة تليك هجمة عدو يتحكك بسكروه ، وما اختلف على حرك بين الطريق المأمون والأجمة المرهوبة الا اختلاف التوقع واستحضار الحذر من كل مجهول غير منظور ، وذلك هو موضع الاختلاف بعينه بين المتطيرين وغير المتطيرين .

ولقد كان ابن الرومي أوعى لنفسه من أن تخفى عليه طبيعة الحذر المركبة فيه : فهو يشعر من دخيلة طبيعته بأنه حذور ، ويعلم ألا مفسر له من الحذر فيتخذ من الضرورة فضيلة - كما يقولون - ويزعم أن الحذر باب الأمان : *مراحمته كغيره من طيور رومى*

فأمن ما يكون المرء يوماً اذا لبس الحذار من الخطوب
ويحتج لذلك بحجج كثيرة من القرآن والحديث والمنطق والروايات كما مر بك في أخباره ، ثم لا يشك في أنه محق مصيب ضعفت حجته أو قويت وصدقت محاذيره أو كذبت لأن الحجة في العقائد الشعورية تلحق العقيدة ولا تسبقها ، وتؤكددها اذا وافقتها ولكنها لا تفندها اذا عارضتها .

ومن روافد الطيرة في ابن الرومي ذوق الجمال وتداعى الخواطر . فالنفس المطبوعة على ذوق الجمال تفرح وتهلل للمناظر الجميلة السوية وتفر وتنقبض من المناظر الدميعة الشائمة . ويصاحب الفرح الاقبال والاستبشار والرغبة ، ويصاحب النفوس الحزن والانكار والتشاؤم والكراهة ، وليس أقرب من المسافة بين النفوس والطيرة اذا

دق الحس وغلب عليه الحذر وأصبح الانقباض عنسبده نذيراً يثنيه
ويقتضب عليه طريق أمله .

أما تداعى الخواطر فصاحبه أبداً يستخرج من الكلمة أو الفكرة
غاية ما تؤدي إليه وتتقلب عليه : ومتى كانت طبيعته الحذر ومزاجه
مركباً على التشاؤم فليس أسهل من اتجاه خواطره السريعة إلى حيث
ألفت طبيعته واستتر مزاجه .

فلكل كلمة عنده سر ولكل سر مخافة ، ويسير عليه أن يعرف
ذلك السر ويكشف تلك المخافة لأنه سريع حركة الذهن بتنقل كومضة
البرق بين المعانى ومشابهاتها ومناقضاتها وبين الكلمات وما يجانسها
ويشاكل حروفها وأوزانها ، فلا يشق عليه أن يعثر بطلته الموافقة
لنزعة طبعه ومتوجه ذهنه عند معنى من تلك المعانى ومشاكله من تلك
المشاكلات .

وذوق الجبال وتداعى الخواطر كانا فى ابن الرومى على أدق
وأيقظ ما يكونان فى انسان . كانت له عين خاطفة تلتهم الألوان
والأشكال التهام الجائع المنهوم الذى لا يشبع . وقد عرفنا أمثلة من
ذلك فى دقة تشبيهاته واحكام صورته وغرابة التفاته الى مواقع للنظر
لا يلتفت اليها شاعر غيره . وسنعرف أضعاف ذلك عند الكلام على
عبقريته وفنه وأسلوبه فى تناول الحس وتصويره .

ثم كان مع هذه النظرة الخاطفة يشأ القبح ويجسبه ذنباً يعاف
ويستر ، وكان يباليغ فى اخفائه من نفسه اذا ابتلى به كما كان يباليغ
فى اخفاء صلعه والسخط على من يسألونه عنه ! فالقبح عنده شر أو
نذير بالشر ، ولا يرى الأحذب أو الأعور أو الخصى أو الأشقر الذى
يحكى لون وجهه لون الجلد المسلوخ أو غيرهم من المشوهين الخارجين
عن سواء الخلقة الا انقبضت نفسه وأسرع اليه ما يلازم الانقباض من
التوجس والحذر والوجوم .

وتداعى الخواطر ملحوظ فى جميع شعره لا يستدل منه بغرض

دون غرض ولا بقصيدة دون قصيدة ، فهو يسلسل المعنى ويشعبه حتى يستنفد ، وكلما عن له خاطر لحق به ما يقاربه وما يناسبه حتى تبطل المناسبة ويضطر الى الوقوف . هذا فى المعانى . أما فى الألفاظ فإنه يفوص فى تصحيف حروفها مثل هذا الفوص ويستخرج البعيد والقريب من رموزها وقراءتها ويستنبط منها ما يشاء من ملامح الين والشؤم ودفائن المدح والذم ... فجعفر عنده تساوى « جاع وفر » والخان يذكره بالخيانة .

فكم خان سفر خان فانقض فوقهم

كما انقض صقر الدجن فوق الأراب

ويلعب بتصحيف الكلمات فى السمع والخط أحياناً لينقلها الى المدح أو الهجاء فيقول فى القيان :

لا تلح من تفتنه « قينة » فإن تصحيف اسمها « فتنة »
ويتقول فيمن اسمه ابن « هرثة »

عائد دهره اذا سطع الله ^{بمعنى} مصحف اسم آية

وتصحيف هرثة هو « هزيمة »

ويجعل عمر « عيرا » بقوله :

يا عمرو لو قلبت ميم مسكنة ياء محركة لم تخطيء الفقر

أو يفعل ذلك فى الاسم الواحد معنا أشد الامعان فى استخراج التصحيف للمدح والذم كما فعل فى اسم اسحاق مادحاً وهاجياً فقال وهو يمدح :

واسلم أبا اسحاق لابس غبطة وعداك للإبعاد والاسحاق

وقال وهو يهجو وأبعد جدا فى تصحيفه :

يا أبا اسحق واقب . نظم اسحق وصحف

واترك الحاء لطفى حار . فما للحاء مصرف

يشهد الله لقد أصبح . ت عين المتخلف

فتبدل اسم « اسحاق » بعد قلبه وتصحيف قافه فاء وسينه شينا
وإثبات خائه على حالها فخرج من هذه العملية الطويلة « فاحشا » ...
وليس بينه وبين الأصل صلة كما ترى الا ما عرض له من التصحيف
والتحريف من أبعاد طريق .

وقد يذهب ذهنه الى الصورة التي تنقلب اليها الأسماء بعد اللثغ
المضاعف كما قال في أبي على بن أبي قررة :

أنت عندي وشيخك السيد لما جد لا شك صادقا الكنيتين
ليس في منطق الفصيح ولكن حين يحكيكما أخو لثغتين
مبدل لام كل لفظ يياء مبدل قاف كل لفظ بعين

فيصبح على بن أبي قررة في لغة الألتغ وهو عبي بن أبي غرة بكسر
العين ! ولولا السرعة في تداعي الخواطر وخلق المناسبات لما وصل الى
هذا التصحيف في الاسمين .

وقد يعكس اللفظ ليستخرج منه فألا لغيره كما صنع بكلمة
« سكان » حين انحدر العلاء بن صاعد يريد واسطا فتحركت ريح
الجنوب حركة عظمت معها الأمواج فانكسر السكان فرجع . فقال
ابن الرومي :

رأيت منكسر السكان ظاهرة

هول وتأويله قال لمنجساكا

لأن لفظة « سكان » اذا قلبت

حروفها « ناكس » لاشك في ذاك

وان عقلا كهذا العقل المطبوع على سرعة التنقل بين المعاني والألفاظ
وما يتفرع عليها ويتسلسل منها ليس بالغريب أن يمتدى الى مسكان
الطيرة والشؤم في كل معنى وكل كلمة ، ولا سيما اذا رانت على نفسه
الخيبة وقدر الفشل في كل خطوة واقترن ذلك بالاحساس المتسوفز
المتربص الذي لاتضبطه عزيمة ولا تحكمه صرامة في الفطرة .

وتداعى الخواطر بهذه السرعة من الحالات التي تتقارب فيها
العبقرية والجنون كما تقدم في الكلام على مزاج الشعاع ، فيشب
العبرى في لمحة عين من المعنى الى شبيهه أو نقيضه ويصل بين القطبين
البعيدين بسلسلة من المشابهات والمناقضات دقيقة الحلقات لا يتبينها
الناظر الا بعد التوضيح والجهد الجهيد في التنبه لمداخلها وتعقب
أوصالها والجري معها جرياً يتعبه ولا يسره لأول وهلة . وتسمع المجنون
يتكلم فإذا هو يخلط ويأتى بالمفارقات ولكنه في داخل ذهنه يجمع
بينها بناسبات تقرب منها ما نأى وتؤلف ما تبشر ، غير أن الجنون
عقيم منبت والعبقرية مثمرة نافذة . وهذا هو الفرق الكبير بين
الشذوذين المتناقضين أى بين أسى ما يرتقى اليه الذهن وأوضع
ما ينحدر اليه .

واليك مثلاً هذه الأبيات التي قالها ابن الرومى فى هجاء ابن
طالب الكاتب :

أزيرق مشئوم أحيمر قاشر
وهل أشبه المريخ الا وفعله
وهل يتمازى الناس فى شئوم كاتب
ويدعى أبوه طالباً وكفماكم
ألا فاهربوا من طالب وابن طالب
لأصحابه ، نحس على القوم ثاقب
لفعل نذير السوء شبه مقارب
لعينه لون السيف والسيف قاضب
به طيرة ان المنيصة طالب
فمن طالب مثليهما طار هارب

فبهذا المثل نستطيع أن نتبع مداخل الطيرة الى نفس ابن الرومى
من جانب « ذوق الجبال » ومن جانب « تداعى الخواطر » فى وقت
واحد ، ونستطيع أن نراقب ذهنه وهو يعمل فى حركته السريعة بين
الأشكال والألوان والألفاظ والمعانى كما نراقب البنية الحية وهى تعمل
من وراء المجاهر والكواشف . فانظر الى لون الوجه « الاحيمر »
القاشر والى نذير السوء والبلاء أين هما وماذا يجمع بينهما من الصلة
والمناسبة ؟ لا صلة ولا مناسبة ! ولكن ضع بينهما المريخ ولونه الأحمر

ثم ضع مع المربخ ما اقترن به في الأساطير من خصائص الحرب والفتنة
تتنظم العلاقة وتنعقد المناسبة من جميع أطرافها ، وقل مثل ذلك في
لون العين ولون السيف القاضب ! وفي « الطالب » الذي لا يقابله الا
« الهارب » وفي « الطلب » الذي يعقد الشبه بين الموت وذلك الكاتب !
وفرق هذا كله فاذا هو أبعد المتفرقات ... وأجمعه كما جمعه ابن
الرومي فاذا هو أقرب المناسبات وألزم العلاقات .

ولقد ضاعف العصر ما في نفسه من الاستعداد للطيرة من هسهه
الجوانب الكثيرة فاستعصى عليه علاجها وسهلت عليه مطاوعتها والانغراق
فيها . فقد كان أصح الأصحاء في عصره يصدق الطوالع ويؤمن بالسعد
والنحس والتفاؤل والتشاؤم ، فزعم ابن الرومي أن الطيرة موجودة في
الطبائع وأنه ما من أحد الا يتفائل بأشياء ويتشاءم بأشياء ويتخذ
العلامات من ظواهر الزمان لخفاياه ، ومن فلتات لسانه لما في دخائل
ضميره !

مركز تحقيقات كميونير علوم رسيدي

وكثر التصحيف في زمنه ، بل كثر في بيت من بيوت الرؤساء التي
اتصل بها وتردد عليها في مجالس سرها ولهوها ، وهو بيت بني
ظاهر ولاة الحكم في خراسان والشرطة ببغداد . ومن رءوسه عبد الله بن
ظاهر الذي قال ملفزا في اسم ظريف :

اسم من أهواه اسم حسن فاذا صحفته فهو حسن
فاذا أسقطت منه قاءه كان نعتا لهواه المختزن

الخ ... الخ .

ومن رءوسه عبيد الله الذي كان يعرض الشعر على ابن الرومي
ويقترح عليه تصحيفه كما ترى في ديوانه

فتمكنت عادة التصحيف في ذهنه وجاءت الطيرة فوجدت منها
أداة ضالحة لخلق دلائل الشؤم واستنباط الاشارات الخفية من ظاهر
المعاني والألفاظ .

على أفا - مع توافر هذه البواعث في مزاجه وعصره - نلاحظ أن الروايات التي ذكرت عن طيرته لا ترجع واحدة منها الى ما قبل الخمسين من عمره ، فرواية ابن المسيب التي يقول فيها أن ابن الرومي فزع من رؤية الحول والعمور في المهرجان ترجع الى مهرجان سنة ثمان وسبعين ، أي حين كان ابن الرومي في السابعة والخسين . والنوادر التي حكيت عن الأخفش لا يظن أنها حدثت قبل نيف وسبعين ومائتين ، لأن الزبيدي يخبرنا أن الأخفش كان له تلاميذ يلقى عليهم هجاء ابن الرومي فيه ، ويغلب ألا يكون للعالم حلقة يجلس فيها للتدريس قبل الثلاثين . والأخفش مات سنة ست عشرة وثلاثمائة عن نحو ثمانين سنة ، فكان ابن الرومي في الخمسين حين جاوز الأخفش الثلاثين .

والرواية التي نقلت عن إبراهيم كاتب مسروق البلخي وحضرها برذعة الموسوس صاحب المعتضد ترجع الى أيام المعتضد الذي تولى الخلافة سنة تسع وسبعين ومائتين أي حين بلغ ابن الرومي الثامنة والخمسين فيرجح اذن أن الطيرة الشديدة في ابن الرومي كانت عارضا من عوارض الشيخوخة ، وأنه أفرط فيها بعد ما ابتلى بالآلام والأحزان وساورته المخاوف من كل جانب وقل حوله المؤاسى والرفيق ، وللشيوخ كافة ميل الى تصديق الأساطير واستطلاع الغيوب وما يدخل في باب العيافة والزجر على العموم ، فابن الرومي في شيخوخته أحجى أن يصاب بهذه العاقبة التي ادخرها له المرض والمزاج والعصر وحوادث الأيام .

الا أننا يجب أن نحسب هنا حسابا للمبالغة التي تدخل على كل شهرة وتغرى الناس باختراع الأقاويل وإضافة النوادر الشائعة عن كل صفة غريبة الى الشخص الذي يشتهر بتلك الصفة ويتفرد فيها بالظهور فقد يكون الموضوع من أخبار هذه الطيرة أكثر من الصحيح ، وقد يكون الصحيح مشوبا بالمبالغة والاطناب .

عقيدته

تقدم في الكلام على الحالة الدينية في القرن الثالث للهجرة أنه كان عصر أكثر فيه النحل والمذاهب وقل فيه من لا يرى في العقائد رأيا يفسر به اسلامه ، وبخاصة بين جماعة الدارسين وقراء العلوم الحديثة . فابن الرومي واحد من هؤلاء القراء لا نتظر أن تمر به هذه المباحث التي كان يدرسها ويحضر مجالسها ويسمع من أهلها بغير أثر محسوس في تفسير العقيدة . فكان مسلما صادق الاسلام ولكنه كان شيعيا معتزلا قدريا يقول بالطبعيتين ، وهي أسلم النحل التي كانت شائعة في عهده من حيث الايمان بالدين .

وقد قال المعري في رسالة الغفران أن البغداديين « يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيبة » ثم عقب على ذلك فقال « ما أراه الا على مذهب غيره من الشعراء » .

ولا ندري لماذا شك المعري في تشييعه لأنه « على مذهب غيره من الشعراء » . . فان الشعراء اذا تشيعوا كانوا شيعة حقا كغيرهم من الناس وربما أفرطوا فزادوا في ذلك على غيرهم من عامة المتشيعين ، وانما نعتقد أن المعري لم يطلع على شعره كله فخفيت عنه حقيقة مذهبه ، ولولا ذلك لما كان بهذه الحقيقة من خفاء

على أن القصيدة الجيبة وحدها كافية في اظهار التشيع الذي لاشك فيه ، لأن الشاعر نظمها بغير دواع يدعوها الى نظمها من طمع أو مداراة ، بل نظمها وهو يستهدف للخطر الشديد من ناحية بني طاهر وناحية الخلفاء ، فقد رثى بها « يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن علي » النائر في وجه الخلافة ووجه أبناء طاهر ولاة خراسان ، وقال فيها يخاطب بني العباس ويذكر « ولاة السوء » من أبناء ماهر :

أجنسوا بني العباس من شنائكم
وأوكوا على ما في العياب وأخرجوا (١)

(١) وكى القربة وربطها وأخرجها سحبا والمقصود : اخفسوا يا بني العباس عما لي سدوركم من بغض العلويين .

وخلوا ولاة السوء منكم وغيهم
فأحر بهم أن يفرقوا حيث لججوا
نظار لكم أن يرجع الحق راجع
الى أهله يوما ، فتشجوا كما شجوا
على حين لا عذرى لمعتذريكم
ولا لكم من حجة الله مخرج
فلا تلقوا الآن الضغائن بينكم
وبينهم ، ان اللواقح تتسحج
غررتم ، لئن صدقتم أن حالة
تدوم لكم ، والدهر لونا أن أخرج
لعمل لهم في منطوى الغيب نائراً
سيسمو لكم ، والصبح في الليل مولج

فماذا يقول الشيعى لبني العباس أقسى وأصرح في التريص بدولتهم
واتنظار دولة العلويين من هذا الكلام ؟ فقد أنذر بني العباس بزوال
الملك وكاد يتمنى - أو تمنى - لبني علي يوماً يهزمون فيه أعداءهم
ويرجعون فيه حقهم ويطلبون تراثهم وينكلون بمن نكل بهم : وهوام
ظاهر مع العلويين لا مداجاة فيه كهوى كل شيعى في هذا المقام . على
أنه كان أظهر من هذا في النونية التي تمنى فيها هلاك أعدائهم ولا من نفسه
على التقصير في بذل دمه لنصرتهم :

ان يوال الدهر أعداء لكم
خلعوا فيه عذار المعتدى
فاصبروا يهلكهم الله لكم
فلهم فيه كمين قد كمن
وغدوا بين اعتراض وأرن (١)
مثل ما أهلك أذواء اليمين

قرب النصر فلا تستبظثوا
فعل من أضحى الى الدنيا ركن
لا دمي يسفك في نصرتكم
غسر أنى باذل تقسى وان
قرب النصر يقينا غير ظن
ومن التقصير صونى مهجتي
لا ولا عرضى فيكم يستهن
حقن الله دمي فيما حقن

ليت انى غرض من دونكم ذلك ، أو درع يقيكم ومجن
أتلقى بجيبي من رمى وبنحري وبصدري من طمن
ان مبتاع الرضى من ربه فيكم بالنفس لا يخشى الغبن

وليس يجوز الشك فى تشيع من يقول هذا القول ويشعر هذا
الشعور ، فانه يعرض نفسه للموت فى غير طائل جبا لبني على وغضا
لهم واشهارا لعاطفة لا تفيده ولا تفيدهم ، وقد كان لا يذكر يحيى بن
عمر الا بلبق الشهيد كما ذكره فى القصيدة الجيمة وفى خاطرة أخرى
مفردة نظمها فى هذين البيتين :

كسته القناحلة من دم فأضحت لدى الله من أرجوان
جزته معانقة الصدراء بن معانقة القاصرات الحسان

وبعض هذا يكفى فى الدلالة على تشييعه للظالمين واتخاذ
التشيع مذهباً فى الخلافة كذهب الشعراء ، أو غير الشعراء . . .
ولاسيما التشيع المعتدل الذى يقول أهله بجواز أمامة المفضول مع
وجود الأفضل ويستكروا لعن الصحابة الذين عارضوا علياً فى
الخلافة ، ومعظم هؤلاء من الزيدية الذين خرجوا فى جند يحيى بن
عمر لقتال بنى العباس . فهم لا يقولون فى نصرة آل على أشد مما قال
ابن الرومى ولا يتنون لهم أكثر مما تنى .

ويلوح لنا أن ابن الرومى ورث التشيع وراثته من أمه وأبيه ، لأن أمه
كانت فارسية الأصل فهى أقرب الى مذهب قومها الفرس فى نصرة
العلويين ، ولأن أباه سماه علياً وهو من أسماء الشيعة المحبوبة التى
يتجنبها المتشددون من أنصار الخلفاء ، ولا حرج على أبى الشاعر أن
يتشيع وهو فى خدمة بيت من بيوت العباسيين ، لأن مواليه كانوا
أناساً بعيدين من الخلافة وولاية العهد وهما علة البغضاء الشديدة بين
العباسيين والعلويين وقد اتفق لبعض الخلفاء وولاية العهد أنفسهم أنهم
كانوا يكرمون علياً وأبناءه كما كان مشهوراً عن « المعتضد » الخليفة
الذى أكثر ابن الرومى من مدحه ، وكما كان مشهوراً عن « المتصر »

ولى المهدي الذي قيل أنه قتل أباه « المتوكل » جريمة ملاحاة وقعت بينهما في الذب عن حرمة علي وآله .

ومع هذا لم يخطيء المعري حين ظن أن للشعراء تشيعاً غير تشيع الدين والمعصية ، إذ كان الشعراء في كل زمن يؤخذون بالعاطفة وتستجيشهم البواعث الحية التي تجيش لها القلوب من حولهم ، وكانت العاطفة أبداً مع بني علي حيث كانت المصلحة أبداً مع بني العباس . وقد برز هذا الفارق في مقتل يحيى بن عمر خاصة لأنه كان محبوباً معطوفاً عليه لشجاعته ونخبوته وكرم نفسه وشبابه وجماله ، وكان معذوراً في خروجه على العباسيين لأنهم حرموه رزقه حتى عز عليه القوت وجاع وأترب وتبين ذلك لأنصاره فكانوا يعرضون عليه الطعام فيأباه ، ويقول « إن عشنا أكلنا » . . وفي ذلك يقول ابن الرومي من القصيدة الجيمية :

أفي الحق أن يمتوا خياصاً ، وأتم
يكاد أخسوكم بطنه يبعج
وتمشون مختالين في حجراتكم
ثقال الخطى أكفالكم تخرج
وليدهم بادي الضوى ، ووليدكم
من الريف ريان العظام خدج

وقد بلغ من حبه في قلوب الناس أنه لما قتل التمس قتلته أحداً بعالج رأسه كما تعالج رءوس القتلى لتحفظ وتنصب فأعيامهم أن يجدوه وطال بحثهم عنه حتى عثروا برجل من أراذل السوق رضي أن يصنع بالرأس ما لم يرضه الآخرون . ثم أرادوا نصبه في بغداد ، فهاج أهلها وماجوا وخفيت الفتنة فأنزلوه ولما يكد يرفع ، ولم يعرف في تاريخ الطالبين أحد حزن الناس لموته واضطربوا كحزنهم واضطرابهم لقتل يحيى بن عمر ففي غضب ابن الرومي شيء كثير من غضب الشاعرية أو من غضب السليقة الحساسة التي لا يسمعها أن تهدأ وتفتر القلوب

حولها جائشة والصدور مكظوفة والطباع نافرة ولا نسى أنه رثى يحيى وهو دون الثلاثين في سن للعاطفة عليها سلطان عظيم وللحزم عليها سلطان ضعيف . ولكن أترأه - لولا العقيدة - كان يكرر هذا الغضب ويخرج هذا الخروج عن الحذر؟ أكان يجازف بحياته ويقول في النونية أشد مما قال في الجيية التي هيج لها هذا الهياج وساوره فيها الحزن كما ساور ألوف المحزونين ؟



وبعد فيجب أن نذكر في هذا السياق أن ابن الرومي رثى محمد ابن عبد الله بن طاهر الذي تولى حرب يحيى وجلس لقبول التهنئة بقتله . ففي هذه الملاحظة ما يجوز أن يلقى الشبهة على جده في التشيع ولدده في الخصومة للمذهب . فاذا أردنا أن نذكر ذلك وجب أن نذكر معه أموراً كثيرة تصحح تلك الملاحظة وترد تلك الشبهة . وهي : أن ابن الرومي لم يكن قط لدوداً في خصومة ولا صارماً في عصيئة ، وأن محمد بن عبد الله بن طاهر مات بعد مقتل يحيى بثلاث سنوات سكنت فيها سورة الحزن وفترت حدة الغضب ، وأن أبناء طاهر كانوا حياة لابن الرومي يمدحهم ويرثيهم ويختلف إلى قصورهم ويدخل فيما بينهم من منافسة ومصالحة بين أقطابهم . فأولى أن نذكر هنا أنه نسى ذلك كله وهجاهم وثار عليهم في سورة الحزن فرماهم بما نسيه الآن « الخيانة العظيمة » واتهمهم بالكيد لبني علي وبني العباس على السواء وأنهم يأترون بالدولة العربية الإسلامية ليقبوا على انقاضها دولة الفرس القديمة ! فقال لهم في القصيدة الجيية أنكم لو أمكنتمكم في الفريقين فرصة :

اذن لاستقدمتم منهما وتر فارس
وان ولياكم ، فالوشائج أوشج
أبي أن تجبوهم يد الدهر ذكركم
ليالى لا ينفك منكم متوج
واني علم ، الاسلام منكم لخائف
بوائق شتى بابها الآن مرتج

وتلك سورة متشيع ناغم لا يبالى ما يقول وقد ملكه الحزن ونسى
العواقب وراح يخطب في تهم وحزازات كان أهونها يطير بالرأس في تلك
الأيام .

ويصح أن نذكر بعد ما تقدم أن الطاهرين كانوا في بواطنهم
متشيعين يضطرون اضطرارا الى حرب بنى على وقبول التهنئة بموتهم
كما كان الطالبيون أنفسهم يضطرون الى شهود محافل التهنئة وهم
مطويون على الحزن الأليم والثأر المقيم . ويقول ابن الأثير أن سليمان
ابن عبد الله بن ظاهر انهزم اختيارا في حرب الحسن بن زيد العلوي
الذي ثار بعد مقتل يحيى بن عمر « لأن الطاهرية كلها كانت تشيع » .
فلما أقبل الحسن بن زيد الى طبرستان تأثم سليمان من قتاله لشدة
في التشيع وقال :

نبئت خيل ابن زيد أقبلت حيناً تريدنا لتحسينا الأمرنا
ياقوم ان كانت الأنباء صادقة فالويل لى ولجمع الطاهرينا
أما أنا فاذا اصطفت كسائبنا أكون من بينهم رأس المولينا
فالعذر عند رسول الله مبسط إذا احتسبت دماء الفاطميين

وتشيع الطاهرين معقول مرجح لأنهم كانوا فرسا يوافق هواهم
هذا المذهب ، ويصلح عندهم ذريعة لقب الدولة وتجديد ملك فارس
وقيام الدولة الطاهرية . فثناء الشاعر رجلا من الشيعة - على هذا
الاحتمال - أمر لا غبار عليه من هذه الوجهة ولا شبهة فيه على صدق
الميل والجد في العقيدة .

وأن أحق عقيدة أن يجد المرء فيها لعقيدة تجربته إذا خاف ،
وتبسط له العذر والعزاء إذا سخط من صروف الحوادث ، وتهد له
الأمم في مقبل خير من الحاضر وأدنى منه الى كشف الظلمات ورد
الحقوق ، وكل أولئك كان ابن الرومي واجده على أوفاه في التشيع
للعلمين أصحاب الامامة المنتظرة في عالم الغيب على العباسيين
أصحاب الحاضر المقنوت المثمنى زواله ، فلهذا كان متشيعا في الهوى
متشيعا في الرجاء متشيعا في الرأي الذي وافق الهوى والرجاء ، وكان

«على مذهب غيره من الشعراء» وعلى مذهب غيره من سائر المتشيعين

أما الاعتزال فابن الرومي لا يكتسه ولا يبارى فيه ، بل يظهره اظهار معتز به حريص عليه ، فمن قوله في ابن حريث .

معتزلى مسر كفر	يبدى ظهوراً لها بطون
أرفض الاعتزال رأيا	كلا ! لأنى به ضنين
لو صح عندى له اعتقاد	ما دنت ربي بسا يدين

يقول : أن ابن حريث هذا يطن الكفر ويظهر الاعتزال وهو الايسان الصحيح فى رأى المعتزلة ، ثم يقول : أترانى اذن أرفض الاعتزال لأن ابن حريث يدعيه ؟ فيجيب نفسه : كلا ! لأنى أضن به ، وأعلم أن عقيدة ابن حريث الباطنة غير الاعتزال ، ولولا علمى بذلك ما دنت ربي بما يدين .

وكان مذهبه فى الاعتزال مذهب القدرية الذين يقولون بالاختيار وينزهون الله عن عقاب المجرى على ما يفعل . وذلك واضح من قوله يخاطب العباس بن القاسم ويناشد صلة المذهب :

ان لا يكن بيننا قربي فأصرة	للدين يقطع فيها الوالد الولدا
مقالة «العدل والتوحيد» تجمعا	دون المضاهين من ثنى ومن جحدا
وبين مستطرفى غنى مرافقة	ترعى ، فكيف اللذان استطرفارشدا
كن عند أخلاقك الزهر التى جعلت	عليك موقوفة مقصورة أبدا
ما عذر « معتزلى » موسر منعت	كفاه معتزليا مقترأ صنفدا
أيزعم القدر المحتوم ثبطه؟	ان قال ذلك فقد حل الذى عقدا
أم ليس متأهلا جدواه صاحبه؟	أنى: وما جار عن قصد ولا عندا
أم ليس يمكنه ما يرتضيه له ؟	يكفى أخا من أخ ميسور ما وجددا
لا عذر فيما يرينى الرأى أعلمه	للمرء مثلك ألا يأتى السددا

فواضح من كلامه هذا أنه « معتزلى » وأنه من أهل « العدل والتوحيد » وهو الاسم الذى تسمى به القدرية لأنهم ينسبون العدل

الى الله فلا يقولون بعقوبة العبد على ذنب قضى له وسبق اليه ، ولأنهم يوحّدون الله فيقولون أن القرآن من خلقه وليس قديما مضاهيا له في صفتي الوجود والقدم . وقد اختاروا لأنفسهم هذا الاسم ليردوا به على الذين سموهم « القدرية » ورووا فيهم الحديث « القدرية مجوس هذه الأمة » فهم يقولون : مانحن بالقدرية لأن الذين يعتقدون القدر أولى بأن ينسبوا اليه . انما نحن من أهل العدل والتوحيد لأننا ننزه الله عن الظلم وعن الشرك .

وواضح كذلك من كلامه أنه يعتقد حرية الانسان فيما يأتي من خير وشر ويحتج على زميله بهذه الحجة فيقول له لم لا تشيبي ؟ ان قلت أن القدر يمنعك فقد حلت ما اعتقدت من اختيار الانسان في أفعاله .

وان قلت أنك لا تريد فقد ظلمت الصداقة وأخلت بالمرءة .

وله عدا هذا آيات صريحة في اعتقاد « الاختيار » وخلق الانسان لأفعاله كقوله :

لولا صروف الاختيار لأعنقوا لهوى ، كما اتسقت جمال قطار
وقوله :

أنى تكون كذا وأنت مخير متصرف فى النقض والامرار
وقوله :

الخير مصنوع بصانعه فمتى صنعت الخير أعقبك
والشر مفعول بفاعله فمتى فعلت الشر أعطبك

الا أنه كان يقول بالقدر فى تقسيم الأرزاق وأن

الرزق آت بلا مطالبة سيان مدفوعه ومجتذبه

ويقول :

أما رأيت الفجاج وأسعة والله حيا والرزق مضمونا

ولا تناقض عند القدرية في هذا لأنهم يقولون بالاختيار فيما يعاقب عليه الانسان ويثاب لا فيما يناله من الرزق وحفظ الحياة . ومن الغراء لابن الرومي أن يكون الرزق مضمونا مقدرًا لأنه أمان له من مخاوف الغد المجهول وراحة من القاء التبعة على نفسه فيما أصابه من الخذلان والتخلف .

أما القول بالطبيعتين فأوضح ما يكون في قوله :

فينا وفيك طبيعة أرضية	تهوى بنا أبداً لشر قرار
هبطت بآدم قبلنا وبزوجه	من جنة الفردوس أفضل دار
فتعوضا الدنيا الدنية كاسها	من تلکم الجنات والانهار
بئست لعمر الله تلك طبيعة	حرمت أبانا قرب أكرم جار
واستأمرت ضعفى بنيه بعده	فهو لها أسرى بغير اسار
لكنها مأسورة مقسورة	مقهورة السلطان فى الأحرار
فجسومهم من أجلها تهوى بهم	ونفوسهم تسمو سو النار
لولا منازعة الجنوم نفوسهم	نقدوا بسورتها من الأقطار ^(١)
أو قصروا فتناولوا بأكفهم	قمر السماء وكل نجم سار

وكان الفارسية هنا تسربت الى أقوال المعتزلة كما تسربت الى كثير من أفكار الثقافة العربية ، فان القول بالطبيعتين من أقدم ما عرف من ديانة الفرس قبل أديان بنى اسرائيل وقبل النصرانية والاسلام فلما جاء التوحيد الاسلامى أبطل التثنية ولم ييطل النزاع بين الخير والشر والنور والظلام فجاز للمسلم أن يؤمن بالطبيعتين على أن يؤمن بالوحدانية ولا يشرك الشر فى تدير الوجود .

والى هنا تكلمنا عن مذهبه ولم تتكلم عن « فطرته الدينية » أو عن قوة الايمان فى نفسه .

والفرق بين الأمرين لا يحتاج الى شرح طويل فان الناس قد يختلفون فى المذهب أبعد اختلاف ويتفقون فى « الفطرة الدينية » أقرب اتفاق ، فربما رأيت ألف رجل يدينون بكل مذهب فى فجاج

(١) اقطار السموات والارض .

الأرض وهم على الرغم من ذلك أصحاب «فطرة دينية واحدة» مطبوعون على حماسة الدين أو مطبوعون على حب التقديس والعبادة ، يتفقون في هذه الفطرة ، ويخرج كل منهم الى معبده فاذا واحد منهم ذاهب الى المسجد والثاني الى الكنيسة والثالث الى البيعة والرابع الى بيت الأصنام ، أو يتفقون على هذه الفطرة ، ويخرج كل منهم الى قتال الآخرين بتلك الغيرة القوية التي يقاتله بها أولئك الآخرون . فالفطرة الدينية توجد في انصار كل مذهب وملة ، أما المذاهب والملل فلا نهاية لها في التعدد والافتراق .

وابن الرومي كان مفطوراً على التدين لأنه كان مفطوراً على التهيّب والاعتماد على نصير ، وهما منفذان خفيان من منافذ الايمان والتصديق بالعبادة الكبرى في هذا الوجود . ومن ثم كان مؤمناً بالله خوفاً من الشك مقبلاً على التسليم بسيطاً في تسليمه بساطة من يهرب من القلق ويؤثر السكينة الى شيء من الأشياء ، وبلغ من بساطته أنه كان ينكر على الحكماء شكهم في حفظ أجساد الأتقياء بعد الموت وحسابه من فعل الدواء والحنوط . ففسال لابن أبي ناظرة حين تذوق بعض الأجساد ليعلم ما فيها من عوامل البقاء .

يا ذائق الموتى ليعلم هل بقوا	بعد التقادم منهم بدواء
بينت عن رعة وصدق أمانة	لولا اتهامك خالق الأشياء
أحسبت أن الله ليس بقادر	أن يجعل الأموات كالأحياء
وظننت ما شاهدت من آياته	بلطفة من حيلة الحكماء

ومات وهو يقول في ساعته الأخيرة :

ألا أن لقبياء اللب هـ هو دونه الهول

وما كانت الطيرة عنده الا شعبة من ذلك « التهيّب » الديني الغريزي فيه . فهو يتفلسف ويرى الآراء في الدين ولكن في حدود من الشعور لافي حدود من التفكير ، ولهذا كان الفنان ولم يكن الفيلسوف .

وليس من « الاجتراء » أنه قال بالاختيار ، ورأى له في الدين رأياً غير ما اصطلاح عليه السواد . فانه كان يحيل الذنب على الانسان وينفى الظلم عن القدر في العقاب والثواب ويتصور الله على أحسن ما يتصور المتفلسف مثله الهه ، فكانما جاءه هذا الرأي من محاسبة عالم الغيب لا من الاجتراء عليه ، وانما دفع به الى رأى المعتزلة مخاوف الشكوك التي كانت تخامره فلا يستريح حتى يسكن فيها الى قرار وينتهي من التفكير فيها الى بر الأمان ، ولذلك كان يأوى الى الأصدقاء يكشفهم بما في صدره ويستعين بهم على تفريج غمته

ويدمج أسباب المودة بيننا
واخلاصنا التوحيد لله وحده
بمعرفة لا يقرع الشك بابها
واعمالنا التفكير في كل شئ
يبعث كلاً في رضا الله ما حضا
مودتنا الأبرار من آل هاشم
وتذيينا عن دينه في المقام
ولا طعن ذي طعن عليها بهاجم
بها حجة تسمى دهاة التراجم
لحجته صدراً كثير الهامم
بيد أن « الايمان » شئ وأداء الفرائض الدينية شئ آخر ،
فقصارى الايمان عنده أنه يؤمنه بقرب آل البيت وتنزيهه والاطمئنان
الى عدله ورحمته ، ثم يدع له سبيله يلعب ويسرح كلما لذه
اللعب والمرح ، ولا أهلاً بالصيام اذا قطع عليه ما اشتهى من لذة
وأرب :

فلا أهلاً بمنع كل خير
بل لا حرج عليه اذا قضى ليلة في السرور أن يشبهها بليلة المعراج
رفعتنا السعود فيها الى القو
ز فكانت كليلة المعراج
ذلك أنه كان في تقواه طوع الاحساس الحاضر كما كان في كل
حالة من حالاته . يلعب فلا يبالى أن يتماجن حيث لا يليق مجنون ،
ويستحضر المفقوى والخشوع فلا يباريه أحد من المتعبدين ، ويخيل
اليك أنك تستمع الى متعبد عاش عمره في الصوامع حين تستمع اليه
يقول :

تنجاني جنسهم عن وطء المضاجع

كلهم بين خائف
تركوا لذة السكرى
ورعوا أنجم الدجى
لو تراهم اذا هم
واذا هم تأوهوا
واذا باشروا الثرى
واستهت عيونهم
ودعوا : « يا مليكنا
أعف عنا ذنوبنا
أعف عنا ذنوبنا
أنت ان لم يكن لنسأ
فأجيبوا اجابة
« ليس ما تصنعونه
« أبذلوا لى نفوسكم
مستجير وطامع
للعيون الهواجع
طالعا بعد طالع
خطسروا بالأصابع
عند مر القوارع
بالخدود الضوارع
فأفضت المدامع
يا جميل الصنائع
للوجوء الخواشع
للعيون الدوامع
شافع ، خير شافع
لم تقع فى المسامع
أوليائى بضائع
انها فى ودائع

وله من طراز هذا الشعر الخاشع كثير لا تسعه من ابن الفارض
ولا محيى الدين .

هجاؤه

أخرج القرن الثالث للهجرة شاعرين هجائين هما أشهر الهجائين في أدب العصور الإسلامية عامة ، أحدهما ابن الرومي والآخر دعبل الخزاعي هاجى الخلفاء والأمراء وهاجى الناس جميعاً والقائل :

انى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

وقد جمع المعرى بينهما فى بيت واحد وضرب بهما المثل لهجاء الدهر لبنيه فقال :

لو أنصف الدهر هجاء أهله كأنه الرومى أو دعبل

وليس للمؤرخ الحديث أن يضيف اسماً جديداً الى هذين الاسمين ، فان العصور التالية للقرن الثالث لم تخرج من يضارعهما فى قوة الهجاء والنفاذ فى هذه الصناعة ، وكلاهما مع هذا نوع فذ فى الهجاء يظهر متى قرن بالآخر فدعبل كما قلنا فى غير هذا الكتاب :

« كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع النائية النافرة التى تخرج على « المجتمع » وتثور به ولا تزال فى حرب معه لا مسالمة فيها ولا مهادنة الى أن يوارىها الموت فى ثراه ، وكان غاضباً أبداً على الناس ينكر عرفهم ويشذ على اجماعهم ويهجو أفرادهم بأسمائهم ، وهو انما يهجو الناس جميعاً فى أشخاص أولئك الأفراد ... وكان يهيم على رأسه فى البلاد سنين عدة تنقطع فيها أخباره وتخفى آثاره ثم يظهر حيث كان فجأة وقد أثرى وغنم ليبدد ما جمعه فى اللهو والقصف ، ثم ينقلب الى شأنه من الابق والتطواف فى أرجاء الأرض ، وربما لقى الشراة وقطاع الطريق فى بعض رحلاته فيجالسهم ويؤاكلهم ويأمر غلاميه أن يغنيا لهم ويعرفهم ويعرفونه فلا يسونه بأذى ولا يذكرهم بسوء ، لأنهم أبناء نحلة واحدة يؤلف شلهم النفور من الناس ويوفق بينهم الشذوذ عما تواضعوا عليه من الآداب والذساتير. فهو قاطع طريق بنطرتة التى ولد عليها وان لم يحمل السيف ولم يخرج للفتك والغيلة ، بل لقد قيل انه قطع الطريق فى بعض أيامه فعلا « وانه

كان يكمن للناس بالليل فرصد يوما صيرفيا طمعا بما معه نفتك به ولم يجد في كفه الا ثلاث رمانات في خرقة فخرج هاربا من الكوفة لاشتداد الطلب عليه » وما كان هجوه لو بحثت في أسبابه الا ضربا من قطع الطريق على الناس اشتهاه في أكثر الأحيان للذة الصيد والقنص ونزوة المطاردة والتخويف ، لا طمعا في المال أو طلبا للتراث ، فما اتفق الناس على امام الا هجاء وألح في هجائه وان أحسن اليه وأجزل له العطاء ، ولا ترك أميرا ولا وزيراً ولا واليا الا ناله بلسانه عرضا أو قصدا ولو كان من أبناء قبيلته ومن خاصة المفضلين عليه .

« ... أما ابن الرومي فلم يكن مطبوعا على النفرة من الناس ولم يكن قاطع طريق على « المجتمع » في عالم الأدب ، ولكنه كان « فناقا » بارعا أوتى ملكة التصوير ولطف التخيل والتوليد وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال ، فاذا قصد شخصا أو شيئا بهجاء صوب اليه « مصورته » الواعية فاذا ذلك الشخص أو ذلك الشيء صورة مهياة في الشعر تهجو نفسها بنفسها وتعرض للنظر موطن النقص من صفحاتها كما تطبع الأشكال في المرايا المعقوفة والمحدبة ، فكل هجوه تصوير مستحضر لأشكاله أو لعب بالمعاني على حساب من يستثيره .

هذا هو الفرق بين مذهبي هذين الشاعرين اللذين ظهرا في قرن واحد وأخذا بطرفي الهجاء في الآداب العصرية .

ولك أن تقول من جهة أخرى أن الفرق بينهما كان فرقا بين المذهب البدوي والمذهب الحضري في الهجاء . فقد كان دعبل بدويا نافرا بفطرته وكان ابن الرومي حضريا أنيسا بفطرته ، فاذا تبرم ابن الرومي بالناس فانما يتبرم بهم تبرم من يألفهم ويأنس اليهم ويعاني ما يعاني من عشرتهم ثم يسخط عليهم لأنه مقيد بهم لا يستطيع الفكك منهم . فسخطه أساسه المودة والألفة وليس أساسه القطيعة والنفرة ، كما كان السخط في نفس صاحبه دعبل الخارج على الجماعة القاطع الطريق .

ولهذا الفرق أثره في موضوع المثالب التي يلقيها كل منهما على

مهجويه فدعبل يسلب المهجو جميع النقصائل التي تعتر بها النفس الصارمة البدوية : يسلبه النخوة والكرم والبأس وطيب النهيضة . ويجعله رجلا يسمع البدوي صفاته فيقول أنه حقير مردول .

وابن الرومي يسلب مهجوه الفطنة والكياسة والعلم ويلصق به كل عيوب الحضارة التي يجسمها التبذل والتهالك على اللذات ، فاذا حذف من هجوه كل ما أوجبه الحضارة والخلاعة الفاشية في تلك الحضارة فقد حذف منه شر ما فيه ولم يبق منه الا ما هو من قبيل الفكاهة والتصوير .

والبدوي يخاف الذم والحضري قلما يخافه .

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للشتم

كما قال ابن الرومي في بعض مهجويه . فالأفحاش وليد الحضارة والغلو في الأفحاش وليد التهاك في الحضارة ، ومتى غلا الشاعر في القذف بأدناس التبذل والخلاعة فهناك عيان محققان أحدهما ، لاشك ، عيب البيئة التي أشاعت تلك الأدناس أو جعلت الذم بها ذما هينا على الأسماع فلا بد فيه للشاعر من المبالغة والانغراق .

والثاني تبحث عنه في قائل الهجو ومدمنه ، فانه لولا عيب فيه لما اضطر الى الهجاء ولا آدمته وأفرط فيه .

فما هو عيب ابن الرومي - أو ما هي عيوبه - التي أولعته بالهجاء والأفحاش وصيرته عنوانا لزمانه في السفاهة والبذاء ؟ يبدو لنا أن عيبه الأول هو الشهوانية والتهاك على اللذات . فالشهوانية هي التي هونت عليه الاقذاع وسوغت له خوض الفضائح فأوغل فيها غير مستكره ولا متحرج . ثم أعانها الضعف وهو عيب الغالب عليه الذي تبدأ منه وترجع اليه جميع عيوبه .

ففي هجائه صفة ذميمة يشمئز منها القارىء جدا في كثير من الأحيان، ولكنها صفة الضعف والخفة وليست صفة الخبث والرداءة ، وقل فيه وفي هجائه ماشئت من لوم وتهجين وتأفف ولكنك متى قلت فيه كل

ما هو أهله وأقبلت ترد هجاءه الى بواعثه لم تجد ثمة شرا دخيلا ولم
تخطيء قط أن تجد الحرج والاضطرار وتشعر بأن قائل هذا الهجاء
رجل متالم يدفع الألم عن نفسه وليس برجل السوء الذي يعنيه أن يوقع
الألم بغيره ويمتد ايلام الناس غرضاً له مقصوداً لذاته .

وهو مع اشتهاره بالهجاء أسلم عن غيره حالا فيه وأكثر عذرا من
غير المشهورين به . أسلم من البحتري مثلا كما قال المرزباني في
الموشح :

« وكثير من أهل الآداب ينكر خبث لسان علي بن العباس الرومي
ويظن عليه بكثرة هجائه حتى جعلوه في ذلك أوحدا لا نظير له .
ويضربون عن اضافة البحتري اليه والحقه به مع احسان ابن الرومي
في اساءته وقصور البحتري عن مداه ، وانه لم يبلغه في دقة معانيه
وجودة ألفاظه وبدائع اختراعاته أغنى الهجاء خاصة لأن البحتري فد
هجا نحواً من أربعين رئيساً من مدحه ، منهم خليفتان : وهما المنتصر
والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم
من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ
جوائزهم ، وحاله في ذلك تنبىء عن سوء العهد وخبث الطريقة . ومما
قبح فيه أيضا وعدل عن طريق الشعراء المحمودة أنى وجدته قد نقل
نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظهم عليها الى
مدح غيرهم وأما أسماء من مدحه أولا ، مع سعة ذرعه بقول الشعر
واقتراره على التومع فيه .

« وقال أحمد بن أبي طاهر : ما رأيت أقل وفاء من البحتري ولا
أسقط ، رأيت قائماً ينشد أحمد بن الخصيب مدحا له فيه فحلف
ليجلسن . ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه . ثم أوصل
له مديحا اليه وأخذ له منه مالا فدفعه اليه ، ثم نكب المستعين أحمد
ابن الخصيب بعد قعله هذا بشهور فلمهدى به قائلاً ينشده :

لابن الخصيب الويل كيف انبرى
بافسكه المردي وابطاله
يا ناصر الدين اتصر موثكا
من كائد الدين ومقتاله
فهو حلال الدم والمال ان
نظرت في ظاهر أحواله

ثم قال ابن أبي طاهر : كان ابن العلجة فقيها يفتى الخلفاء في قتل
الناس . نزهه الله . ثم ختم القصيدة بقوله .

« والرأى كل الرأى في قتله بالسيف واستصفاء أمواله »

فالبحتري كان في غنى عن هذا ومندوحة واسعة ، ولكنك
قل أن تقرأ لابن الرومي هجاء تقول انه كان من الوجهة النفسية
في غنى عنه .

على أن لصاحبنا فنا واحداً من الهجاء لا ترتاب في أنه كان يختاره
ويكثر منه ولو لم تحمله الحاجة وتلجئه النعمة اليه ، ونعني به
فن التصوير الهزلي والعبث بالأشكال المضحكة والمناظر الفكاهية
والمشابهات الدقيقة ، فهو مطبوع على هذا كما يطبع المصور
على نقل ما يراه واعطاء التصوير حقه من الأتقان والاختراع ، وما
نراه كان يقلع عنه في شعره ولو بطلت ضروراته وحسنت مع
الناس علاقاته ... لكن هذا الفن أدخل في التصوير منه في الهجاء ،
وهو حسنة وليس بسيئة وقدرة تطلب وليس بخلة تنبذ . وانت
لا يفضبك أن ترى ابنك الذي تهذبه وتهديه ماهراً فيه خبيراً بسفامزه
وخوافيه ، وان كان يفضبك أن تراه يشتم المشتوم ويهين المهين
ويهجو من يستهدف عرضه للهجاء لأنك اذا منعت أن يفتن الى
الصور الهزلية وأن يفتن في ادراك معانيها وتمثيل مشابهاها منعت
ملكة فيه أن تنمو وأبيت على حاسة صادقة فيه أن تصدقه وتفقه ماتقع
عليه ، أما اذا منمت الهجاء وبواعثه فانك تمنع خلقاً يستغنى عنه وميلاً
لا بد له من التقويم .

ذلك هو فن ابن الرومي الذي لا عذر له منه ولا موجب للاعتذار
فأما ما عدا ذلك من هجائه فهو مسوق فيه لاسائق ومدافع لا مهاجم
ومستثار عن عمد في بعض الأحيان لا مستثير . وانك لتقرأ له
قوله :

ما استب قط اثنان الا غلبا شرهما نفسا وأما وأبا
فلا تصدق أن قائله هو ابن الرومي هجاء اللغة العربية وقاذف
المهجوين بكل نقيصة . لكن الواقع هو هذا ، والواقع كذلك أنه كان
يسكن الى رشده أحيانا فيسأم الهجاء ويمافه ويود الخلاص منه حتى
لو كان مهجوا معدوا عليه ، ويمتزم التوبة عن الهجاء مقسما .
آليت لا أهجو طوا ل الدهر الا من هباني
لا بل سأطرح الهجا ء وان رماني من رماني
أمن الخلائق كلهم فليأخذوا مني أماني
حلمي أعسر على من غضبي اذا غضبي عراني
أولى بجهلى عندما يبتعد
مكنت حلمي من عناني

وهذا أشبه بابن الرومي لأنه في صميمه خلق مسالماً سهلاً ولم يخلق
شريراً مطويماً على الشكس والعداوة . بل هو لو كان شريراً لما اضطر
الى كل هذا الهجاء ، أو هو لو كان أكثر شراً لكان أقل هجاء ، لأنه
كان يأمن جانب العدوان فلا يقابله بمثله . وما كان الهجاء عنده كما
قلنا الا سلاح دفاع لاسلاح هجوم : وما كان هجائه يشف عن الكيد
والنكايه وما شابههما من ضروب الشر المستقر في الفريزة كما كان يشف
عن الحرج والتبرم والشعور بالظلم الذي لا طاقة له باحتماله ولا باتقائه .
وكثير من الأشرار الذين يقتلون ويعيشون في الأرض يقضون الحياة
دون أن تسمع منهم كلمة ذم في انسان ، وكثير من الناس يذمون
ويتسخطون وهم مطبوعون على الخير والعطف وحسن المودة ، بل هم
قد يذمون ويتسخطون لأنهم على ذلك مطبوعون .

ومن قرأ مراثي ابن الرومي في أولاده وأمه وأخيه وزوجته وخالته
وبعض أصدقائه علم منها أنها مراثي رجل مفطور على الحنان ورعاية

الرحم والأنس بالأصدقاء والاخوان . فرائيه هي التي تدل عليه حق الدلالة المنصفة وليست مدائحه التي كان يملها الطمع والرغبة أو أهاجيه التي كان يملها الفيظ وقلة الصبر على خلائق الناس . ففى هذه المرائى تظهر لنا طبيعة الرجل لاثسوبها المطامع والضرورات ، ونرى فيه الولد البار والأخ الشفيق والوالد الرحيم والزوج الودود والقريب الرهوم والصديق المحزون . ولا يكون الرجل كذلك ثم يكون مع ذلك شريراً مغلق الفؤاد مطبوعاً على الكيد والايذاء .

وإذا اختلف القولان بينه وبين أبناء عصره فأحجى بنا أن نصدق كلامه هو فى أبناء عصره قبل أن نصدق كلامهم فيه ، لأنهم كانوا يستيبحون ايذائه ويستسهلون الكذب عليه لغرابة أطواره وتعسود الناس أن يصدقوا كل ما يرمى به غريب الأطوار من التهم والأعاجيب ، فى حين أنه كان يتحامى تلك التهم ويغفر الاساءة بعد الاساءة مخافة من كثرة الشكاية وعلماً منه بقلة الانصاف :

أتانى مقال من أخ فاغتنصرته
وذكرت نفسى منه عند امتعاضها
ومثلى رأى الحسنى بعين جلية
فيا هارباً من سخطنا متنصلاً
فعدرك ميسوط لدينا مقدم
ولو بلغتنى عنك اذنى أقمتهما
ولست بتقليب اللسان مصارماً
وان كان فيما دونه وجه معتب
محاسن تغفو الذنب عن كل مذنب
وأغضى عن العوراء غير مؤنب
هربت الى أنجى مفر ومهرب
وودك مقبول بأهل ومرحب
لدى مقام الكاشح المتكذب
خليلى ، اذا ما القلب لم يتقلب

فالرجل لم يكن شريراً ولا رديء النفس ولا سريعاً الى النقمة ، فلماذا اذن كثر هجاؤه واشتد وقوعه فى أعراض مهجويه ؟ نظن أنه كان كذلك لأنه كان قليل الحيلة طيب السريرة خالياً من الكيد والمراوغة والدسيسة وما شابه هذه الخلائق من أدوات العيش فى مثل عصره . فكان مستغرقاً فى فنه يحسب أن الشعر والعلم والثقافة وحدها كفيلة بنجاحه وارتقائه الى مراتب الوزارة والرئاسة ، لأنه كان فى زمن يتولى فيه الوزارة الأدباء والكتاب والرواة ويجمعون فى مناصبهم ألوف

الألوف ويحظون بالزلفى عند الأمراء والخلفاء ، وقد كان هو شاعراً كاتباً وكان خطيباً واسع الرواية مشاركاً فى المنطق والفلك واللغة وكل ما تدور عليه ثقافة زمانه ، أو كما قال المسعودى كان الشعر أقل أدواته .. وكان الشعر وحده كافياً لجمع المال وبلوغ الآمال ، فماذا بعد أن يعرف الناس أنه شاعر وأنه كاتب وأنه راوية مطلع على الفلسفة والنجوم الا أن تجيئه الوزارة ساعية اليه تخطب وده كما جاءت الى أناس كثيرين لا يعلمون علمه ولا يلفون فى البلاغة مكانه !؟ ألم يصل ابن الزيات الى الوزارة بكلمة واحدة فسرهما للمعتصم وفصل له تفسيرها وهى كلمة « الكلا » التى يعرفها عامة الأدباء ؟ بلى ! وابن الرومى كان يعرف من غريب اللغة ما لم يكن يعرفه شعراء عصره ولا أدباؤه . فما أولاه اذن بالوزارة وما أظلم الدنيا ان هى ضنت عليه بحقه من المناصب والثراء !!

فاذا لم تكن الوزارة فهل أقل من الكتابة أو العمالة لبعض الوزراء والكتاب المبرزين ؟ فاذا لم يكن هذا ولا ذلك فهل غبن أصعب على النفس من هذا الغبن ؟ وهل تقصير من الزمان الأم من هذا التقصير؟ ونبوءة آية ورجاؤه فى مستقبله وقوله له «أنت للشرف» أيدى هذا كله هباء لا تقبض منه اليدين على شيء ؟ تلك النبوءات التى تنطبع على أفئدة الصغار بثل النار ولا تزال غرارة الطفولة وأحلام الصبا تزخر فيها وتوشىها وتعمق فى الضمير أغوارها آياتى الشباب وهى محو لغو مطموس لا يبين أو لا يبين منه الا ما ينقلب الى الاضداد وترجمته الأيام بالسقم والفقر والكساد ؟ وكيف يسحى الا وقد محى القلب الذى طبعت فيه ؟ وكيف ينعكس معناه الا وقد انعكس فى القلب كل قائم والتوى فيه كل قويم ؟ ذلك صعب على النفوس وليس بالسهل الا على من يلهو به وهو بعيد .

وهكذا كان ابن الرومى يسأل نفسه مرة بعد مرة ويوما بعد يوم:

مالى أسل من القراب وأغمد لم لا أجرب فى الضرائب مرة ؟
لم لا أجرد والسيوف تجرد يا للرحال ! واثنى لمهند .. !

ولا يدري كيف يجيب نفسه على سؤاله ، لأنه لم يكن يدري أن فضائله كلها لا تساوي فتيلًا بغير الحيلة والعلم بأساليب الدخول بين الناس وأن الحيلة وحدها قد تفي عن فضائله جميعا ولو كان صاحبها لا ينظم شعرا ولا ينظر في كتب الفلسفة والرواية والنجوم . .

حسن ! اذن ندع الوزارة والولاية والعمالة بعد بأس مضيض يسهل علينا هنا أن نسطره في كلمة عابرة ولكنه لا يسهل على من يعالجه ويشقى بمحتته في كل ساعة من ساعات حياته ، ندع الوزارة والولاية والعمالة ونقنع بالمشوبة من الوزراء والولاة والعمال ان كانوا يشيرون المادحين . فهل تراهم يفعلون ؟

لا ! لأن الحيلة لازمة في استدرار الجوائز والمشوبات لزومها في كل غرض من أغراض المعاش ، ولا سيما في ذلك الزمان الذي شاعت فيه الفتن والسايات ، وما كانت تقضى منه سنة واحدة بغير مكيدة خبيثة تودي بخياة خليفة أو أمير أو وزير . وربما كانت مصانعة الحجاب والتماس مواقع الهوى من نفوس العاشية والندمان واللعب بسغامز النفوس الخفية واضحاك هؤلاء وهؤلاء أجدى على الشاعر في هذا الباب من بلاغة شعره وغزارة علمه ، وربما كان الوزير لا يشيب الشاعر الا ليستصلحه كما كانوا يقولون في لغة ذلك الزمان ، أى ليتخذه نصيرا له عسى أن ينفعه يوماً في مجالس الخلفاء والأمراء بكلمة يقضى بها مأربا أو يكبت عدوا أو بحيلة يقرب بها بعيداً أو يبعد قريبا ، وأين يذهب ابن الرومي في هذا المجال؟ وماذا يرجو المدوحون من تقريره وهو رجل كما كانوا يقولون مرور موسوس أدبه أكبر من عقله ولسانه أطول من صبره ؟ لقد كان صاحبنا صفاً من هذه البضاعة . فلا جرم نراه يشكو تكبر الحجاب وفسائس الندماء والأصحاب ويعطى القليل حين يجزل عطاء الآخرين أو يشاب مرة ويحرم مرات ، فقد بلغ من وكس حاله في هذا أنه كان يستجدي

الكساء فيمطلونه ويعود الى الاستجداء فيعودون الى المطل حتى يقول:

جعلت فداك لم أسأ لك ذاك الثواب للكفن
سألتك لألبسه وروحي بعد في البدن

وبلغ من وكس حاله أن المدوحين كانوا يقبلون شعره ولا يثيونه
فاذا ألح في طلب المثوبة قالوا خذ شعرك فامدح به غيرنا كما فعل
ابن المدبر حين قال فيه :

رددت على مدحى بعد مطل وقد دنست ملبسه الجديداً
وقلت إمدح به من شئت غيره ! ومن ذا يقبل المدح الرديداً؟
ولا سيما وقد أعبت فيه مخازيك اللواتى لن تبيدا
وما للحي في أكفان ميت لبوس بعدما ملئت صديداً

وكان يصنع القصيدة ويتبعها خمس قصائد أوستا ليحصل على
جائزتها فلا يحصل بعد الجهد على شيء، ويعجب لذلك ويأخذه الشك
في شعره فيقول :

عجبت لقوم يقبلون مدحى عجبى
أشعري سفاف ؟ فلم يجتبهونه ؟
وينسون تثويبي، وفي ذلك معجب
وان لاتكن هذى فلم لا أثوب

ولعله كان يتهم شعره أحيانا فيقول :

الشعر كالعيش فيه مع الشيبة شيب
فليصفح الناس عنه فطعنهم فيسه غيب

أو يعتذر بالفاقة من السخف :

لا تلحنى فى المنطق السخيف فانتى فى حسالة اللهيف

وأحوج الناس الى رغيف

أو يقول :

قولا لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف ركب الشجر ؟
ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشسوك بينه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخد لى رب الأرباب لا البشسر

ثم يعود اليه اعتداده بكلامه فيلقى الذنب على الناس لجهلهم بمعاني الكلام .

ما خمدت نارى ولكنهاها ألفت قلوبنا نارها خامدة
أو يقول :

ما بلغت بى الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقرده
وما أنا المنطق البهائم والطير ير سليمان قاهر المسرده

أو يقول انهم بهائم لا يفهمون الا البهائم :

بحقهم ان باعدونى وقربوا سواى وتقريب المباعد أوجب
خفافيش أعشاها نهار بضوئه ولازمها قطع من الليل غيب
بهائم لاتصغى الى شذو معبد وأما على جافى الغناء فتطرب
ويخطر له حيناً أن الأمراء يحسدون شعره لأنهم يقرضون الشعر
فينفسون الجيد منه على الشعراء ، ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحاً
كما قال :

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء
ان أجدنا فى مدحهم حسدونا فحرمتنا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا فى مدحهم أنبونا وهجوا شعرنا أشد هجاء
قد أقاموا نفوسهم لذوى المدح مقام الأنداد والنظراء

وكان من هؤلاء محمد بن عبد الله الذى قال فيه :

اخالك اذ جودت فيه مدائحى منعت ثوابى حاسداً لى على شعرى
أتحدنى تجويد ريط نسجته لتلبسه ؟ يا للعجب من الأمر ؟
تذكر هـداك الله أنى مادح وأنك ممدوح فلا تعد بى قدرى
ينافس فى الشعر النظير نظيره وجل ملوك الناس عن ذلك النجر

فاذا لج به الغيظ واشتد عليه بلاء الحرمان من العمل والحرمان
من المثوبة صرخ متمجياً :

أذو آلة ؟ فاستخدموني لآلتى بقوتى ، والا فارزقوني مع الزمنى
أى ارزقوني مع المعجزة والسقماء ، وهذه نهاية البؤس والخيبة
ونهاية الحيرة التى لا يمتدى فيها المسكين الى سب مريح ، فلم يسق
له من عزاء الا أن يرقن أن الدنيا هكذا طبعت على ظلم العارفين
ومحابة الأغبياء .

رأيت الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذى زنة شريفة
كذلك البحر يرسب فيه در ولا تنفك تطغى فيه جيفة
وكرر هذا المعنى فى معارض شتى على قوافى مختلفة ، لأنه سكن
اليه ووجد فيه عزاءه ولو الى حين .

وينبغى أن نذكر هنا شيئاً لا بد من ذكره فى هذا المقام لأنه لازم
لادراك حقيقة الغضب الذى كان يستولى على نفس الشاعر المحروم
إذا أجاد المديح ولم يظفر بالمطاء ، فقد كان حق الشاعر فى العطاء
معترفاً به يقبله الأمراء والوزراء ويفره العرف وتجرى عليه القدوة .
فنحن لانعرف اليوم ذلك الحق للشاعر ولا نستطيع لهذا أن ندرك
غضبه وأسفه إذا حرم وتوالى عليه الحرمان ، أما فى عهد ابن الرومى
فغضبه من المنع وأسفه على فوات الربح من هذه المقاصد أمر لاغرابة
فيه ولا اعتراض عليه ، فالحكم عليه إنما يكون بمقياس أيامه لا بمقياس
أيامنا التى لا يجب فيها البذل على ممدوح ولا يجوز فيها الهجاء لشاعر
محروم .

ومما ضاعف الاستخفاف بابن الرومى أنه كان متطسيراً غريب
الأطوار ، لا يأخذه الناس مأخذ الجد ولا يزال المعربدون منهم
يعتمدونه بالعبث ويتماجون عليه لشدة فرقه وانزعاجه من الفأل
السيء .

يضحك من كل ما بتكيت له كأن لذاته بالامى

وكان بعضهم يصبحه بقرع يابه ، فاذا سأل من الطيارق ؟ قال مرقع
ابن حنظلة ! فيمكث فى بيته لا يرمى عنه سحابة يومه ! وكانوا يشوقون

اليه رجلا أحذب كرهه الرؤية يقابله بوجهه اذا خرج من منزله فيرتد على عقبه ! وكانوا يجورون عليه بالعبث فيتوعد فلا يحفلون فيهمجو ولكن بعد مصابرة واعتاب . وكم قال لابن عروس :

يا ليت شمري وليت شرك ان قلدا
ما ينفع الصارم اللسان اذا
فارجع وبقيأ أخيك باقية
أو كما قال لبني السمري :

يا بني السمري لا تجشموني
قد تجاوزت ماتجاوزت عنكم
لا يفسرنكم بجهلى حلى
ان لين المهز فى السيف أمضى
أن تشير القصيد كل دفين
وتفاضت على قذاكم جفوني
وارعوائى الى حياىى ودينى
بغراريه فى صميم الشئون

أو كما قال لغيرهم ولغيرهم من العابثين والماطلين الذين كانوا يضحكون مما ييكه ويتفكحون بها يحز فى قلبه ويدميه . فماذا أفاده العتاب وماذا دفعت عنه الشكاية ! لاشيء ! لأن الأعراض هانت على أصحابها فى ذلك العصر فلا يبالون المذمة الا أن يكون فيها معنى الاجترأ على الجاه والقوة ، وهم أحمرى ألا يبالوها من شاعر كابن الرومى ليس أسهل عليهم من أن يقولوا عنه انه هذيان مرور ، فيضيق ذرعا بهم ويهجو كالمذفوع الى غير ما يجب ، ويظهر ذلك منه فى بعض القصائد كما يظهر من قوله :

لا يفضب : لعمر من له خطر
فليس يرضى بظلمى من له خطر

كان يقول : لقد صبرت على عمرو فرضى الناس بظلمه اياى فاذا هجوته أنا الآن فما يحق لذى خطر أن يفضب له وهو منصف بينى وبينه .

وقد يعترف بالوسواس على نفسه ولكنه يرده الى سوء حفظه واجحاف الأيام به كما قال حين رماه الناشء بالوسواس .

أن أوسوس فحقيق ، يسعد القرد وأنحس !
أصبح الناشء ممن يتغنى وهو أخرس
ناقفاً عند أناس تعسوا والدهر أتعس
ته على الدنيا وقل ما شئت واظلم وتغطرس
لم يقدر منك شيء ولك الجد المقدس
كيف لا يشتد وسوا سى وأشعارك تدرس
وضياء الشمس لا يقبس س والظلماء تقبس

فاذا عبث به العابثون وتحذثوا بنحسه لم يسره ذلك وحق له ألا
يسر به وقال مناجزاً :

زعت بأننى نحس وأنى مجيبك معلناً لا أتقيا
وانطلق يصخب ويثلب وهو فى رأيه معذور فى ذلك الجرم الذى
جنوه عليه قبل أن يجنيه عليهم ، ومعذور حتى من الحسد الذى كان
لايداريه ولا ينكره ولكن يقول فى الناس المعذرة له .

لا تلومن حاسداً ، ألم النف من النخس ياأخى شديد

وزد على ذلك فجائعه فى بنيه وأحبابه واحداً بعد واحد وهو أحوج
ما يكون الى معوتهم وعطفهم بين قوم كأنه غريب فيهم لا يفهمهم ولا
يفهونهم ، وزد عليه طمع الناس فيه حتى كانت تسلبه ملكة الزهيد امرأة
كما جاء فى بعض شعره ويفضبه منزله الذى يسكنه تاجر يستهين به
وبما عسى أن يصنع .

وراغضى فيما أتى من ظلامتى وقال لى أجهد فى جهد احتيالكا
فما هو الا نسجك الشعر سادرا وما الشعر الا ضلة من ضلالكا

لهذا وأمثاله كثرت أهاجى ابن الرومى واشتد اقتداعه وكان الذين
يمدحهم بالأمس هم الذين يثلبهم بعد ذلك ، يكاد لايفصل المدح عن
القدح فاصل أو يكاد يكون المدح والقدح متواليين فى صفحات الديوان ،

لأن الديوان مرتب على حسب الحروف لا على حسب التواريخ
والموضوعات ولو أننا نصبنا ميزان العدل لكان ابن الرومي ماوماً على
المدح أضعاف لومه على الهجاء . فقد كان يكذب حين يسدح ويتوسل
ولم يكن يكذب حين يهجو ويتقم ، وراجع ترجمة المهجوين في
قصائدهم تجددهم كلهم أو أكثرهم لصوصاً لا ينقضى على أحدهم في
المنصب أشهر أو سنوات حتى يعمر بيته بالمنهوب المسلوب من أرزاق
الرعية الضعفاء ، ثم لا تنقضى فترة أخرى حتى يسلط عليه لصوص
أكبر منه فينكبونه ويستصفون أمواله كأنهم تغافلوا عنه ريثما يجمر
لهم تلك الأموال ، وإن في كتب التاريخ لسوءات لهم غير هذه وآثاماً
جساماً لا يقال فيها أنها تخرص شاعر مغبون أو اقتراء خصم منهم
بالأقاويل ، فإن كان الصدق عذراً للشاب الصادق فعذر ابن
الرومي في التشهير والتجريح أوجه من عذره في الاطراء
والمديح .

وقد اشتهر بالهجاء وأصبح له سلاحاً لازماً وقدرة معروفة بين
شعراء عصره فراح يلوح به كما يلوح المهدد بسلاحه ويعجب به كما
يعجب الفنان بعمله . ولو عوفى في نفسه ورزقه لما بقى له من الهجاء
إلا فاحيته هذه الفية والأعيه الصبيانية . فإنه على كل حال لم يختب
قط من أدواته النية الخيثة والطبع الشرير ، أو هو على حد
قوله :

لو أروض الشيطان اذعن كالك
ولما ذاك أنتى الرجل الشر
بل لدى الانصاف يشفعه الاح
لب ، أو العود عضه الكلوب (١)
ير منى الخنا ومنى الوثوب
سان ما قارب الألد الشغوب

ونعود فنقول : لو كان الرجل أكثر شراً لكان الناس أكثر اتقاء
له واجتناباً لكيده ، فقلت دواعيه الى سوء المقال وأعفى أعراضهم
وأعفى لسانه فأراح واستراح .

(١) العود الجبل بالسن والكلوب المهاز

هو وشعراء عصره

عاصر ابن الرومي في بيته كثيراً من الشعراء أشهرهم في عالم الشعر الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعي والبحترى وعلي بن الجهم وابن المعتز وأبو عثمان الناجم .

وليس لهؤلاء ولا لغيرهم ممن عاصروه وعرفوه - أو لم يعرفوه - أثر يذكر في تكوينه غير اثنين فيما نظن ، هما الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعي .

فقد كان ابن الرومي معجباً بالحسين يروي شعره ويستملح أخباره ويذكرها لأصحابه ، وكان ابن الرومي يافعا يحضر مجالس الأدب ويتلقى دروسه والحسين في أوج شهرته يتناشد أشعاره أدباء الكوفة وبغداد ومدن العراق . حدث محمد بن الفضل الأهوازي قال : « سمعت علي ابن العباس الرومي يقول : حسين بن الضحاك أغزل الناس وأظرفهم ، فقلت حين يقول ماذا ؟ فقال حين يقول :

يا مستعير سوائف الخيف اسمع لخفلة صادق الحلف
ان لم أصح ويلى ويا حربى من وجتتيك وقفرة الطرف
فجحدت ربي فضل نعمته وعبدته أبدا على حرف

هكذا جاء في كتاب الأغاني - وجاء فيه أيضا عن ابن الرومي أنه قال :

أنشدنا أبو العباس ثعلب قال أنشدني حماد بن المبارك صاحب حسين بن الضحاك قال أنشدني حسين لنفسه :

لا وحييك لا أصا فح بالدمع مدمعا
من بسكى شجوه استرا ح وان كان موجعا
كبدى من هواك أسة سم من أن تقطعا
لم تدع سورة الضنى فى للسقم موضعا

قال ابن الرومي . ثم قال لنا ثعلب : ما بقى من يحسن أن يقول مثل هذا .

وروى عنه كتاب الأغاني روايات أخرى من هذا القبيل تدل كلها على الإعجاب والاستملاح ، ومثل ابن الرومي يعجب بشعر الحسين الأنيق الظريف المطبوع ولكنه لا يمتزج بطريقته ولا يتزى بزيه ، لأن طريقة الأناقة والصقل غير طريقة الامعان والنفاذ التي طبع عليها ابن الرومي . فانت تلمح أثر هذا الإعجاب في أبيات من شعر ابن الرومي كقوله :

يا وجتية اللتين من وهج في صدغيه اللذين من دعج
فتعلم أنه نظم هذا البيت وهو يذكر صيحة ابن الضحاك من « وجتتي صاحبه وفترة طرفه » .

أو كقوله :

عيني شحا ولا تسحا جل مصابي عن البكاء
تركما الداء مستكنا أصدق عن صحة الوفاء
فتعلم أنه نظمه وهو يذكر الأبيات التي روى في أولها لابن الضحاك :

لا وحيك لا أصيا فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وان كان موجعا
وابن الضحاك يقول :

كأنما نصب كاسه قبر بكرع في بعض أنجم الفلك
وابن الرومي يقول :

فكأنها وكان شاربها قمر يقبل عارض الشمس

فهو كان معجبا بظرائف ابن الضحاك ملتفتا إليها ولكنه لم يخرج عن طريقته التي طبع عليها ولم يزد في إعجابه على أن يقتبس منه بعض الخطرات الرشيقة ، وهو شيء غير اقتباس الطريقة والتشابه في السليقة .

وقد مات الحسين بن الضحاك وابن الرومي في التاسعة والعشرين،

ولم نر في تاريخه ولا في تاريخ الحسين ما يشير الى تلاقيهما في بغداد
حيث عاش ابن الرومي معظم حياته ، أو في غير بغداد حيث كان يرحل
ابن الضحاك .

أما دعبل فابن الرومي عارضه في موضعين ، أحدهما القصيدة
الطائية التي نظمها دعبل حين اتهم « خالدا » بسرقة ديكه واطعامه
لضيوفه وقال في مطلعها :

أسر المؤذن خالد وضيوفه	أسر الكمي هنا خلال الماقت
بعثوا اليه بنهم وبناتهم	ما بين ناتفة وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا	خاقان أو هزموا كئائب ناهط
أكلوه فاتزعت به أسنانهم	وتهشمت أقمأؤهم بالحائط

فزاد ابن الرومي فيها وأطالها وبلغ بها نيفا وستين بيتا وغير بعض
الفاظها فما قال في معارضته وتمثل فيه كل مزاجه وملاحظاته :

طبخوه ثم أتوا به قد أبرمت	أوتاره لمنساف ومرابط
متجسلا لدجاجة متجلدا	كتجلد المجلود بين ربائط
ولقد رمته يوم ذلك قدرهم	بغطائط من غليه وغطامط
حملوا عليه كل ماء عندهم	وفرات كوفتهم ودجلة وامط
واها لذاك الديك بين مساقط	منه عهدناها وبين ملاقط
قوام أسسحار مؤذن حارة	«وصال» زوجات كمي مآقط
ينفى مناعسه بنفس شهمة	ويشاهد الهيجا بجأش رابط

والموضع الآخر الذي عارض فيه دعبل أبيات ثائية قال دعبل
في مطلعها :

أتيت ابن عمرو فصادفته مريض الخلائق ملتأها

فعارضها ابن الرومي وزاد عليها من أبيات :

قواف أبي الوغد ابريزها قيسيا
فأخرجت للوغد أجبائها

أوابد قد أخنست قبله كهمول الرجال وأحداثها

ولا جرم لى ان أساءت جنا • مزرعة كان حراثتها

ونشأ ابن الرومى ودعبل كذلك شاعر واسع الشهرة جذاب السيرة لغرابة أخلاقه ومخاطرته وتطويفه فى الآفاق ، مستحسن الشعر بين من يؤثرون الفحولة اللغوية ، مفضل على المحدثين من طبقته كما قال البحترى وكان يتعصب له « دعبل » بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم . وكان دعبل فيما عدا ذلك متشيعا لآل على غالبا فى تشيعه فجذب ذلك كله نفس ابن الرومى القتى نحوه وحجب اليه محاكاته ومجاراته ، وربما كانت الرغبة فى مجاراته احدى دواعيه الى الهجاء .

ومات دعبل وابن الرومى فى الخامسة والعشرين ولا نعلم أنهما تعارفا أو كان بينهما لقاء .

هذان هما الشاعران اللذان عاصرا ابن الرومى وكان لهما أثر يذكر فى تكوينه . أما الآخرون فالثابت أنه كان على معرفة وصحبة مع اثنين منهما وهما البحترى وأبو عثمان الناجم وعرف البحترى فى بيت الناجم ، وكان هذا صديقا له بقى على صداقته الى يوم وفاته ، وراوية يحفظ شعره وأخباره ويجرى على طريقته فى بعض تشبيهاته - فسأله البحترى أن يعرفه الى ابن الرومى ففعل وجرت بين الشاعرين صحبة غير طويلة ولا وثيقة ، لأن البحترى كان يدل على ابن الرومى بمكانه من الخلفاء والأمراء ، وكان ابن الرومى لا يطيق الصبر على ذلك فهجاه وعاب شعره واتهمه بالسرقة ، فمن قوله فيه :

قبحا لأشياء يأتى البحترى بها
من شعره العث بعد الكد والتعب

كانها حين يصنى السامعون لها
من يميز بين النبع والفسرب
رقى العقارب أو هذر البناة اذا
أضحوا على شعف الجدران في صخب
وقد يجيء بخلط فالتحاس له
وللاوائل ما فيه من الذهب

عبد يفير على الموتى فيسلبهم
حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما أن يزال تراه لايسماً حلاً
أسلاب قوم مضوا في سالف الحقب
ثم عاد يذكره أيام رضاه ومودته والفرق بين مسالته وحربه ويقول
له بعد اقتذاع كثر *بجيشه كثر*
يا بحتسرى لقد أقبلت منقلبا
يسوم اكتسبت هجائى شر منقلب

قد كنت تعرف منى فى الرضى رجلا
حلوا المذاقة ، فاعرفنى لدى الغضب
تعرف فتى فيه طورا مجتنى سلع
للمجتنبين وطورا مجتنى رطب

ونظن أن المنافسة بينهما لم تكن وحدها سبب هذا الهجاء ، وإنما
أنس ابن الرومى اغراء من العلاء بن صاعد بالبحترى ، لأنه خاطبه فى
هذه القصيدة بما يظهر منه أن العلاء كان يستضعف هجاء الشعراء
للبحترى ويبحث عن يثمد عليه وينحمله كما يؤخذ من هذا
البيت :

أراك لم ترض ما أهدى له نفر من شتم أم لثيم خيمها وأب

فأرضى ابن الرومي نفسه وأرضى العلاء بهجائه ، وكان رد البحتري عليه ما علم القراء من اهدائه تحت المتاع وكيس الدراهم وابلاغه « أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه لأنه لم يحصله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط » .

عرف ابن الرومي البحتري وابن الرومي شاعر مشهور بالافتنان في المعاني والقدرة على الهجاء وكان البحتري يحب مجاراته في بعض قصائده . فقال له في أول لقاء بينهما أنه عزم على أن يعمل قصيدة على وزن قصيدته الطائية في الهجاء فنهاه ابن الرومي عن ذلك لأنه ليس من عمله . فإذا كان بينهما اقتباس أو معارضة فالبحتري هو المقتبس وهو الراغب في المعارضة . على أننا لا نخاله استعار من ابن الرومي شيئاً يزيد في مذهبه الذي نبع فيه لأنها نمطان متباينان ، ولكل منهما اعتداد بنفسه يكفيه ويغنيه .

أما علي بن الجهم (المتوفى سنة ٢٤٩ هـ) ، فقد كان بينه وبين ابن الرومي برزخ واسع من اختلاف المذهب في الدين والشعر . فابن الرومي متشيع وابن الجهم ناصب يذم عليا وآله « ولا يلتقى الشيعي والناصب » كما يقول ابن الرومي ... وكان ابن الجهم شديد النقمة على المعتزلة وعلى « أهل العدل والتوحيد » منهم خاصة بهجوهم ويدس لهم ويقول في زعيمهم أحمد بن أبي نؤاد :

ما هذه البدع التي سميتها بالجهل منك العدل والتوحيد

وابن الرومي كما مر بك من هذه الجماعة . فمذهبه في الدين ينفره من ابن الجهم ولا يرغبه في مجاراته ، ولو تشابها فيما عدا ذلك من المزاج والنزعة لقد يهون هذا الفارق ويسهل على ابن الرومي الاغضاء عنه وهو ناشئ يتلمس القدرة ويخطو في سبيل الشهرة . ولكنك تقرأ شعر ابن الجهم في فخره ومزاحه ، فيخيل اليك أنك تقرأ كلام جندي يتنفج أو يعربد . لخلوه من كل عاطفة غير عواطف الجنود الذين

يقضون أوقاتهم بين الفخر والضجيج واللهو والسكر ، وليس بين هذه الطبيعة وطبيعة ابن الرومي مسرب للقسدوة أو للمقاربة في الميل والاحساس ، ولا كان في شعر ابن الجهم شيء يشعر مثل ابن الرومي أنه يقتدى به ويحتاج الى مجاراته ، فيميل به هذا الشعور الى الاعجاب بالشاعر الذي أبدعه عنه المذهب والمزاج .



وقد ولد ابن المعتز في سنة سبع وأربعين ومائتين ، فلما ايفع وبلغ السن التي يقول فيها الشعر كان ابن الرومي قد جاوز الأربعين أو ضرب في حدود الخمسين ، ولما نبغ واشتهر له كلام بروي في مجالس الأدباء كان ابن الرومي قد أوفى على الستين وفرغ من التعلم والاقتباس . ولو انعكس الأمر وكان ابن المعتز هو السابق في الميلاد لما أخذ منه ابن الرومي شيئاً أو لكان أفسد سليقته بالأخذ عنه ، لأن ابن المعتز انما امتاز بين شعراء بغداد في عصره بمزاياه الثلاث ، وهي البديع والتوشيح والتشبيه بالحف والنفائس ، وابن الرومي لم يرزق نصيباً معدوداً من هذه المزايا ولم يكن قط من أصحاب البديع وأصحاب التوشيح أو أصحاب التشبيهات التي تدور على الزخرف وتستفيد نفاستها من نفاسة المشبهات .

ويجوز أن الشعارين لم يتعارفا ولم يتلاقيا في مجلس ، لأن ابن الرومي كان قليل الغشيان جداً للمجالس التي كان يحضرها الخلفاء وولاة العهود . فضلا عن تفاوت السن والخطة ، فضلا عن سبب آخر قد يكون من موانع اللقاء بينهما وهو أن ابن الرومي هجا المعتز ومدح المستعين حين تنازعا الخلافة وتقاتلا عليها . وكان ابن الرومي من حزب المستعين لأن بغداد كانت معه وهي وطن ابن الرومي ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر كان ينصر المستعين وهو يومئذ أكبر مددوحيه . ونحن نذكر هذا السبب الأخير للاحاطة به ولا نعيه كبير التفات ، لأن ابن المعتز كان طفلاً رضيعاً حين تقاتل أبوه وعمه ، ولا يحتمل كثيراً أنه وعى بعد ذلك كل ما قاله ابن الرومي في تلك الأيام .

ممدوحوه:

لابن الرومي ممدوحون كثيرون يزيدون على الأربعين ، يطول بنا البحث ولا ننتهي الى غرض يفيدنا فيما نحن فيه لو أننا أجملنا تواريخهم اجمالاً سريعاً بله التفصيل والانععام ، ولو كان للمدح في زمن ابن الرومي بواعث نفسية غير طلب العطاء لوجب أن نغني بتراجم الأشخاص الذين حركوا في نفس الشاعر تلك البواعث واستحقوا منه اكبارة وثناءه ، لأن العناية بتراجمهم في هذه الحالة عناية بالشاعر نفسه وبواعث نظمه ومعايير وصفه وثناءه ، ولكن الشعراء كانوا يمدحون ولا يقصدون من المدح الا الارضاء والتفنن في معاني التعظيم ، فمن العبث أن نحصى هنا تراجم لاتزيدنا علماً بالشاعر وليس العلم بها لذاتها مقصوداً في هذا المقام ، وحسبنا أن نلم بتاريخ الأسترتين اللتين خصهما الشاعر بمعظم مدائحه وكانت له صلة طويلة بهما وعلاقات مذكورة في ترجمة حياته ، وهما أسرة آل طاهر وأسرة آل وهب ، وكلاهما من أكبر الأسر التي عرفت في تاريخ الوزارة والقيادة في الدولة العباسية .



قال طاهر أسرة قديمة تنتسب الى أمراء الفرس الأولين ويذكر منها في عالم الحرب والأدب والنجدة أفراد كثيرون . وأول من نبغ منها واشتهر في عهد بني العباس طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان ، أسلم جده رزيق على يد عبيد الله طلحة الطلحات الخزاعي والى سجستان فنسب اليه ولقب بالخزاعي لهذا السبب لا لاتبائه الى قبيلة الخزاعة من جهة النسب .

وقد ولد طاهر بقرية بوشنج من أعمال « مرو » سنة تسع وخمسين ومائة حيث كان جده مصعب والياً يتولى أعمال مرو مع أعمال هراة . ثم كان الخلاف بين الأمين والمأمون فأبلى طاهر في خدمة المأمون - الفارسي الأم - أحسن بلاء وأخلص له ونصح في ولائه

وتوطيد ملكه ، فولاه خراسان وأطلق يده فيها فأصبحت دولة طاهرية مستقلة في حكومتها لا تربطها ببغداد الا خطبة المنبر ، وقيل أن طاهراً قطع الدعاء للخليفة يوماً فسمعه خادم معه كان موكلًا به من قبل المأمون فأصبح ميتاً .

وكانت لآل طاهر مع ولاية خراسان ولاية الشرطة في بغداد وهي من الولايات النافعة لذوى النفوذ ، فاجتمعت لهم أسباب القوة بين العاصمة وذلك الاقليم الخطير الشأن في حياة الدولة العباسية .

وولد لظاهر ابنه عبد الله فنشأ في رعاية المأمون نشأة فاضلة وشابه أباه في النجدة والاقدام وبذره في الأدب والمروءة . تولى مصر وأعطاه المأمون مال خراجها وضياعها لسنة ، فوهبه كله وفرقه في الناس ورجع صفراً من ذلك . ففاظ المأمون فعله فدخل اليه يوم مقدمه فأنشده أبياتا قالها في هذا المعنى وهي :

نفسى فدائوك والأعتاق خاضعة للنسائيات أيا غير مهتضم
اليك أقبلت من أرض أقيمت بها حولين بعدك في شوق وفي ألم
أقومساعيك اللاتي خصصت بها خذو الشراك على مثل من الأدم
فكان فضلى فيها اننى تبسح لما سنتت من الانعام والنعم
ولو وكلت الى نفسى عييت بها لكن بدأت فلم أعجز ولم ألم

« فضحك المأمون وقال والله ما نعتت عليك مكرمة نلتها ولا أحدثه حسن عندها ذكرك ، ولكن هذا شيء اذا عودته نفسك افتقرت ولم تقدر على لم شعئك واصلاح حالك . وزال ما كان في نفسه » .. ويقال أن البطيخ « العبدلاوى » المعروف بمصر منسوب اليه ولعله نسب اليه لأنه كان يستطيعه كما يقول ابن خلكان .

ولعبد الله شعر جزل وتلحين جيد وهو القائل « ينبغي أن يبذل العلم لأهله ولغير أهله ، فان العلم أمنع لنفسه من أن يصير الى غير أهله » ومن كلامه « سمن الكيس ونبل الذكر لا يجتمعان » .
ومحمد بن عبد الله هذا هو الذى أدركه ابن الرومى ومدحه وظن أنه ينفس عليه شعره فقال له :

أتحدنى تجويد ريط نسجته لتبسه ؟ يا للعجب من الأمر
تذكر هداك الله أنى مادح وأنتك مدوح، فلا تعدبى قدرى

ونحسب أنه لم يظلمه ، لأنه تعود أن ينظر فى شعر مادحيه نظره
الناقد المتصعب ، بعث اليه حاجبه محمد بن أبى عون بأنوار من بستانه
وريحان وكب معه :

قد بعثنا بطيب الريحان خير ما قد جنى من البستان
قد تخيرته لخير أمير زانه الله بالتقى واليسان

فوقع على ظهر رقعة :

عون ياعون قد ضللت عن الق صد وعميت عن دقيق المعانى
حشو بيتيك قد وقد فالى كم ؟ قدك الله بالحسام اليمانى (١)

وكان محمد عظيم النفوذ فى الدولة تبيل الخلافة حيث يبيل ،
نصر المستعين فرجحت كفته على أخيه المعتز ودانت له بغداد وما وراءها
وأوشك أن يتفرد بالملك وحده ، ثم ارتاب فى المستعين فتخلى عنه
فلم يجد المستعين بدا من خلع نفسه وتمت الغلبة عليه لأخيه . وينسب
اليه أنه قال لما انهزم محمد بن خالد فى بعض الوقائع بين جنود المستعين
وجنود المعتز : « لا يفلح أحد من العرب الا أن يكون معه نبى
ينصره ! »

ومات محمد فى ذى الحجة من سنة ثلاث وخسين ومائتين أى حين
كان ابن الرومى فى الثانية والثلاثين ، قال ابن الأثير : « فى ليلة أربع
عشرة من ذى الحجة انخسف القمر جميعه ومع انتهاء خسوفه مات محمد
ابن عبد الله بن طاهر بن الحسين وكانت علته التى مات بها قروحا
أصابته فى حلقه ورأسه فذبحته وكانت تدخل فيها القتائل ، ولما اشتد
مرضه كتب الى عماله وأصحابه بتفويض ما اليه من الولاية الى أخيه

عبيد الله بن طاهر . فلما مات تنازع ابنه طاهر وأخوه عبيد الله الصلاة عليه فصلى عليه ابنه وتنازع عبيد الله وأصحاب طاهر حتى سلوا السيوف ورموا الحجارة ومالت العامة مع أصحاب طاهر وعبر عبيد الله إلى داره بالجانب الشرقي فمير مع القواد لاستخلاف محمد فكان أوصاه على عماله . ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع إلى عبيد الله فأمر عبيد الله للذي أتاه بالخلع بخمسين ألف درهم .

وعبيد الله هذا كان شاعراً كإخيه وأبيه وأكثر أفراد أسرته ، وكان يقول البحري ويناجزه ، وهو الذي نظم ديوانا على الحرف في شكر العلاء بن صاعد فعهد العلاء إلى ابن الرومي بالرد عليه ، وهو القائل :

ان الأمير هو الذي يبقى أميراً بعد عزله
ان زال سلطان الولاية لم يزل سلطان فضله

وكان كإخيه محمد في نقد الشعر ولا سيما إذا مدح به غيره ، فهو الذي سمي قصيدة ابن الرومي النونية في مدح اسماعيل بن بليل بدار البطيخ لكثرة ما ذكر فيها من أسماء الفاكهة ، فظرف في النكتة وان لم ينصف في نقد القصيدة .

وقال ابن خلكان في ترجمته : « ... كان عبيد الله المذكور أميراً ولي الشرطة ببغداد خلافة عن أخيه محمد بن عبد الله ثم استقل بها بعد موت أخيه ، وكان سيداً واليه انتهت رئاسة أهله ، وهو آخر من مات منهم رئيساً ، وله من الكتب المصنفة كتاب الاشارة في أخبار الشعراء وكتاب رسالة في السياسة الملوكية وكتاب مراسلات لعبد الله ابن المعتز وكتاب البراعة والفصاحة وغير ذلك ، وحدث عن الزبير بن بكار وغيره ، وكان مترسلاً شاعراً لطيفاً خبسن المقاصد جيد السبك رقيق العاشية ، ومن شعره ما ذكره ابن رشيق في كتاب العمدة في باب الاستطراد فقال : ومن الاستطراد نوع يسمى الإدماج ، ونحو ذلك قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لعبيد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد :

أبى دهرنا اسعافنا فى نفوسنا
واسعفنا فىمن نحب ونكرم
فقلت له نعمالك فىهم أتمها
ودع أمرنا ، أن المهم المقدم

« ... وله ديوان شعر ، وتقتصر من نظمه على هذا القدر ،
وكانت ولادته سنة ثلاث وعشرين ومائتين وكانت وفاته ليلة السبت لاثنتى
عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاثمائة ببغداد ... »

ولعيد الله أخ يسمى سليمان هو الذى هجاء ابن الرومى لأنه
أخلف رجاءه فى رد داره . وكانت بينه وبين عيد الله قطيعة وملاحاة
شديدة ثم اصطلحا فخلد ابن الرومى هذا الصلح فى قصيدة دالية
اقتبسنا منها فيما تقدم بعض آيات :

وانتهت الى عيد الله رئاسة قومه كما قال ابن خلكان ، الا أن
دولتهم فى خراسان ذهبت منهم فى أيامه واستولى عليها فى سنة تسع
وخمسين ومائتين ذلك المخاطر الجرىء يعقوب بن الليث الملقب بالصفار
من الصفر لأنه كان فى صباه تاجراً فقيراً يعمل فى النحاس ، واقتصرت
ولاية عيد الله وسطوة قومه على الشرطة فى بغداد فكان هذا أول
بوادر الزوال فى ذلك البيت المجيد ، ولحق ابن الرومى من ذلك ما لا بد
أن يلحقه منه ، فضلا عن حساباته عليه من عشرات جده ودلائل
شؤمه !

أما أبناء وهب فكانوا أهل كتابة لاشأن لهم بالحرب وقيادة الجيوش
جاء فى الفخرى أنهم كانوا « من قرية من أعمال واسط وكانوا نصارى
ثم أسلموا » .

وعملوا فى الكتابة من مبدأ الدولة الأموية ثم حظوا عند
العباسيين فاشتهر منهم اثنان هما الحسن بن وهب بن سعيد وأخوه
سليمان .

وكان الحسن كاتباً شاعراً ولاء محمد بن عبد الملك الزيات ديوان الرسائل ومدحه أبو تمام فولاه البريد في الموصل وكانت بينه وبين أبي تمام صداقة فلما مات هذا رثاه بقصيدة يقول منها :

فان تراب ذاك القبر يحوى	حييا كان يدعى لى حييا
لييا شاعراً فطنا أديبا	أصيل الرأي فى الجلى أريبا
إذا شاهدته رواك فيما	يسرك رقة منه وطيبا
أبا تمام الطمائي انا	لقينا بعدك العجب العجيبا
فقدنا منك قرما لانرانا	نصيب له مدى الدنيا ضريبا

ولم يزل الحسن مقرباً مجدداً حتى نكبه المتوكل مع ابن الزيات فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين .

وأخوه سليمان كتب للمأمون وهو فى الرابعة عشرة . حدث ابنه عبيد الله عنه أنه قال : « كان مبدأ سعادتى أنى كنت - وأنا صبى - بين يدى محمد بن يزيد وزير المأمون . وكنا جماعة من الصبيان بين يديه إذا راح الليل الى داره بات واحد منا فى دار المأمون بالنوبة ، لهم عشاء يعرض فى الليل وكانت ليلة نوبتى فخرج خادم وقال : ها هنا أحد من نواب محمد بن يزيد ؟ فقال الحجاب له نعم ! ها هو ذا ، فأدخلنى الى المأمون فقال لى . اعمل نسخة فى المعنى الفلانى ، ووسع بين سطورها وأحضرها لأصلح منها ما أريد إصلاحه . قال : فخرجت سريعاً وكتبت الكتاب بغير نسخة وبيضته وأحضرتة اليه فلما رآنى قال : كتبت النسخة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب . فقال : يبيضته ؟ قلت نعم ! فزاد فى نظره الى كالمتعجب منى ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ورفع رأسه الى ، وقال : ما أحسن ما كتبت يا صبى ! ولكن أريد أن تقدم هذا السطر وتؤخر هذا السطر ، وخط عليهما بقلمه ، فأخذت الكتاب وخرجت وجلست ناحية ثم محوت السطرين وعملت ما أراد وجئته بالكتاب ، وكان قد ظن أنى أبطله وأكتب غيره ، فلما قرأه لم يعرف مبدأ المحو فاستحسنه وقال لى : يا

صبي ! لا أدري من أى شيء أعجب ! أمن جودة محوك أم من سرعة فهمك أم من حسن خطك أم من سرعتك ، بارك الله فيك ! فقبلت يده وخرجت ، وكان ذلك أول علو منزلتي وصار المأمون لايجرى مهم الا قال : « هاتوا سليمان بن وهب » .

واستوزره المهتدي « ولقبه الوزير حقا لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها (١) » . استكتبه يوما عشرة كتب مختلفة الى جماعة من العمال ، فلما وضعت الكتب بين يديه قال له وقد قرأها : أحسنت ياسليمان ، ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل ! وذلك أن سليمان كان اذا ولى عاملا أخذ منه مالا معجلا وأجل مالا الى أن يتسلم عمله .. ونكبه الواثق وجبسه فقال وفى هذا الشعر غناء :

نواب الدهر أدتني وانمسا يوعظ الأديب
قد ذقت حلوا وذقت مررا كذاك عيش الفتى ضروب
ما مر بؤس ولا نعيم الأولى فيهما نصيب

ثم خرج من الحبس ليلة مات الواثق ، ولكنه كان مطموعا فيه لكثرة ماله واشتهاره بالرشوة فقبض عليه الموفق ومات فى حبسه سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، وقيل سنة احدى وسبعين ... ولما قبض الموفق عليه وعلى ابنه عبيد الله تذاكر جماعة أنه انما استكتبها ليقف منهما على دخائل موسى بن بعا وودائعه فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما فقال ابن الرومي وكان حاضرا :

ألم تر أن المال يتلف ربه اذا جم آتية وسد طريقه
ومن جاور الماء الغزير مجبه وسد مغيض الماء فهو غريقه (٢)

وسليمان بن وهب هو أبو عبد الله وجد القاسم ، وكلاهما وزير

(١) الافسانى

(٢) الافسانى

للمعتضد وتلقى مدائح ابن الرومي الكثيرة ، ولاسيما القاسم . فانه كان له القسط الأوفر من جميع مدحه .

وكانت أول ولاية عبيد الله للوزارة في عهد المعتضد ثم بويج المعتضد سنة تسع وسبعين ومائتين فأقره على وزارته ولبث فيها الى أن مات سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وكان كاتباً حاذقاً وسائساً حصيفاً وفيه يقول الشاعر :

إذا أبو قاسم جادت يدها لنا لم يحمد الا جودان البحر والمطر
وان مضى رأيه أو حد عزمته تأخر الماضيان، السيف والقدر
وان أضاءت لنا أضواء غرته تضاعل النيران الشمس والقمر
من لم يبت حذراً من حدصولته لم يدر ما المزعجان الخوف والحذر
ينال بالظن ما يعيى العيان به والشاهدان عليه العين والأثر

ويروى أنه لما مات عزم المعتضد على أن يستأصل شأفة أولاده ويستصفي أموالهم، فحضر القاسم ابنه واستعان بيد المعتضدي وكتب خطاباً بألفي دينار فاستوزره المعتضد (١) .

قال صاحب الفخرى « كان القاسم بن عبيد الله من دهاة العالم ومن أفاضل الوزراء، وكان شهماً فاضلابياً محصلاً كريماً مهيباً جباراً، وكان يطعن في دينه ... »

وقال ابن خلكان : « كان الوزير المذكور عظيم الهيئة شديد الاقدام سفاكاً للدماء ، وكان الكبير والصغير منه على وجل لا يعرف أحد من أرباب الأموال الا نقمه . وتوفي سنة احدى وتسعين ومائتين في خلافة المكتفي وعمره نيف وثلاثون سنة ، وفي ذلك يقول عبد الله ابن الحسن بن سعد :

شربنا عشمية مات الوزير سروراً ونشرب في ثالثه
فلا رحم الله تلك العظيمة م ولا بارك الله في وارثه

وابن خلكان قد أخذ هذا الوصف من مروج الذهب للمسعودي،
وفي هذا الكتاب أن القاسم قتل عبد الواحد عم الخليفة المكتفي
والخليفة يجهل ذلك ولا يريد . وكان القاسم يفره به « فوكل به من
يراعى خبره وما يظهر من قوله اذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد
طرب وهو ينشد شعر العتابي :

تلوم على ترك الغنى باهلية طوى الدهر عنها كل طرف وتالد
الى أن يقول :

ذريني تجنني ميتى مطمئنة ولم أتجشم هول تلك الموارد
فان نفيات الأمور مشوبة بمستودعات في بطون الأساود
وان الذي يسمو الى درك الملا ملقى بأسباب العلا والمكايد

فقال له بعض ندمانه وقد أخذ منه الشراب : يا سيدي أين أنت مما
تمثل به يزيد ابن المهلب :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد حياة لنفسي مثل أن أتقدما

فقال له عبد الواحد : مه ! لقد أخطأت الغرض وأخطأ ابن المهلب
وأخطأ قائل هذا البيت وأصاب أبو فرعون التيمي حيث يقول :

وما بي شيء في الوغى غير أنني أخاف على فخارتي أن تحطما
ولو كنت مبتاعا من السوق مثلها لدى الروع ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك الى المكتفي ضحك وقال : قد قلت للقاسم ليس
عمى عبد الواحد ممن تسمو همته اليها .. أطلقوا لعمى كذا وكذا . فلم
يزل القاسم بعبد الواحد حتى قتله « :

وكان القاسم مكروها على خلاف أخيه الحسن الذي كان يحبه
الناس ويحسنون الظن به فلما مات الحسن قال أبو الحارث
النوفلي :

قل لأبي القاسم المرزا قابلك الدهر بالعجائب

مات لك ابن وكان زينا وعاش ذو الشين والمعاب
حياة هذا كموت هذا فليست تخلو من المصائب
قال أبو بكر الصولى النديم : « وقد رأيت أبا العارث هذا وكان
رجلا صدوقا »

ونظم آخر فى هذا المعنى فقال :

قل لأبى القاسم المرزا وناد ياذا المصيبين
مات لك ابن وكان زينا وعاش شين وأى شين
حياة هذا كموت هذا فالطم على الرأس باليسدين

ولكن عبيد الله أباهما كان على رأى يخالف رأى الناس فى ولديه،
فكان يقدم القاسم ويهمل الحسن ، حتى راجعه فى ذلك ابن الرومى
بقصيدة سبقت الاشارة اليها ، ولعله رأى من دهاء ابنه القاسم وغدره
أنه أصلح للحكم فى ذلك الزمان ، وعلم أن الخلق الكريم أداة لاتنفع
فى هذا الغرض فأخر ابنه الحسن عن منزلة أخيه .

والقاسم هذا هو الذى أجمعت كتب التاريخ على أنه قتل ابن الرومى
بالسم لأنه أشفق من فلتات لسانه .

وفاته

يقول ابن خلكان فى تاريخ وفاة ابن الرومى : « توفى يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل أربع وثمانين وقيل ست وسبعين ومائتين ، ودفن فى مقبرة باب البستان » .

فأى هذه التواريخ صحيح ؟

ان الذين جاءوا بعد ابن خلكان تابعوه فى هذا الشك الذى لا مسوغ له اعتماداً على روايته بغير بحث فى شعر الشاعر ولا فى كتب المؤرخين الذين سبقوا ابن خلكان . ولا مسوغ لهذا الشك كما قلنا لأن ابن الرومى أثبت لنا أنه بلغ الستين وعاش الى ما بعد سنة ثمانين اذ يقول :

طربت ولم تطرب على حين مطرب
وكيف التصابى بابن ستين أشيب

فهو لم يمت فى سنة ست وسبعين على التحقيق ، ولا يظن أن الستين هنا تقريرية لضرورة الشعر وأنها قد تكون خمسا وخمسين أو ستا وخمسين ، فانه ذكر الخمس والخمسين فى موضع آخر حيث قال :

كبرت وفى خمس وخمسين مكبر
وثبت فالحاظها المها عنك نفر

وليس من المعروف عنه أنه كان يعيب بنظم ما يريد .

ولو راجع ابن خلكان كتاب مروج الذهب للمسعودى لعرف منه أن ابن الرومى كان حيا بعد ست وسبعين ، فلا محل للقول بموته فى تلك السنة . فقد جاء فى تاريخ المعتضد من ذلك الكتاب أن قطر الندى بنت خمارويه وصلت الى مدينة السلام مع ابن الجصاص فى ذى الحجة (١) سنة احدى وثمانين ومائتين ، ففى ذلك يقول على بن العباس الرومى :

(١) الطبرى يقول ان دخولها بغداد كان لليلتين خلنا من المحرم سنة ٢٨٢

ياسيد العرب الذي زفت له باليمن والبركات سيده المعجم
الى آخر الأبيات ، وهذا فضلا عن مقطوعات أخرى نظمها الشاعر
في العرس الذي احتفل به الخليفة سنة اثنتين وثمانين .
فمن المحقق اذن أن ابن الرومي تجاوز سنة ست وسبعين ، ولم
يبق لنا الا أن نبحت في الستين الأخيرين أي سنتي ثلاث وأربع
وثمانين .

فعدنا تاريخ اليوم والشهر من أولهما وليس عندنا مثل
ذلك من الثانية ، وهذا مما يرجح وفاته في سنة ثلاث وثمانين
دون أربع وثمانين .

ويقوى هذا الترجيح أن مضاهاة التواريخ ثبت لنا أن جمادى
الأخرى من سنة ثلاث وثمانين بدأت يوم جمعة فيكون يوم الأربعاء
قد جاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى في تلك السنة كما جاء في
تاريخ الوفاة .

وقد ضاهينا هذا اليوم على التاريخ الأقرنجي فوجدناه يوافق
الرابع عشر من شهر يونيو ، أي يوافق ابان الصيف في العراق ،
وابن الرومي مات في الصيف كما يؤخذ من قول الناجم ، أنه دخل عليه
في مرضه الذي مات فيه وبين يديه ماء مثلوج ، فيجوز لنا على هذا
أن نجزم بأن أصح التواريخ هو التاريخ الأول وهو « يوم الأربعاء
لليتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين » .

والأقوال بعد ذلك مجمعة على موت ابن الرومي بالسم ، وان الذي
سمه هو القاسم بن عبيد الله أو أبوه .

ولكن الروايات في هذا الخبر لا تخلو من ضعف واضطراب ،
فالرواية التي أوردها ابن خلكان تقول : أن الوزير أبا الحسين القاسم
ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من
هجوه وقلبات لسانه بالفحش فدس عليه ابن فراش فأطعمه خشكنا نجة
مسمومة وهو في مجلسه فلما أكلها أحس بالسم . فقال له الوزير :

الى أين تذهب ؟ فقال الى الموضع الذي بعثنى اليه ، فقال له : سلم
على والدي ! فقال له : ما طريقى على النار ... »

وضعف هذه الرواية ظاهر . لأن عبيد الله بن سليمان مات فى سنة
ثمان وثمانين (١) أى بعد آخر تاريخ فرض لموت ابن الرومى بأربع
سنوات ، فكان حيا عند وفاة الشاعر ، ولا معنى لأن يقول القاسم له
سلم على والدي ووالده بقيد الحياة .

والرواية التى أوردها الشريف المرتضى فى أماليه أصح من هذه
الوجهة لأنها تقول ان عبيد الله كان حيا عند موت ابن الرومى وأنه هو
الذى أوعز بقتله ، ولكنها تقول أيضاً أنه قد اتصل « بعبيد الله بن
سليمان بن وهب أمر على بن العباس بن الرومى وكثرة مجالسته لأبى
الحسين القاسم . فقال لأبى الحسين : قد أحببت أن أرى ابن روميك
هذا . فدخل يوماً عبيد الله الى أبى الحسين وابن الرومى عنده فاستنشه
من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلاً فقال لأبى
الحسين بينه وبينه : ان كان هذا أطول من عقله ، ومن هذه صورته
لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر فى عاقبه ، فأخرجه عنك
فقال : أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه فى دولتنا ويذيعه فى تمكننا ،
فقال يا بنى ! أنى لم أرد باخراجك له طرده . فاستعمل فيه بيت أبى
حية النميرى :

فقلن لها سرا فدينك لا يرح سليما ، والا تقتليه فالملى

فحدث القاسم ابن فراش بما جرى وكان أعدى الناس لابن الرومى
وقد هجاه بأهاج قبيحة ، فقال له الوزير أعزه الله أشار بأن يفتال
حتى يستراح منه وأنا أكفيك ذلك فسمه فى الخشكنانج فمات ...
قال الباقرانى : والناس يقولون ما قتله ابن فراش وانما قتله
عبيد الله .

وضعف هذه الرواية ظاهر كذلك . لأن عبيد الله كان يعرف ابن

الرومي سنوات وقد مدحه ابن الرومي وتردد عليه وتشفع لديه بين ولديه فلا حاجة به الى أن يطلب رؤيته قبل موته ليختبره كما جاء في هذه الرواية . أما الأخبار الأخرى المنثورة في الكتب فهي مزيج مرتبك من هاتين الروايتين .

ويصعب علينا أن نستخلص الحقيقة من الخلف والاضطراب ، فاذا قلنا ان عبيد الله هو القاتل كما نقل الباقطاني فيجوز على هذا الزعم أنه هو الذي قال له : سلم على والدي وليس ولده القاسم ، فينتفى بذلك موضع الضعف في الرواية الأولى ، ولكننا نتفيه بفرض لايجوز الاعتماد عليه .

وإذا أردنا أن نمزج بين الروايتين ونسقط منهما ما يجب اسقاطه فالخلاصة منهما أن عبيد الله خاف هجاء ابن الرومي فأوعز الى ابنه أن يسه لأنه كان أقرب الى مخالطته ومنادمته ، ولا صحة لما بعد ذلك من حديث القاسم وابن الرومي وإنما هو حديث غلبت فيه فكاهة القصة على صدق التاريخ *مراجعة كميتر علوم رسي*

بين هذه الشبهات المتضاربة شبهة تعرض للذهن ولا يجوز اغفالها في هذا المقام وهي تبيح لنا أن نسأل : ألا يحتمل أن يكون حديث السم كله خرافة مخترعة لا أصل لها وأن ابن الرومي مات ميتة طبيعية تشبه أعراضها بأعراض التسمم المعروفة في زمانه ؟ فمن كلام الناجم الذي زاره في مرض وفاته نعلم أنه كان يشكو من الحاح البول فلما لاحظ الناجم ذلك قال :

غداً ينقطع البول ويأتي الهول والغول

وأنه كان قد أعد ماء مثلوجاً لأنه « قلما يموت انسان الا وهو ظمئان » وكان يقول فيما روته الأمالي وهو يشرب الماء ولا يروى :

وأراه زائداً في حرقتي فكان الماء للنار حطب

والظماً والحاح البول عرضان من أعراض « مرض السكر » وهو مرض يحدث لصاحبه التسمم ولاسيما بعد أكل الحلوى والافراط فيها ، وابن الرومي لم تكن تعوزه أسباب الإصابة به لأنه كان منهوماً بالحلوى والأطعمة الثقيلة ، مستسلماً للشهوات مسرفاً في الشراب مع ضعف أعصابه واعتلال جسمه ، فمن الجائز أنه أصيب به فاشتد عليه في شيخوخته وفسده الطيب وفسد الجرح كما جاء في رواية زهر الآداب فأودى ذلك بحياته . ويسهل في هذه الحالة أن يشيع حديث السم ولو اُحِقَّ لما كان يعترى ابن الرومي من كثرة التوهم أو لما كان مشهوراً عن القاسم من سوء الطوية والضراوة بالقدر والفتك بحيث لا يكبر عليه قتل شاعر هجاء ، فإذا كان الموت قد حدث بعد وليمة في بيت القاسم فهذا مما يؤكد التهمة ويصب على الناس أن يعللوه بغير السم والمكيدة ، وإن كان الطعام وحده كافياً للقضاء على رجل جاوز الستين في شيخوخة متهدمة مهتلة طالت إصابته بمرض دفين لم يكن علاجه ميسوراً في أيامه :

هذه شبهة تعرض للذهن بين مختلف الشبهات ، وكل قيمتها عندنا أنها مما لا يصح اغفاله في تحقيق وفاة الشاعر . فهي احتمال كل ما فيه أنه غير مستحيل .



أما أن القاسم كان أهلاً لأن يغدر بابن الرومي وأن ابن الرومي كان عرضة لغضب ذلك الوزير الفاتك المقتال فهو احتمال جسد قريب ، فالقاسم جرىء مستخف بالدماء وابن الرومي قانط سريع الغضب . وليس أيسر من أن ينسى القاسم رجلاً كابن الرومي حين أقبلت الدولة عليه وعلى آبيه وآله وتبدلت مجالسهم الأولى وأخذوا في شأن من الصولة والأبهة غير شأنهم الذي كانوا فيه ، وليس أيسر من أن يطمع ابن الرومي في عمل أو مرتب أو مكافأة تغنيه حين أقبلت الدولة على ممدوحيه وأصحابه بالأمس في أيام التطلع والانتظار ، ومن هنا يبدأ الغضب فاللوم والشاية فالمبالغة في الجفاء فالهجاء من الشاعر فالوعيد

من الأمير الذي ليس بين وعيده وانجازه عائق من خوف ولا لمحاسبة
ضير . وسلسلة القصائد التي تشفع بها ابن الرومي وسأل العسل
واعتذر من أحاديث الوشاة سلسلة طويلة يسهل ترتيبها لولا أنه لا فائدة
من هذا الترتيب : فحسبنا منها أن القاسم سمع الوشائيات التي تحدث بها
جساؤه ومنافسو ابن الرومي والمحققون عليه لهجائه ، فأمن في جفائه
والاعراض عن توسلاته وشفاعاته ، فلم يفلح ابن الرومي في
استعطافه بمثل قوله :

بلغ البغاة على حيث أرادوا والله كائدهم بما قد كادوا
وهو الشهيد على أنى لم أقل بعض الذي قد أبدءوا وأعادوا
وهب السعاة أتوا بحق واضح أين الكرام ؟ أبدلوا أم بادوا

عفر الملوك عن الهجاة مدائح مدحوا نفوسهم بها فأجادوا
ولم يفلح في استعطافه بأضعاف هذا الكلام وهو كثير .

وحسبنا منها أن القاسم كان يتوعد ابن الرومي بالقتل فقال
الشاعر يقابل بين ماوشى به السعاة إليه وما وشىوا به إلى
القاسم .

تحدثت الأملاء أنك حابسي على غير أجرام وأنتك مغتالي
وما قيل أملاء الرجال وقالهم بأسهل من قبلي عليك ومن قالي
ثم يستطرد إلى الترضي والاستعطاف :

أخالك لو عايتني في حفيرتي
بكيت عظامي الباليات وأوصالي

وسرك أن أحييا كما كنت مرة
بيذل القداء الجزل والثنن الغالي

فلا تجفني حيا ولا تبك رمي
كنصرف عنى يسائل أطلالي

وتكرر وعيد القاسم بالقتل فتكرر استعطاف ابن الرومي وتذكيره
بسالف المودة :

أيقنتني من ليس لي منه ناصر
عليه ، وأعوانى عليه مسكارمه
أبى ذاك أن الحكم بينى وبينه
وان علو القدر فى يخصاصه

وقد طالت السعايات وطال التوسل حتى اجتمع من ذلك ديوان
غير صغير فى حجمه ولا فى معانيه وابتكاراته ، وابن الرومي فى كل
ذلك لا يرى من القاسم الا :

غضباً ألح من السحاب الاسحج ورضى أعز من الغراب الاعصم
فضاق صدره وجاهره بالهجاء وأفرغ كل ما فى جعبته من قذع
أخفه :

يامن اذا ما رآته عين والده
بين الرجال اتقاهم بالمعاذير
أقسمت بالله أن لو كنت لى ولداً
لما جعلتك الا فى المطامير

وقال فى آل وهب عامة :

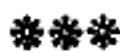
متى آل وهب يرتجى الرى حائم اذا كنتم ملاك سيل المحامد
واتهمهم فى اسلامهم لأنهم كانوا قديما نصارى فأسلموا فقال
فيهم هذه القصيدة :

وأحييتم دين الصليب وقتمم
بتشييد « بيعات » وهدم مساجد

وابطال ما كان الخليفة جعفر تخيره زيا لكل معاند
يشير الى ابطالهم زى أهل الكتاب الذى أمر به الخليفة المتوكل

فى أيام غلوائه ونقته على أصحاب النحل جميعاً وقراء الفلسفة وعلم الكلام .

فليس من المنتظر بعد هذه القطيعة وهذا الهجاء أن يتورع القاسم عن قتل ابن الرومى اذا استطاعه ، وهو مستطيعه كما استطاع قتل عم الخليفة بغير جريرة ودبر لذلك تديره الذى لم يعلم به الخليفة الا بعد موته ، ومتى توعد القاسم بالحبس والقتل فليس هو بالذى يتردد فى انجازه وعيده أو يعجز عنه ، وليس ابن الرومى بالذى يتخذ الحيطة من مكيدة يراد بها وهو يسأل القاسم عطا وينخدع فى ظواهره بغير عناء .



وبقية المرحلة بعد هذا قصيرة :

ذهب ابن الرومى الى داره وهو يتوقع الموت ويتلمس الشفاء و « لامر من الموت ولا من قضائه المحتوم » كما قال وغلط عليه الطبيب أو عز عليه دوائه فكانت أصابة المقدار . فتلقاه الموت آخر الأمر كما تلقته الحياة : نفساً يساورها القلق ويتوفز فيها الحس ولا تزال من خوف الألم فى ألم : اطمأنت الى القضاء المحتوم اطمئنانها وأبت أن تطسّن الى آلامه وصرعائه ، فاستحضرت المديّة الرميضة تحاول أن تتعجل بها الموت اذا اشتدت عليها سكراته وأبطأ نزوله ، ولم تخش من ذلك عقاب الدين وله عليها ذلك السلطان المرهوب ، وللساعة عندها « هول دونه الهول » وبعده حساب عسير لاشك فيه .

تلك خاتمة الترجمة التى استخرجناها من شعر ابن الرومى وعشرنا فيها بتفاصيل ودقائق لا تستخرج من شعر شاعر غيره . فكأنما اقتزعتها من قبضة العدم اقتزاعاً وتشبث بها كما تشبث بالحياة فغلب عليها اهمال التاريخ غلباً . . والفضل فى ذلك لتلك الملكة الفنية التى خلقت لتحس وتعبّر عما تحسه وتسجل تعبيرها فى سجل الفنون ، والتى أرهفتها الأسقام والآلام حتى أصبحت وسواساً يبالغ فى تحريره واستيفائه كما يبالغ كل وسواس فى التوكيد والتقرير .

الفصل الرابع

عبقريّة ابن الرومي

فرغنا في الفصل السابق من حياة ابن الرومي لتكلم في هذا الفصل عن عبقرية وهي زبدة حياته والغرض الذي من أجله عاش ومن أجله يكتب الكاتبون عنه . فما تحرك في حياته حركة الا كان لعبقريته منها نصيب أو في نصيب . حتى لكأنه كان لا يتحرك ولا يتنفس ولا يطعم ولا يشعر الا ليتخذ من ذلك كله مادة حياة ويترجم ما عمل وما علم في قالب الفن ترجمة البر الأمين ، وصفوة القول في هذه العبقرية أنها كانت عبقرية يونانية لولا الافراط والانهماك ، أو أنها كانت عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير .

ولسنا نصفها هذا الوصف لأنه تفسير سهل لهذه العبقرية النادرة ولكن لأنه وصف موجز يدل على أجزائها المختلفة بقليل من الكلمات .

فربما كان القول بأن ابن الرومي رجل حساس متوفز الأعصاب ملبى المزاج نشأ في حضارة زاهية فأجابته وأجابها وأخذت منه وأخذ منها فنبغ على ذلك المثال الفريد لأنه لا بد في الشعر من مثال فريد . ربما كان هذا أقل في العجب من تفسير عبقرية بأنها عبقرية يونانية على اعتبار أنها موروثه عن آباءه اليونان . . . إذ من هم آباؤه اليونان! لاندري أهم من اغريق الجزر أم من اغريق البلاد المعروفة باسم اليونان أم من اغريق آسيا الصغرى التي كانت تدور الحروب فيها وحولها بين المسلمين ودولة الروم . ومن الصعب الذي يحتاج الى التفسير أن تقول أن هؤلاء الاغرية . جميعاً سليقة واحدة وأمة واحدة وعنصر واحد يتحدر منه الرجل ويتنقل الى بيته أخرى وينجب الأبناء في بيته

الجديدة فيجتمع فيهم كل ما تفرق من خصائص العبقرية الفنية التي تسمى الآن بالعبقرية اليونانية .

ثم نحن لانعلم أن الاغريق في قديم عهدهم كانوا عنصراً واحداً ينتمى الى سلالة واحدة ، لأن امتزاج الأنساب بينهم وبين الآسيويين ثابت لاشك فيه واقتباسهم من عقائد الآسيويين وفنونهم ولغاتهم ثابت كذلك أقطع ثبوت . ولا يمكن أن نجزم برأى في وراثه الفطرة الفنية ولا سيما الفطرة في الشعب كله حتى لو عرفنا الأصل الذي تحدر منه ابن الرومي بين أصول اليونان الكثيرة . فقد كان في بلاد اليونان نفسها ألوف من أبناء الشعب اليوناني المحاطين بالبيئة اليونانية في جميع ظواهرها وبواطنها فلم ينبغ منهم في عصر ابن الرومي شاعر مثله ولا نبغ منهم في العصور السابقة التي أزهرت فيها آدابهم وفنونهم شاعر من طرازه في جميع خصائصه وملكاته . فلو أننا نقلنا ابن الرومي من الأدب العربي الى الأدب اليوناني لكان فذاً في آدابهم كما كان فذاً في آدابنا ، ولم تنقض الحاجة الى تفسيره بهذه النقلة من أدب لغته الى أدب أصله ، ولو أننا بحثنا عن مزية أصيلة في الفطرة اليونانية تنتقل مع الدم وتسرى في خلال التكوين لأعياننا أولاً أن نحصر هذه الفطرة ثم أعياننا بعد ذلك أن نحصر هذه المزية .

فنحن لا نفسر عبقرية الشاعر حين نسميها بالعبقرية اليونانية ، ولكننا نصفها في كلمات موجزة وصفا يقربها الى الأذهان ويطبعمها بهذا الطابع المعروف عند المطلعين على الآداب . وما من شك في أن الشاعر الذي تحدر من أصل يوناني أيا كان مقره غير الشاعر الذي تحدر من أصل عربي أيا كان مقره . ولكن التشويق بين هذين الشعارين شيء والقول بأن الشاعر لا يحس هذا الاحساس ولا ينظم هذا النظم الا اذا كان من أبناء اليونان شيء آخر . فحسبنا أننا نعرف ما نريد حين نذكر العبقرية اليونانية ولا نحاول بعد ذلك الخروج الى تحليل الأصول والتعسف في تقسيم خصائص الشعوب .

وانما وصفنا ابن الرومي بهذه الصفة لأنه صاحب عبقرية تعبد

الحياة ، وتحيا مع الطبيعة ، وتلتقط الصور والأشكال ، وتشخص المعاني ، وتقدم الجمال على الخير أو لاتحب الخير الا لأنه لون من ألوان الجمال ، ثم هي تنظر الى الدنيا نظرتها الى المعرض المنصوب للتملى والمتعة لانظرتها الى الحصن المغلق أو الصومعة الموحشة أو غير ذلك من نظرات الأجيال والأديان ، ولا نعرف صفة أجمع لهذه الخصال كلها من صفة العبقرية اليونانية التي اتسمت بها في الجملة فنون الاغريق ، فقد كان الاغريق بجملتهم كما كان ابن الرومي بمفرده ، لو أن الاغريق كانوا يصيبون من كل متعة بمقدار وابن الرومي كان لايعرف في أمر من الأمور مقدارا أقل من الافراط والانهماك .



مركز تحقيقات كميونير علوم إسلامي

عبادة الحياة

ولننظر أولا الى حب الحياة الذي كان اول ما اشتهر به اليونان
وأول ما تستشفه من فن هذه العبقريّة الحية في كل جزء من الأجزاء
وكل حاله من الحالات . فابن الرومي كان من أخلص محبي الحياة
بين محبيها الكثيرين ، أو كان على الأصح الأوضح من مدمني الحياة
بين شرابها غير المدمنين .

وحب الحياة خليفة نادرة وان ظن أنها أعم شيء بين الناس
وعامة الأحياء . فليس الحب - سواء حب حياة أو حب شيء من
أشياءها - سهلا رخيصا يطمع فيه كل من يريد . فمن الناس من يحب
الحياة كأنه مسوق الى حبها ، ومنهم من يحبها كأنه مأجور على عمله ،
ومنهم من يحبها كأنما يحب شيئا غريبا عنه ، ومنهم من يحبها كما
(يحب) الحيوان الأعجم ما هو فيه ، ومنهم من يحبها حب العاشق
الذي يختار معشوقه أو يستوى عنده الحب على القسر والحب على
المشيئة لأنه يريد ما يقسر عليه ويأبى أن يفرض للفراق وجودا أو يتوقع
لهواه تغييرا ، فهو سعيد بأن يحب وأن يسمح له بأن يحب ، وهو يحب
الحياة لأنه حتى لا موت فيه ولا عمل لكل حاسة في نفسه الا أن تحس
وتحيا وتستجد احساسا وحياة ولا تشبع من الاحساس والحياة ،
وهكذا كان ابن الرومي يعبد الحياة عبادة لا يتغنى عليها أجرا غير
ما يتغنيه خلص العابدين ، فكان حيا لا مكان فيه للموت الا الخوف
منه والتفكير فيه .

وانك لتتابع آياته الكثيرة في هذا الغزل أو في هذه الفتنة أو في
هذا السكر فيخيل اليك أنه شارب قبض على الكأس يود أن يجرعها
مرة واحدة من فرط التعطش والخوف عليها لولا أنه يستعذبها
ويستطيبها فيرتشف منها رشفة بعد رشفة ويعود اليها ينظر ما فرغ
منها وما بقي فيها . ويضن ويشتاق ويشعر بمرارة الفقد لفرط
شعوره بحلاوة المتعة ، فما نقصت من تلك الكأس - الحياة - قطرة
الا أحس بطيبها وأحس بالم فقدتها وعرف مقدارها وقاس من الكأس

حيزها وعاد يترشف لينسى فيزداد ذكرا على ذكر وخسارة بعد
خسارة . وأي ذكر ؟ وأي خسارة ؟ وأي ألم ؟ وأي فجيعة ؟

لعمرك ما الحياة لكل حي اذا فقد الشباب سوى عذاب
فقل لبنات دهرى فلتصبنى اذا ولى باسهما الصياب

ومن هذه اللفظة بعد اللفظة تعرف كيف بلغ العشرين وكيف بلغ
الثلاثين وكيف بلغ الخمسين وكيف بلغ الستين في قصائد شتى
ومناسبات عدة لا موضع هنا لاحتصائها ولكنها تدلك اذا راجعتها على
مغالاته بهذه الوديعة وضنه بتسليمها والتفريط فيها وحرصه على
ذخيرتها حرص الشحيح الذي يود أن يزيد في ماله المحسوب وهو
يراه ينقص ساعة بعد ساعة ولمحة بعد لمحة .

وهو اذا ذكر الشباب لم تكن صورة الشباب في ذهنه أنه فترة من
الزمن ، أو ظواهر من المتعة والعافية ، وانما يذكره وهو ينفذ الى
صميمه وباطنه ولبابه الذي لا يحسب بالأيام ولا معول فيه الا على
جدة الشعور وجللاء الدنيا في بشاشتها الأولى كأنها الثمرة المقطوفة
ولها من الشمس صبغة جديدة ومن الطل مسحة غضة ومن العصير
المكنوز وليمة تنادى الشهوة وتفتح اللهوة .

فلا يعنيه أن يدوم له الشباب وانما يعنيه أن تدوم له الدنيا القديمة
وهي في جدة البواكير وفي طرافة المفاجأة التي لاتذال والا فما
يعنيه أن يدوم الشباب والدنيا أمامه مذالة المنظر مجرودة اللون
مسلوبة من تلك المفاجأة في كل نظرة وفي كل لقاء ؟

لو يدوم شباب مدة عمري لم تدم لي بشاشة الأوطار

أجل . هذا هو الشباب في صميمه وباطنه ولبابه . والشباب عنده
أيضا أن يستقبل الحياة لأنها لاتكون جديدة الا بهذا الاستقبال
أطالع ما أمامي بابتهاج ولا أقصو المولى باكتئاب

والشباب عنده دولة يولى صاحبها على هذه الدنيا فتطيعه وتعطيه
من خيراتنا كل ما تملك وكل ما يصبو اليه .

مضى الشباب وان غفا آثار معسده القير
ما كان الا الملك أو دى تاجه وهوى السرير

والشباب عنده هو الحياة ، لافرق بين فقده وفقد الحياة الا أن
فاقد الشباب يعلم بموته وفاقد الحياة لايعلم ولا يأسى على ما فات .

وفقد الشباب الموت يوجد طعمه صراحا ، وطعم الموت بالموت يفقد
والشباب عنده مفقود لاعزاء بعده الا عزاء الموت القريب .

فما لى عزاء عن شبابى علمته سوى أنتى من بعده لا أخلد
وان مشيى واعد بلحاقه وان قال قوم انه يتوعد

والشباب عنده مبكى ولا يوفى البكاء الا بالدم .

لا تلح من يبكى شيبته الا اذا لم يسكها بدم

ومرثى لا ينقطع رثاؤه حتى المات :

سأثنى بألاء الشيبية بأسطا لسانى بها حتى أحين فاقبضا

والخير الأكبر هو أن يحيا الانسان ، والشر الأكبر هو أن يموت ،
ولا سيئة عنده لهذا الخير العميم الا تنقيص ذلك الشر العميم .

سوءة للحياة والموت حتم ولبذل الزمان واسترداده

وكل ما فى الحياة من قلة الغبطة أن الأحياء يموتون :

كيف العزاء وما فى العيش مغتبط ولا اغتباط لأقوام يسوتونا
متى نعش فبلى الأحياء يدركنا وان نمت فبلى الأموات يعفونا

وعلى هذا النحو يقول :

رأيت حياة المرء رهنا بموته وصحته رهنا كذلك بالسقم
اذا طاب لى عيش تنغصت طيه بصدق يقينى أن سيذهب كالخلم
ومن كان فى عيش يراعى زواله فذلك فى بعوس وان كان فى نعم

فالخلود الخلود ! لاشيء دون الخلود يرضيه ويستقر عليه مناه،

والا فبنو الحياة بائسون محرومون لأنهم لا يعيشون الا لأنهم يعيشون
كما يقول المتشائسون الذين لا يحبون هذا الحب ولا يبدون هذه
العبادة ولا يحسون هذا الاحساس . وما تكلمنا بالمجاز حين قلنا
أنه يعبد الحياة لأنه - على ما فى شعره من هذه الأبيات المفرقة فى شتى
القصائد - قد كان يعلم ويقول ان للحياة دينا يحرم ويحلل ويأمر ويطاع
ولو عارض أوامر الدين :

شربت وقد كان الشيباب محلا
لى الراح ما كان الكتاب محرما
وقد طابق الشيب الكتاب فحرت
على فيك تحريمين ان كنت مسلما
وذكر المحرمات فى قصيدة أخرى فقال :

لم تحلل لمن أتاها ولكن
وأتى الآن دونها فهى اليوس
سوءنى ان أطلعت شيبى فيما
وعظ الله والكتاب فضمه
ونهى الشيب بعد ذلك فأسله
لم يعط دونها من الشيب حام
م حرام على كل الحرام
لم أطلع فيه حاكم الحكام
ت وأقدمت أيضا اقدام
ت وأحجبت أيضا احجام

فقد كان يدين فى خواجه بهذا الدين ويستوحى منه شريعة
التحليل والتحرير ، وتهم خواطره بالتبتل فيثبه عنه هذا التبتل الذى
لانسكت دعوته ولا ينقطع رسوله :

أبى لأخى الدنيا التبتل أنها
إذا ما جلاها فى الرياض ربيها
وأخرى إذا ما أينعت ثمراتها
ترأى لنا فى زخرفين كلاهما
لها زينة فى كل حين تزيها
يروق عيون الناظرين رفيها
ورقت حواشيها وطاب خريفها
إذا استوحف الأهواء طال وحيفها

وقد كان همه الأكبر أن يحيا لأنه مهيا النفس للاحساس بالحياة،
ولو كان همه على ما به من الخصاصة واللهفة أن يطلب القوت وينصرف
الى ذرائع العيش لما كان بالملوم .

وتعلق ابن الرومي بالحياة أقل شيء غرابة وأقرب شيء الى طبيعة الأمور . نعم أنه كان سقيم الجسم عسير الرزق مخيب الآمال فكان أخرى لذلك أن يبغض الحياة أو يحبها حب المجبر الملولم ، الا أن المرء لا يحب الحياة على مقدار سعادته بها واستجابة آماله فيها ، كما أن المرء لا يحب المرأة على مقدار ما ينال من حظوتها ويفنم من اقبالها ، بل يحب هذه أو تلك كلما امتلأت بها نفسه واشتغل بها حسه واشتبت بها ذكرياته وامتزجت بها رغباته ، وابن الرومي كان صاحب نفس لا توصف الا بأنها أداة مهياة للنظر والسمع والتلقى عن الوجود من حيثما ألقى اليه بأثر من آثاره وخبر من أخباره دق أو جل وأسعد أو أشقى :

العين لا تنفك من نظر والقلب لا ينفك من وطر
ومن أبهر ما يبهرك في هذه اليقظة الحسية حاسة اللون الذاكية
المتوهجة التي تطالعك من كل وصف يصف به الوجود أو الأزهار
أو الكنوس أو الحلوى أو الخمر أو غير هذه المناظر التي تلامس
البصر بألوانها فانك قل أن ترى في وصف شاعر من شعراء العالم
أجمع نظيرا لهذه الحاسة الشفافة المتوفرة التي تختلج لكل لمحة من
لمحات اللون وكل شعاع من أشعة النور وتفتن الى ألطف ما يديه
للعين من محاسن الامتزاج والمقابلة وأصفى ما يجلوه من دقائق المباينة
والمشاكلة . فيصبح صيحة الوهل حين يرى الوجنة الحمراء الى جانب
الصدغ الأدهج .

ياوجتية اللتين من وهج في صدغيه اللذين من دمج
ما حمرة فيكما أمن خجل ؟ أم صبغة الله؟ أم دم المهج ؟

ويصبح هذه الصيحة كلما رأى هذا المنظر :

ليت شعري أسحر عينيك داء ال قلب أم نار خدك الوهساج
ويقول في مثل هذا المعنى :
تلقى جنى التفاح في وحناته وترى جنى العناب في تطريفه
تمتت منه مسامعي ومرائفي بشير لؤلؤه وماء رصيفه

ويصف قينه فلا يكاد يعرض من مناظرها لغير الألوان التي في
وجهها وثيابها .

وقينه ان منحت رؤيتها
شمس من الحسن في معصرة
في وجنات تحمر من خجن
ويقول في ساقية :

بنت كرم تديرها ذات كرم
حصرم من زبرجد ، بين نع
فوق لبات غادة ترك الخا
تحمل الكأس والعلى فتبدو
وفي قينه :

وشرابنا وردية
حمراء في يد أحمر الو
لكنومها شرر يطير
جنات ملثمة مهير

وفي مثلها :

اذا هي قامت في الشفوف أضاءها
وفي قيان مجتمعات :

لابسات من الشفوف لبوسا
ومن الجسوه المضيء سناه
كالهواء الرقيق أو كالسراب
شعلا تلتهب أي التهاب

وليس أطف من قوله في وصف الأعتاب السود :

سود لهن من الظلماء ألوان

وفي العنب الأبيض :

لم يبق منه وهج الحرور
الاضياء في ظروف نور

أما الخمر فربما كان نصيب عينه من نشوتها أجمل لديه وأحب إليه
من نصيب السكر عند الشارين - إذ تراه لا يصف سكرها كما يصف
ألوانها وألوان أقداحها بل هو يكاد يحسبها لونا شائعا في الفضاء
كما قال :

صفراء تتحل الزجاجة لونها فتخال ذوب التبرحشو أديمها
لظفت فقد كادت تكون مشاعة في الجو مثل شعاعها ونسيمها

وكما قال في موضع آخر :

فضا الدهر عن آسارها جل لونها فغادرها من لونها في غلائل
ثوت تصطلي شمس الظهائر برهة الي أن أفادت لون شمس الأصائل

وهكذا يقول في الرياض التي

توقد فيها كلما تلمع الضحى كواكب يذكو نورها حين تشمس

أو في الشقائق التي هي

ترف لأبصار كحلن بها ليرين كيف عجائب الحكم
شعل تزيدك في النهار سنى وتضىء في محلولك الظلم
أعجب بها شملا على فحم لم تشتعل في ذلك الفحم

وهكذا يقول في كل شيء .

وليست حاسة البصر متفردة بهذه القوة بين حواس ابن الرومي
ولاحظها من الذكاء والتوفز بأوفر من حظ غيرها ، فإن الرجل كان
يسمع ويشم ويدوق ويتلمس كما كان يبصر ويتصور ، فلا تقصر حاسة
من حواسه عن أختها ولا تشكو احداهن كلالا أو فتورا في حصتها
من التمييز والشعور ، وهو القائل في وصف صوت :

صوت ندى وأنفاس مساعدة كأنما نفس منهن أنفاس
يظل سامعه لدنا مفاصله كأنما فترت أوصاله الكاس

وفي وصف مغنية :

مد في شأو صوتها نفس كما
ف كأنفاس عاشقها مسديد
وأرق الدلال والفنج منه
وبراه الشجبا فكاد يبيد
فتراه يموت طورا ويحييا
مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشى وفيه حل من الن
غم مصوغ يختال فيه القصيد

فكأنه قد بلغ في تحسن الصوت مرتبة الموسيقين الذين يمثلون
للأنعام ألوانا وزخارف وأوشية تكاد تنطبع في صفحة الخيال
أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها في قرارة الوجدان . وهو لا يدع
لك أن تشرح أو تستخلص ما نقرأه من كلامه حتى يقول لك بالعبارة
الصريحة أنه يصل بين الرؤية والسمع وترجم بين الحاستين فينقل
الى لغة العيون ما تضتته لغة الأذان . واليك ما يصف به احدي
القيان :

ذات صوت تهزه كيف شاءت مثلما هزت الصبا غصن بان
يتثنى فينفض الطل عنه في تشبه مثل حب الجمان
ذلك الصوت في السامع يحكى ذلك الغصن في العيون الزواني

ثم يستطرد الى تمييز الأنعام فيقول :

جهورى بلا جفاء على السه مع مشوب بغنة الغزلان
فيه به وفيه زير من الن ثم وفيه مثالك ومشان
فتراه يجبل في السمع حينا وتراه يدق في الأحيان
رخمته ورقرقته وضاهى فعلها الأحمران والأسمران
فهو يحكى ترقرق النهى في الر يح لعيني ذى غلة مسديان
يلج السمع مسترا الى القلا ب بلا آذن ولا استئذان

وانك اذا قرأت مدائحه الأخريات فى القيان المحسنات وأهاجيه فى شنطف ودبس وأبى سليمان ومن لايجيد هذه الصناعة من المغنين والمغنيات علمت أن له أذنا واعية تهفو الى السماع الجميل وتنفر من السماع القبيح ، واذا قرأت مبتكراته فى فضائل الأزهار والرياحين ولذة الاستمتاع بروائحها وتمييزه لمراتبها علمت أنه كان يستروح من جمال مشموماتها مثل ما كان يستروح من جمال مناظرها ، واذا قرأت ما قال فى الموز الذى « يدفعه البلع الى القلوب » وفى المشمش الذى اذا رأيت بستانه « فأيقن بحق أنه لطيب » وفى الدجاجة التى تلوح له « سيطرة صفراء دينارية » والتى « يكاد اهابها يتفطر » . أو قرأت مقطوعاته فى القطائف والفظائر واللوزينج والحلوى التى كان يقرظها ويفتن فى تشبيها علمت كيف كان النهم بالمناسظر والطعوم بابا عنده للنهم بالطعام ، بل حسبك من دليل على شراهة حاسة الطعم عنده وقوة التذاذة بها قوله أنه ما كان ليحفل بالموت أو ليجزع من القبر « لولا فواكه أيلول . . . »

وحاسة اللمس فى هذه الأداة الحسية اليقظى كحواس البصر والسمع والشم والطعم فى الدقة والرفاهة والاتباه . فما هو ذا يصف الريح الشمالية :

وشمال باردة النسيم تشفى حرارات القلوب الهيم

.

شاردة فى الليل بالنسيم بين نشير الروض والخشوم

كانها من جنة النعيم

وما هو ذا يصف الليل فى شهر أيلول :

ياحبذا ليل أيلول اذا بردت فيه مضاجعنا والليل سجواء

وجمش القرفيه الجلد فامتلفت من الضجيعين أحشاء فأحشاء

أو هاهو ذا يصف البارد :

الذ من معتق الرساطون وقصوتى قطر بل وكركين
رجرجة من ماء ليل تشرين كروتق السيف اليمان المسنون
باتت على طود نياف العرنين تنفحها الريح برس ممنون
فى شطر كوز صنع طب افنون أخضر فى خضرة جرو اليقطين

ألت يا محرومها بمغبون

فها هنا تلمس معه برد الهواء الذى « يجمش » الجلود والاحشاء
بل ها هنا يخيل اليك أن لبرد الماء فى « شطر الكوز » الأخضر ثقلا
راسباً ينقع الغلة بالرجرجة قبل أن ينقعها بالشراب ، وأن الشاعر
ما اختار « معتق الرساطون » من أسماء الخمر الا لأنها كلمة مجسة
أشبه بالرصاص البارد الذى ترى لاستقراره راحة كراحة الظمئان
بعد الارتواء . ثم تعيد نظرك فى الأبيات فتعجب ماهى الحاسة التى
لم تشترك فى وصف هذه الأبيات ؟؟ أهى حاسة البصر وهى ترى للماء
رونقا كروتق السيف اليمان المسنون ، وترى خضرة الكوز كأنه
جرو اليقطين ، وترى « شطر » الكوز وهو كأنما تطلق من برودة
ما فيه ، وترى صنعة الكوز فاذا هى صنع قادر صناع ؟ أم
هى حاسة السمع وهى تصفى الى رجرجة الماء ونفح الريح ؟ أم هى
حاسة الرى وهو هنا نافع لايقى من الظلمة بقية فى الصدور ؟ أم هى
حاسة الخيال وهو يرتفع بالكوز الى رأس الطود النياف العرنين
ويشبع القلب بالخمر المجلوبة من قطر بل وكركين ؟ فأوجز ما يقال فى
تصوير ابن الرومى لهذا الكوز أنه قد التمه حسا بكل ما فيه من
منظور ومسموع ومشروب ومتخيل وملبوس .

فهذه أياها القارىء نفس تامة الأداة تشمر شعورا شديداً بالحياة
من حيثما واجهتها وتداخل الطبيعة فى كل جزء من أجزائها . فقد عاش
صاحبها يوماً يوماً من عمره ، وناحية ناحية من وجدانه ولابس الحياة
ولايبسته .

ودامت الدنيا له غضة كأنها الجارية الناهد

وليس الأمر كله حسا بالظواهر كذلك الحس الذي لا مذهب له وراء العيون والآذان والآناف ، ولا هو بالدقة التي ترهف الحواس أرهاقا فلا يكون قصاراها الا أن تقابل بين المرئيات والمسموعات أو بين هذه وتلك وبين المشومات والملموسات ... كلا ! فان هذه اليقظة الحسية لتصاحبها يقظة في الشعور الباطني تسرى به في كل مسرى وتنفذ به الى كل منفذ وترجم العواطف والأخلاق كما ترجم المناظر والألحان ، فاذا تتبع « المكر » في خبايا الفكر فهو القائل في ذلك قولاً لا يبقه فيه شاعر :

لك مكر يدب في القوم أخفى من ديب المدام في الأعضاء
أو ديب الملل في مستهام ين الى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء في ظلم العيب ب الى قاصد له بالتسواء
وإذا جال الحزن في نفسه بدت منه على الكون غشاوة ولاح له
كأنما نفخ في الصور ودمر كل عامر .
وأظلمت الدنيا وبأخ ضيائها
نهاراً ، وشمس الصحو حيرى على القمم

وأبدى اكتساباً كل شيء علمته

واضعاف ما أبداه من ذلك ما كنتم

ثم عرف انه هو الحزن الدخيل ، وليست الدنيا البادية للعيان هي التي يراها بتلك النظرة الشاحبة فقال :

كذلك أرى الأشياء اما حقيقة

بدت لي واما حلم مستيقظ حلم

ولم يحلم اليقظان الا وقد أتت

على لبه دهياء هائلة القمم

وقد يتأمل المرأة فإذا هو محيط - فى بيت واحد - بسر « الأنوثة » كله ، وبما فى المرأة من ضعف وقوة ، وبما هنالك من العجب فى أن تكون هذه المخلوقة العجيبة انسانا كالرجل وهى والرجل جسدان مختلفان وطبعان متباينان ، وأن تكون غريبة عنه وهى قرينة له ما عن مقارنتها محيص . وذلك كله ملحوظ فى البيت الذى يقول فيه :

ومن عجائب ما يبنى الرجال به مستضعفات لنا منهن أقران

ولا عجيبة هنا الا العجيبة التى يحسها من أحس سر الأنوثة وسر الرجولة وأحاط بالتوفيق الغريب بين هذين الانسانين حيث يفرقان وحيث يلتقيان ، واستوعب لفرز « الجنس » بيدها واسعة لم يحجبها عن ذلك اللغز أن الجنس أشيع ما يرى فى عالم الانسان والحيوان .

وأما وقد ذكرنا المرأة ولغز الجنس المنوط بها ، فقد يكون من الواجب أن نعرف مقدار ما اشغلت من هذه النفس وحركته من هذا الاحساس ، فإذا كان ابن الرومى عابدا للحياة ، فالمرأة ولا ريب كاهنة هذا المعبد التى تتم على يديها مراسم العبادة ، ومحورها الذى تلتف حوله الشعائر والقرايين ، وإذا كان ابن الرومى نفساً تيقظت فيها أداة الحس والشعور فى المرأة ولا ريب تلتقى أشد مغريات الحس وأعنى بواعث الشعور . ولا بد من شأن لهذه « المخلوقة » فى حياة هذا الشاعر . فما هو هذا الشأن ؟ وما حقيقته ؟ وما مداه ؟ وهل هو شأن (المرأة) أو شأن (امرأة) خاصة أو أكثر من امرأة خاصة ؟ وهل عشق ؟ وهل أحب ؟ وهل عرف ما هو الحب الذى نعنى به شيئاً أكثر من العشق وأكثر من الغرام ؟؟

فأما هذا الشأن فقد كان ولا يعقل الا أن يكون ، وما فرغ ابن الرومى قط من شأن النساء ولا كره الشيخوخة الا لأنها تصده عن المرأة أو تصد المرأة عنه ، فلأجلها قبل كل شىء كان يخاف غائلة السن ولأجلها قبل كل شىء كان يتمنى خلود الشباب :

أخشى كسادى على النساء إذا أسهنت والسن جملة الخبل
وانتى من كسادهن على سنى لأولى بالخوف والوجل
ولأجلها كذلك تمنى أن تنعكس أيام العمر فيتقدم فيه الهرم
ويتأخر فيه الشباب :

فالعيش طعمان عند ذائقه مر التوالى مستعذب الأول
من غسل تارة ومن صبر لهفى لتأخير عقبة المسئل
لو أنها أخرت لطاب بها العيش ش وان جاوزت شفا الأجل

وفى وسعك أن تقول انه عرف « العشق » الذى لا يعرفه الا من
نشبت علاقته بامرأة واحدة دون سائر النساء ، فوصف ما وجدته من
هذا العشق فى غير موضع وقال من ذلك :

قد كنت أبكى لأصحاب الهوى زمناً
فهل لى الآن من باك فيسكىنى
أهكذا يجند العشاق كلهم ؟
يا رحمتا للمحين المساكين !

وقال :

العب داء عيساء لا دواء له
فضل فيه الأطباء النحارير
قد كنت أحب أن العاشقين غلوا
فى وصفه فاذا فى القوم تقصير
سقىا لأيام لم أخبره تجربة
الا بما وصفت عنه الأخابير

بل جرب الغيرة فقال فى تهوينها على العاشق مالا يقوله الا

غيسور :

إذا خلعة خاتك بالغيب عهدها
فلا تجعلن الحزن ضربة لازب

وهب أنها الدنيا التي أنت موقن
بفسرقتها إذ أنت في شأن لاعب

فهو قد عشق وغار وكابد لوعة الرغبة التي يحصرها العشق في
انسانة واحدة بين سائر النساء وفارق وتاجى وذكر وقال من ذلك في
معشوقة فارقها على أمل اللقاء :

أعلى المهدي أنت أم حلت عنه
جعل الله قبل ذلك ممساتي
لست أنسى امتناع صبرك للتوديع
وبالبين مؤذن بشتات

الا أن هذا كله عشق وليس فيه حب . وقد يكفي الاحساس
والعاطفة لاضرام العشق واغرام المرء بامرأة يشتهيها ويفار عليها
ويشعر نحوها بذلك الشعور العطري الذي ركب في عمارة الرجال
وعامة النساء . أما الحب الذي نعنيه فلا يكفي فيه الاحساس والعاطفة
ولا بد فيه من « الروحانية » أو الزهد والتضحية ونكران النفس ومن
ثم نكران الحياة ويقترن ذلك بالتصوف والارتفاع بالمرأة الى ما فوق
مرتبها في الطبيعة وفوق حظها من محاسن الأجسام . إذ الطبيعة
لا تعرف في المرأة الا أنها أتى وكذلك العاشق ، أما المحب فانه قادر
على أن يفيض من روحانيته نوراً على من يحب وأن يحفها بهالة علوية
قد يهابها وقد يخشع لها في بعض المواقف خشوع المتسكين . ولم
يكن لابن الرومي نصيب من هذه الروحانية ولا من ذلك النور ، فما
كانت المرأة في حبه أو عاطفته الا أتى طبيعية ومخلوقاً جميلاً فيه
متعة للعين ومسرة للقلوب ، ونساؤه كلهن نساء المتعة والمررة
على نسق واحد يلخصه مثل هذا البيت :

حوراء في وطفقنواء في ذلف لفاء في هيف عجزاء في قب

وهو في هذا أيضاً وفي « للبقرية اليونانية » وللصورة التي
رسمها اليونان لجمال « فينوس » فقد كان اليونان طبيعيين في الجمال

وطبيين في العشق ولم يكونوا روحانيين في شعر ولا فلسفة ولا تصوير . وخلاصة الحب عندهم أنه نسخة من حب «خلوى ودفنيس» في غابة حفلت بالألوف من نسخ هذا الحب بين أزواج الطير والحيوان، فاذا تنزه فهو حب عصفور لعصفورة أو ظبي لظبية أو حيوان جميل لحيوانة جميلة ، يخلو من الكثافة ويزدان بالخفة والرشاقة ، ولكنه لا يخلو من « الجسدانية » ولا من « الطبيعية » ولا يفارق الأرض ليصعد الى سماء « الروحانية » والنور . واذا تنزه بعد ذلك فهو صداقة حامية يشترك فيها الفكر والذوق والغريزة ، ولا ينفسح فيها مجال كبير للنزاهة والتقدس .



مركز بحوث ودراسات في الدراسات الإسلامية

حب الطبيعة

ونتقا . . . ذلك الى الخاصة الأخرى من خواص الطبيعة اليونانية
وهي حب الطبيعة .

فقد وصف الطبيعة شعراء كثيرون ولم يمنحها الحياة الا قليلون!
أما الذين منحوها حياة نجها وتحبنا ونعطف عليها وتعطف علينا
وتناجينا وتناجينا فأقل من هؤلاء القليلين .

وذلك أن الشاعر قد يؤخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها وأخضرها
ويفتن بما فيها من الزراكش والأفانين ثم لا يعدو بذلك أن يمدح شيئا
قد يجد مثله في ألوان الحلى وأصباغ الطنافس ونقوش الجدران ،
أو نحن نخطو وراء ذلك خطوة فنقول أنه لا يعدو بذلك أن ينظر الى
دمية فاتنة يروقه منها وجه مليح وقوام مشوق وحسن مفاض على
الجوارح والأوصال ، ولكنه لا يتطلع منها الى عطف ولا يفتش فيها
عن طوية .

مراجعة كميترولوجى

وقد يستريح الشاعر الى الطبيعة لأنها ظل ظليل ، ومهاد وثير ،
وهواء بليل وراحة من عناء البيت وضجة المدينة ، فلا يعدو بذلك أن
يستريح اليها كما تستريح كل بنية حية الى الماء والظل والهواء -
كذلك تهجع النسائمة فى المروج ، وكذلك تهتف الضفدع فى الليلة
القمراء .

وقد يمنحها الشاعر حياة من عنده أو من عند الخرافات والأساطير
فإذا هى حياة بيضة لاتصلح للتعاطف والمناجاة ولا يصدر عنها الا
الفرع والأحجام ولا تقوم بينه وبينها الا الحواجز والعداوات .

أما الطبيعة التى تحب وتناجى وينم التعاطف بين الشاعر وبينها
عن ثروة غزيرة من الشعر والشعور فهى طبيعة الحور الخافقات فى
الهواء ، والعرائس السابحات بين الأمواج ، والمذارى الراقصات
فى عيد الربيع ، والجنيات الهامسات فى رفرقة النسيم ورقرة الغدير
وحنين الصدى وحفيف الأغصان ، أو ان شئت فقل انها هى الطبيعة

العامة بما فى البروق والرعود والسموات والأعماق من بطولة وعظمة،
ونضال جياش بالغضب الظافر ، والسطوة المجيدة ، والخطر المشير،
والشجاعة التى تقدم ولا تحجم وترجو ولا تخاف ، أو ان شئت
فقل انها هى الطبيعة التى تبث الاغراء فى كل شىء حتى ليحذر الملاح
لجة البحار مخافة أن تستهويه بنات الماء من وراء زرقاة الأمواج ،
فيثب الى أحضانها وكأنما يثب الى أحضان عروس طال بها عهد
الغياب :

فعلى هذا النحو تنجلي الطبيعة للعبقرية التى تحبها وتمنحها
الحياة . فليست هى دمية ولا حلية ، وليست هى مروحة للهواء ولا
مجلسا للمنادمة ، ولكنها قلب نابض وحياة شاملة ونفس تخف اليها
وتأنس بها و « ذات » تساجلها العطف وتجاذبها المودة ، ثم هى عمار
لا خواء فيه وأسرة لا تبرح منها فى حضرة قريب يناجيك وتناجيه ويعاطيك
الاخلاص وتعاطيه .

وقد كان ابن الرومى يحب الطبيعة على هذا النحو ويستروح
محاسنها نفساً تصبى الناظر اليها وتبرج له « تبرج الأثى تصدت
للذكر » ويرى وراء هذه الزينة التى تبدو على وجهها عاطفة من عواطف
العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالمعاطفة الانسانية
الشاعرة :

فهى فى زينة البغى ولكن هى فى عفة الحصان الرزان

ولا يقول هذا القول على سبيل الاستعارة اللفظية ولكنه يقوله
ويصف الطبيعة الوصف الذى يقتضيه ذلك الشعور ويمليه ذلك
التصور، فيشف وصفه لها عن شغف الحى بالحى وشوق الصاحب
الى الصاحب ، وتسمع من تشبيهه بها رنة طرب أو شجو لا تخرج
الا من نفس مفعمة بأصداء الطبيعة قد نفذت الى طويتها وشاركتها
فيما تتخيله لها من حزن وسرور فهو يعيا مع الشمس الغاربة حين
تضع على الأرض « خذا أضرع » من دهشة الفراق ، وهو يعيا مع

النوار حين تخضل بالدمع عيونه وتهبط مع الليل شجونه ، وهو
يحيا مع الذباب المفرد والطيير الساجع في ساعة الغروب التي يمتزج
فيها الحنان الذائب بالشوق الخفيض ، وهو ينتظم ذلك كله في
أنشودة واحدة لم تدع مزيداً لفن اللون والحركة ولا مزيداً لوحى
الخيال والليقة :

إذا رقت شمس الأصيل ونهضت	على الأفق الغربي ورسا مذعذعا
وودعت الدنيا لتقضى نحبها	وشول باقى عمرها فتشمعشعا
ولاحظت النوار وهى مريضة	وقد وضعت خدا الى الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف	توجع من أوصابه ما توجعا
وظللت عيون النور تخضل بالندى	كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينها صورا اليها روانيا	ويلحظن الحاظا من الشجوخشعا
وبين اغضساء الفراق عليهما	كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة	من الشمس فاخضرا خضرا رامثعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان فله	وغنى مغنى الطير فيه فسجعا
وغرد ربيع الذئاب خلاله	كما حثحث النشوان صنعجا مشرعا

وهو يعرف الربيع حياة تتحرك فى الوحش والطيير كما يعرفه
زخرفا تتحلى به الأرض والسماء . لأنه وليمة الحياة للأحياء :

تجد الوحوش به كفايتها	والطيير فيه عتيدة الطعم
فظباؤه تضحى بمنتطح	وحمامه يضحى بمختصم
ان الربيع لكالثياب وان العي	ف يكسسه لكالهرم

وهو يتشى مع الطيور والأغصان اذا بعثت الشمال بتحيتها و

هبت سعيرا فناجى الفصن صاحبه موسوسا وتنادى الطير اعلانا
ورق تغنى على خضر مهسدلة تسو بها وتشم الأرض أحيانا
تغال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزه عطفيه نشوانا

وهو يستمع الى الروضة فى بكائها وشدوها اذ هى :

يتداعى بها حمائم شتى كالبواكى وكالقيان الشوادي
من مشان مستعات قران وفرداء مفجعات وحاد
تغنى القسيران منهن في الأيك وتبكي الفرادشجو الفراد

وهو يفهم الشعر الذي لا ينشده صاحبه للأجر والصنعة :

لكن كما راقى القمري جنته فظل يتبع تفريدا بتفريد

وهو يحسن الاصفاء الى سر الحياة الكامنة في هذه الأرض
وينصت الى ما يبوح به الربيع في نجواها اذا

لم يبق للأرض من سر تكاته الا وقد أظهرته بعد اخفاء
أبدت طرائف وشى من زواهرها حمرا وصفرا وكل نبت غرباء

وهو يشتهي جمال الطبيعة من كل جارحة في نفسه اذا بدت
للعين :

برياض تخايل الأرض فيها ريح خيلاء الفتاة في الأبراد
منظر معجب ، تحية ألف ريحها طيب الأولاد

وقد بلغ من قوة هذا الاحساس فيه أن تجاوز حيز البديهة الى
حيز التفكير ، كأنه التفت الى نفسه فأدرك من طول المراقبة وتواتر
الاحساس المتشابه علة أنسه بالطبيعة ، وعلم أنه أنس مستمد مما
يفيضة عليها من دلائل الحياة ، فقال في آيات يصف بها الأغصان :

تلاعبها أيدي الرياح اذا جسرت

فتسمو ، وتحنو تارة فتتكس

اذا ما أعارتها الصبا حركاتها

أفادت بها أنس الحياة فتؤنس

ولما شغف بالشباب ذلك الشغف المتوهج لم ينس معه الشغف
بالطبيعة ولم يفرق بين ربيعه وزبيحها وبين ثمراته وثمراتها : بل خلج
من شبابه عليها وخلج من شبابها عليه ومزج بينهما مزجا لا تخاله

يكون الا في مهجة واحدة وجسد واحد . فاذا تذكر الشباب فاسمع
ما هذا الذي يذكره بالشباب :

يذكرني الشباب صدى طويل
وشبح الغائيات عليه الا

يذكرني الشباب جنان عدن
تفبيء ظلها نفحات ريح

اذا ماست ذوائبها تداعت
يذكرني الشباب رياض حزن

اذا شمس الأصائل عارضتها
وألت جنح مغربها شعاعا

يذكرني الشباب سراقه نهي
قرته مزنة بسكر وأضحى

على حصباء في أرض هجر
له حيك اذا اطردت عليه

تذكرني الشباب صبا بليل
أتت من بعدما انسجت مليا

وقد عبت بها ريا الخزامى
يذكرني الشباب وميض برق

فيا أسفا ويا جزعا عليه
أفجع بالشباب ولا أعزى ؟

تفرقنا على كره جميعا
وكانت ايكتي ليد اجتناء

أيا برد الشباب لكنت عندي
يلت على الزمان وكل برد

وعز على أن تبلى وأبقى

الى برد الثنايا والرؤاب
على ابن شيبه جون الغراب

على جنبات انهار عذاب
تهز متون أغصان رطاب

بواكي المطير فيها باقتحاب
ترنم بينها زرق الذباب

وقد كربت تواري بالحجاب
مرضا مثل الحافظ الكعاب

نمير الماء مطرد الحجاب
ترقرقه الصبا مثل السراب

كان تراها ذفر الملاط
قرأت بها سطوراً في كتاب

رئيس المس لا غبة الركاب
على زهر الربا كل انسحاب

كربا المسك ضوع باتهباب
وسجع حماسة وحنين ناب

ويا حزنا الى يوم الحساب
لقد غفل المعزى عن مصابي

ولم يك عن قلى طول اصطحاب
فعدت بعده ليد احتطاب

من الحسنات والقسم الرغاب
فبين بلى وبين يد استلاب

ولكن الحوادث لا تحابى

لبستك يرهه لبس ابتسـال على علمى بفضلك فى الثياب
ولو ملكت صونك فاعلمنه لصنتك فى الحرير من العياب

وهذا حنين الى الطبيعة وشبابها وحنين الى العمر وشبابه لاتدرى
أين يتدىء أحدهما وأين ينتهى الآخر . فهما حنين واحد وشباب واحد
وفاكهة واحدة وروضة واحدة . وانك لتذوق الفاكهة فتذوق فيها طعم
الشفاه والخدود وتجد فيها مس الصفائر والنهود وتجمع فيها بين
وليمة الحب ووليمة البستان بعد أن تسمعه يقول :

متع القلبى من جنى غصنك اللذ ن يمتعك منه قبل انخضاده
من عناقيده وتفاحه الغض ورمانه ومن فرصاده
أو بعد أن تسمعه يقول :

أجنت لك الوجد أعصان وكشبان فيهن نوعان : تفاح ورمان
وفوق ذينك أعصاب مهسدة سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات سارى الطل يضره واقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شىء طيب حسن فهن فاكهة شتى وريحان

فلا افتراق عنده بين الطبيعة والشعور ، يكاد لاينظر الى العنان
الا تذكر الروضة والبستان ، أو يكاد لاينظر الى الروضة والبستان
الا بنظرة تثير الرغبة وتوقظ الأشجان .

ولو كان للطبيعة فى بلاد العراق ظواهر أخرى غير هذه الظواهر
التي توزع وصفها فى قصائده ومقطوعاته لقرأت له فى تلك الظواهر
الأخرى وصفا على هذا الأسلوب يحييها ويناجيها ويلهها القبول
والعمل ويزودها بالسير والأحاديث ، كما ترى فى الأساطير المروية
عن بلاد الرعود والبراكين والمغاور والآجام لاتنسا لا نصب هذه
القريحة قادرة على أن تتخيل شيئا من الأشياء بغير حياة ، ولا على أن
تفصل بين عالم الطبيعة وعالم الحياة فى أى البلاد

التشخيص والتصوير

والقريحة المطبوعة على اعطاء الحياة مطبوعة كذلك على اعطاء الشخص ، أو على ملكة التشخيص .

ولكننا نحب أن نستثنى هنا ذلك التشخيص الذي تلجىء اليه ضرورة اللغة وتسهيل التعبير مع علم المتكلم بما فى كلامه من المجاز والمفارقة . فقد يتكلم الشاعر أو غير الشاعر عن الشمس بضمير المؤنث ، وعن القمر بضمير المذكر ، وقد يسند اليهما فعال الأحياء العاقلة وغير العاقلة ، ولكنه بعد تعبير لفظى ليس وراءه تصور وليس وراء التصور - ان كان - أثر من الشعور ، ولا سيما الشعور المتبادل بين طرفين متعاطفين .

وانما المقصود بالتشخيص تلك الملكة الخالقة التى تستمد قدرتها من سعة الشعور حيناً أو من دقة الشعور حيناً آخر ، فالشعور الواسع هو الذى يستوعب كل ما فى الأرضين والسموات من الأجسام والمعانى ، فاذا هى حية كلها لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة ، والشعور الدقيق هو الذى يتأثر بكل مؤثر ، ويهتز لكل هامة ولاهامة فيستبعد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير وتوقفه تلك اليقظة وهى هامة جامدة صفر من العاطفة خلو من الإرادة ، وهذا الشعور الدقيق هو شعور ابن الرومى بكل ما حوله ، وسبب ما عنده من قدرة الأحياء وقدرة التشخيص : قدرة التشخيص التى هى ملكة مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين ، وليست قدرة التشخيص التى هى حيلة لفظية تلجئنا إليها لوازم التعبير ويوحىها إلينا تداعى الفكر وتسلسل الخواطر .

خذ مثلاً للمعانى « التشخيصية » التى يأتى بها اللفظ والمعانى التشخيصية التى يأتى بها الشعور من أبيات ابن الرومى فى مشهد الشمس ساعة الغروب .

فقد ينظر بعض الشعراء الى الشمس فى هذا المشهد فيجعلها حسناء

مفارقة ، ومادامت حناء مفارقة فهي معشوقة أو عاشقة ، وما دامت معشوقة أو عاشقة فهناك قصة غرام تدور على هذا المعنى الى حيث ينتهي بها المطاف ، وكل هذا لأن الشمس مؤنثة في اللغة العربية وحساء في تشبيهات الشعراء ! فهي قصة مولدة من لفظ عرضي قد يكون لها نصيب من الشعور ، وقد لا يكون لها أقل نصيب ، أما الشيء الذي لا يمكن أن يخلقه اللفظ ولا التشبيهات ولا تسلسل الخواطر فهو الشعور العميق بوحشة الغروب وما ينعكس من ذلك الشعور العميق على الشمس من ترنيق وضراعة وانكسار ونظر يأس كنظر المريض الى العواد ووجوم شائع بينها وبين عيون النور التي تغورق على الأغصان لتدمع وتلحظ ألقاظا خشعا من الشجوة والأغصاء فلا بد اذن من شعور يسبق التشخيص ويلقى عليه ظله ويثبت فيه من حياته ، وأيا كان لفظ الشمس من التأنيث أو التذكير وأيا كان موقعها من تشبيهات الشعراء ، فإن هذا الشعور لا يتغير ولا يضعف ولا يزول .

هذا الشعور هو الذي يسبق كل تشخيص لابن الرومي أو كل « صورة مشخصة » في شعره ، سواء تكلم عن بلد أو يوم أو خليفة أو فترة من العمر أو معنى محسوس أو غير محسوس .

فأنت تستخرج من بغداد « صورة مشخصة » حين يقول عنها :
بلد صحبت به الشيبية والصباء ولبست ثوب العمر وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيت وعليه أغصان الشباب تميد
وأنت ترى للمهرجان والنيروز « شخصين » يشبان ويشيان
ويدنان بالأديان ويحدوهما الشوق وتلوح عليهما الهية حين يلوحان
لك في قوله :

شباب المهرجان لهوك فيه	فندا من غطارف الشبان
وكذاك النيروز رد عليه	بك شرخ الشباب ذي الريمان
ولذكرت ذا وذاك جميعا	منن الملك في بني ساسان
عمرا برهة على دين كسرا	وهما الآن بعده مسلمان

فعلی منظرهما هبة انه
واحباك حب مولى شكور
كل يوم وليلة فرط شوق
فبهذا وذلك حتى يجيئا
لو أصابا الى الغلاط سيلا
أو يخلی عنان ذاك وهذا
ولوذا اذا هما بك حلا
وعزیز عليهما أن يكونا
لو أطاقا هناك للدهر قسرا
ز ونور الاسلام والايمان
فهما وامقان ، بل عاشقان
ونزاع اليك يظلمان
غلة فوق غلة الظمئان
غالطا الحاسبين في الحبان
سبقا موقتيهما في الزمان
لو يقيمان ثم لا يرحلان
عنك لولا الازعاج يرتحلان
حرنا سائقه أي حيران

ولهنوات النفوس « شخوص » عنده يخاطبها وتخاطبه ويعتب
عليها وتعتب عليه وتسمع بينه وبينها هذا الحوار :

ليتني ما هتكت عنك مترا
قلن : لولا انكشافنا ما تجلت
قلت : أعجب بكن من كاشفات
قد أفدتني مع الخبر بالصا
قلن : أعجب بيهتد يمني
فتويتن تحت ذاك الغطاء
عنك ظلماء شبهة قماء
كاشفات غواشي الظلماء
حب أن رب كاسف مستضاء
أنه لم يزل على عيياء

الى آخر ذلك الحوار .

والشباب روح أو ملك يعيش كما يعيش الرجل وزميله من الجان
في بعض الأساطير .

أخى وألفى وتربى كان مولدنا
والموت كائن حتى يعالجه القتل أو يترك الى الهرم فيموت :
أمت وديك عنينة فمه
دعه على رسله يمت هسرما

والعوسج شرير « ملعون » يهجي ويسخر منه ويقال فيه :

عذرنا النخل في ابداء شوك
فما للعوسج الملعون أبدى
يدود به الأنامل عن جناه
لنا شوكا بلا ثمر نراه

تراه ظن فيه جنى كريما فأظهر عدة تحمى حماءه ١٩
فلا يتسلحن لدفع كف ، كفاه لؤم مجزاء كفاه ١

وإذا كانت هذه قدرة ابن الرومي على خلق الأشكال للمعاني
المجردة أو خلق الرموز لبعض الأشكال المحسوسة فإن القدرة التي
سبق بها الشعراء في الأمم كافة بغير شك ولا تردد هي قدرته البالغة
على نقل الأشكال الموجودة كما تقع في الحس والشعور والخيال . أو
هي قدرته على التصوير المطبوع ، لأن هذا في الحقيقة هو فن
التصوير كما يتاح لأنبغ نوابغ المصورين . فلست أعرف فيمن قرأت لهم
من مشاركة ومغاربة أو يونان أقدمين وأوربيين محدثين شاعراً واحداً
له من الملكة المطبوعة في التصوير مثل ما كان لابن الرومي في كل شعر
قاله مشبهاً أو حاكياً على قصد منه أو على غير قصد ، لأنه مصور
بالفطرة المهيأة لهذه الصناعة فلا ينظر ولا يلتفت الا تنبهت فيه الملكة
الحاضرة أبداً وأخذت في العمل موفقةً مجيدةً سواء ظهر عليها أو سها
عنها كما قد يسهو المصور وهو عامل في بعض الأحيان .

انما التصوير لون وشكل ومعنى وحركة ، وقد تكون الحركة
أصعب مافيه لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ولا يتوقف على ما
يراه بعينه ويدركه بظاهر حسه . ولكن تمثيل هذه الحركة المستصعبة
كان أسهل شيء على ابن الرومي وأطوعه وأجراه مع ما يريد من جد
أو هزل وحزن أو سرور ، وقد مر بك وصفه لمشيته التي «يغربل فيها»
ولالأحذب الذي شبهه بالمصفوع وهو يتجمع ويتهاى للصفع ويخشاه !
فأضف اليه هنا وصفه لحركة الكتان في حقله :

وجلس من الكتان أخضر ناعم توسنه داني الرباب مطير
إذا درجت فيه الشمال تتابعت ذوائبه حتى يقال غدير

ووصفه لحركة الرقاق في يد الصانع :

ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ووصفه للقمر فى سرمانه :

وأسفر القمر السارى فصفحته ربا لها من صفاء الجوالاء

ووصفه لحركة الرى فى النبات :

ويحور الخريف وهو ربيع وتصور المياه فى العيدان

ووصفه للحركة البطيئة فى سير السحاب:

سحاب قيست بالبلاد فألقت

غطاء على أغوارها ونجودها

حدثها النعامى مثقلات ، فأقبلت

تهادى ، رويدا ، سيرها كركودها

فأنك تقرأ هذه الآيات وأمثالها مما سبق أو لم يسبق فى هذا الكتاب فيروعك منها - أول ما يروع - صدق تمثيلها للحركة فى الجملة والتفصيل . ليس أصدق من وصف ذوائب الكتان بالغدير وهى تتلاحق مع الريح ، ثم يتم تصوير الحركة هنا تصوير اللون الأخضر والملمس الناعم والغيم الذى يسرى على جلس الكتان مع الليل فى وقت الوسن ويسف بحواشيه المطيرة الى الأرض البليل . فالصورة كاملة لاتنقص منها سمة من سمات المكان والزمان والحركة ولا حظ من حفظ العين واللمس والخيال ، ومثلها صورة الرقاق وهى تكبر فى لمح البصر كما « تنداح » الدوائر فى صفحة الماء ، ومثلها صورة الليلة القمراء وهى كاملة متحركة من بداية الأسفار الى السريان الى الصفحة الربا التى تطالعك بالامتلاء والنداوة الى الصفاء المحيط بكل هذا فاللألاء المشرق على ذلك الصفاء . ليس فى البيت كلمة واحدة الا لها مكانها من الصورة ونصيبها من التلوين والتمثيل والتبيين ، ومثل ذلك المياه التى تصور فى العيدان كأن لها وجيا أو ديبيا يتبعه الناظر بعينه ويصنفى اليه بأذنه ، والسحاب التى لاتفرق بين حركتها وركودها لأنها أطبقت على أغوار البلاد ونجودها ، وهات ما شئت من صور له فى وصف الانسان والحيوان والنبات والجماد فانك

لتجدن فيها كلها مثل هذا الصدق ومثل هذه الحركة ومثل هذه الحياة وقد يكون قولنا هذا من تحصيل الحاصل بعدما سلف من بيان احساسه باللون ويقظته لكل ما يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يدركه من ظواهر الأجسام وبواطن العواطف والأخلاق ، ولكنه تحصيل حاصل غير مألوف ولا مستغن عن بعض الابانة وبعض التفصيل .

ولو كان ابن الرومي مصوراً لما استغرب منه هذا الولع بالألوان والظلال والأشكال والحركات . لأنه كان لا يستطيع اذن أن يشرع في عمله قبل أن يلتفت الى عناصر الصورة المحسوسة ويجعلها في روعه ويهيئها للظهور على قرطاسه . أما الشاعر فلا ضرورة في نظم الشعر تقصره على أن يلتفت هذا الالتفات الدقيق الى كل لمحة من لمحات اللون والظل وكل صغيرة من صفات الشكل والحركة . فاذا التفت الى ذلك في عامة شعره بغير ضرورة قاسرة ولا طريقة مسبوقة فانما يلتفت اليه لأنه مطبوع على التصوير ينظر الى حوله فينتطح ما يراه في حسه وان دق وخفى - كما ينطح النور البعيد الضئيل في مصور الفلكي المحكم التركيب .

وبودنا أن ثبت الآن قصيدة « المهرجان » النونية برمتها لأنها نموذج واف لشعر ابن الرومي في هذا الباب، ولكننا نجتزئ منها بما يأتي وفيه الدلالة الكافية على هذه الملكة النادرة قال :

ين الله طلعة المهرجان كل يسن على الأمير الهجان

.....

مهرجان كأنما صورته كيف شاءت مخيرات الأمانى

.....

وأدبل السرور واللهو فيه من جميع الهموم والأحزان

لبست فيه حفل زيتها الدى نيا وزاقت فى منظر فتان

وأذالت من وشيها كل برد كان قدما تصونه فى الصوان

وتبدت مثل الهذى تهادى وادع الجيب عاطل الأبدان

فهي في زينة البغي ولكن
كادت الأرض يوم ذلك تفشى
وتعود الرياض مقبيلات
زخرت يوم نعمه حجرات
حجرات ميمات بناها
لم يكن يقتنى المساكن حتى
فأذيت فيها تهاويل رقم
ثم قام الكمأة صفين من ك
كلهم مطرق الى الأرض مغض
وتجلى على السرير جبين
يمكن العين لمحة ثم يهي
قله منه حاجب قد حماه
فاستوى فوق عرشه بوقار
ثم قام المجدون مشولا
ليس من كبرياء فيه ولكن
فنشوا سؤدد الأمير وعدوا
حين لم يجشموا التزيد لا بل
فقضوا من مقالهم ما قضوه
بعد ما ارتعوا الأنامل فيما
من خوان كأنه قطع الرو
فوق الطير في الصحف وحاشي

هي في عفة الحصان الرزان
سر بطنانها الى الظهران
ناعمات الشكير (١) والافناز
جد موطوءة من الضيفان
من فضول المعروف أكرم بان
يتقن المجد أيما اتقان
قائمات بزينة المزدان
ل عظيم في قومه مرزبان
وعلى سيفه هنالك حان
ذو شعاع يحول دون العيان
طرفها عن ادامة اللحظان
كل عين ترومه بامتهان
وبعلم من الحلوم الرزان
ضارين الصدور بالأذقان
كل وجه لذلك الوجه عان
فيه آلاءه بكل لسان
ما تعدوا ما حصل الكاتبان
ثم آبوا بالرفد والحملان
لا تعداه شهوة الشهوان
ض وان كان في مثال خوان
ذلك الطير من جفاء الجفان

ثم سام الأمير سوم الملاهي
وخلأ بالمدام والندمان

وقيان كأنها أمهات
عاطقات على بنها حوان

مطفلات وما حملن جنينا
مرضعات ولسن ذات لبان

ملقمسات أطفالهن ثديا
ناهديات كأحسن الرمان

مفعمات كأنها حافلات
وهي صفر من درة الألبان

كل طفل يدعى بأسماء شتى
بين عود ومزهر وكران

أمه دهرها تترجم عنه
وهو بادى الغنى عن الترجمان

أوتى الحكم والبيان صيا
مثل عيسى بن مريم ذى الحنان

لو تسلى به حديثه رزء
لشفى داء صدرها الحران

عجبا منه كيف يسلى ويلهى
مع تهيجه على الأشجان

فترى فى الذى يصيخ اليه
أمرات المحزون والجذلان

فتأمل فهل ترى فى وسع المصور التقدير أن يلتفت الى لون أو ظل أو شكل أو خط أو حركة فى المهرجان لم يلتفت اليها ابن الرومى فى هذه القصيدة ؟ وتأمل الشاعر هل تراه فى قصيدته الا كما قلنا فى بعض مقالاتنا : « كالرسام الذى بسط أمامه لوحته وأقبل على الوجوه والأشكال يتفرسها ويطيل النظر الى ملامحها وإشارات ما تشف عنه من المعانى ، وتشير اليه من الدلائل ويراقبها فى التفاتاتها ومواقفها وحركاتها لينثنى بعد ذلك الى لوحته فيثبت عليها ما توارد على بصره وقريحته من الألوان والمعارف والهيئات من حيث هي تحفة فنية تستهوى الحواس والأذواق ؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان واختيال الدنيا بمنظرها فيه وبرود الوشى التى أذاتها للناظرين، واللهو والسرور الذى

شمل كل شيء وأدبل له من جميع الهموم والأحزان ، ثم يرسم حجرات
الأمير بزخارفها وتهاويلها وضيوفها العادين اليها الرائحين منها ، وقيام
الكفاة صفا بعد صف مطرقين الى الارض مفضين بالأبصار حائنين
على السيوف . ثم يرسم الأمير فوق سريره . وقد طلع على الجمع بوجه
مهيب يسكن العين منه احظة ثم ينهاها عن ادامة اللحظان ، ثم يذكر
لك وقار الامارة وسمات الحلم والرزانة بين قوم يعنون له ويجلون قدره
من الحب والتبجيل لا من الصلف والكبرياء ، ثم يرسم المادحين بين
يديه يرتلون عليه الثناء ضارين الصدور بالأذقان وينصرفون من حضرته
بالعطايا والحملان ، بعد ما شبعوا من خوان يلوح في مثل قطع
الروض وان سمي بالخوان ، ثم يرسم القيان الكواعب الابدكار عاطفات
على المزاهر عطف الأم على الرضيع بنهود مفعمات ، ولكنها صفر من
درة الألبان ، ثم يرسم أثر الغناء على وجوه السامعين ، فاذا هوشجن
وسلوى وأمرات من الحزن والجذل وطرب يشوبه السكون وسكون
يشوبه الطرب ... فلا تزال في القصيدة تنتقل بين آياتها من صورة
الى صورة ومن منظر الى منظر ومن حركة الى حركة حتى تأتي عليها
وقد استعرضت في خيالك متحفاً واسعاً من الأشكال والخطوط عملت،
فيه التريجة والنظر واشترك فيه الفن والاحساس وروى لك أصدق
الرواية عن عين تلمح وتعي ونفس تحس فتستوعب وخيال يدخسر
الجمال المنظور فيثري بالألوان والسمات ... »

زعموا أن بعضهم قال لابن الرومي : « لم لا تشبه كشبيهاة ابن
المعز وأنت أشعر منه ؟ فقال للأئمة : أنشدني شيئاً من قوله الذي
استعجزتني عن مثله ، فأنشده قوله في الهلال :

أنظر اليه كزورق من فضة قد أنقلته حمولة من عنبر
فقال زدني . فأنشده قوله في الآذريون وهو زهر أصفر في وسطه
خمل أسود

والشمس فيه كالية
فيها بقايا غالية

كأن آذربونها
مداهن من ذهب

فصاح واغوثاه ! تالله لا يكلف الله نفساً الا وسعها . ذاك انما يصف ماعون بيته وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن انظروا اذا وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس « الى آخر القصة .

وقد تصح هذه القصة أو لاتصح ، ولكنها على الحالتين تدل على رأى شائع فى التشبيه بين الذين كانوا يتعاطون الأدب فى عصر ابن الرومى وبين الذين يتعاطونه فى هذه الأيام . فلابن المعتر تشبيهات كثيرة أبلغ من هذه التى مرت فى القصة وأجمل وأنقى فى المعنى والديباجة ، ولكنهم لا يختارون له فى مقام التحدى والتعجيز الا هذه الأبيات وأمثالها ، لظنهم أن نفاسة التشبيه انما تقاس بنفاسة المشبه به وأن الغرض من التشبيه انما هو مضاهاة أبيض على أبيض وأصفر على أصفر ومستدير على مستدير ومستطيل على مستطيل مما يرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، فالشاعر الذى يصف النجوم ويشبهها بالجواهر والحلى هو الشاعر غير مدافع وهو المثل الأعلى فى هذه الصناعة .. ثم يليه الشعراء على حسب الأشعار فى سوق المشبهات ا وقصارى ما يطلبه الشاعر من التشبيه أن يثبت لك أنه رأى شيئ من لون واحد وشكل واحد كأنك فى حاجة الى مثل ذلك الاثبات الذى لا طائل تحته ، فاما أنه أحس وتخيل وصور احساسه ، وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة ، فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل عنده فى باب البلاغة والشاعرية ، وهذا خطأ بعيد فى فهم الوصف والشعر يخرج بهما عن القدرة النفسية الى القدرة الآلية التى تحكى المناظر الظاهرة كما تحكيها المصورة الشمسية . فالمسافة عظيمة جدا بين شاعر يصف لك ما رآه كما قد تراه المرأة أو المصورة الشمسية ، وشاعر يصف لك ما رآه وشعر به وتخيله وأجاله فى روعه وجعله جزءا من حياته . وليس يعنىك أنت أن يكون الشاعر صحيح العين مطلقاً على المرئيات المتشابهة ليتصل ما بينك وبينه ويقرب وجدانك من وجدانه ، ولكن ما يعنىك منه أن يكون انساناً « حياً »

يشعر بالدنيا ، ويزيد حظك من الشعور بها، وتلك هي مزية ابن الرومي في وصفه وتشبيهه ومزيتة في شعره كله من أوائل شبابه الى اليوم الذي مات . وينبغي هنا أن نذكر مرة أخرى أن ملكة الشعر غير ملكة الوصف ايستا بشيء واحد كما يفهم كثير من القراء ، فمن وصف وشبه ولم يشعر فليس بشاعر . ومن شعر وأبلغك ما في نفسه بغير وصف مشبه فلا حاجة به اذن الى سرد الصفات لتتم له مذكرة الشاعرية .



من ثم نقول أننا اذا قسمنا العبقرية الفنية الى أقسام وفصائل فخير ما نفهم به عبقرية ابن الرومي أنها عبقرية يونانية على المعنى المفهوم بين قراء الآداب من هذه الكلمة ، اذ لانعرف صفة لعبقرية ابن الرومي هي أوجز ولا أبين من هذه الصفة المجموعة في كلمة واحدة : فانه كان محبا للحياة في خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذي عهدناه في جملة الفنون اليونانية ، وكان متشخصا لمحاسن الطبيعة وعناصرها كما شخصتها أساطير اليونان وولدت منها بنات الماء وعرائس الغاب وأرباب السحب والبحار وغيرها من ولائد الذوق والخيال ، وكان مأخوذاً بالجمال في كل شيء كما أخذوا به في كل شيء ، مستغرقا في الحس الدنيوي كما استغرقوا فيه . أما أنه كان كذلك لأنه من سلالة اليونان فذلك قول لانجزم به ولا نجزم بنفيه ، لأنه يستطيع أن يكون كذلك ولو لم يكن من تلك السلالة التي اختلطت فيها سلالات الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فما اختص اليونان بأبداع الفنون واستجلاء الجمال ، ولا يحسن بأحد أن يدعى ذلك لشعب من الشعوب . وكل ما امتازوا به على غيرهم أنهم منحوا الفنون حرية لم تمنحها الشعوب القوية التي توطدت فيها الدولة وتوطد فيها الدين فاشتغل على العلوم والفنون وأحاطها بقيود المراسم والموروثات ، فلما خضع اليونان لمثل هذا السلطان نضب فيهم ذلك المعين الحر وأخذوا الى المراسم والموروثات ، الا قليلا من العنين المتجدد الى الفن القديم وامتياز

اليونان بالحرية في الفن فضل عظيم، ولكن ما مقدار ما يسرى منه في الدم ويثبت مع الغرائز ويتنقل مع السلالات ؟؟ وما هو الحد الفارق بين اليونانية وغير اليونانية في الشعوب الكثيرة التي يتناولها اسم انيونان في آسيا وأوربا وقبل التاريخ وبعد التاريخ ؟؟ فأنت ترى أن القول بالوراثة اليونانية في ابن الرومي ليس أسهل ولا أصوب من القول بانفراد هذه الظاهرة الغريبة التي لاتزول غرابتها من بعض الوجوه حتى لو ظهرت في بلاد اليونان . وقد يكون فيما مر بك من شرح مزاجه ونشأته تعليل صالح لهذا الاحساس المتوفز يساعد على تفسيره بعض التفسير، فحسبنا اذن من كلمة العبقرية اليونانية أنها كلمة مفهومة في لغة الآداب وان لم تكن مفهومة في لغة الأنساب .



مركز تحقيقات كميته علوم اسلامی

الفصل الخامس

فلسفة ابن الرومي

لكل شاعر كبير فلسفة للحياة ، أو فهم لها على وجه من الوجوه .
وهذه هي مزية الشاعر الكبير على الشعراء الصغار .

فاذا قرأت عشرين شاعراً كبيراً فانت أمام عشرين نسخة من الدنيا ،
أو أمام عشرين مثالا لها كل منها مخالف لغيره مستقل عنه في طريقة
تمثيله . لأن الشاعر الكبير يشعر بكل شيء حوله . فما من مظهر ولا
مخبر الا وله موقع من قلبه وصدى في ضميره . ولأنه مستقل في
ادراكه وشعوره ينحو نحو نفسه ولا ينحو نحو غيره ، فاذا قرأت
شعره فهناك الدنيا كلها ممثلة في ذلك الشعر على طريقته التي لا تشبهها
طريقة . ولا كذلك الشاعر الصغير أي الشاعر الذي تضيق نفسه
بسعة الدنيا فلا يشعر الا بجانب صغير من جوانبها الكثيرة ، والذي
يتبع غيره في ادراكه وشعوره فلا يثبت على قدميه لحظة الا رثما
يتكئ على سند من سابقه أو معاصره ، فان هذا الشاعر الصغير
شذرة من الدنيا وليس بمثال كامل للدنيا برمتها . وقد تكون هذه
الشذرة أجمل وأتقن وأحب وأشهى من المثال الكامل في مساحته
الواسعة ومنظره الجسيم ، ولكنه شذرة على كل حال أو خريطة بلد
واحد لن تغنيك - بالغة ما بلغت من روائها واتقانها - عن خريطة
الأرض الكاملة ، وان قصرت في الرواء والاتقان .

فمن الشعراء الكبار من يريك الدنيا كأنها معرض للجمال ، أو
يريكها كأنها متنزه للفرجة ، أو كأنها كعبة للعبادة ، أو ميدان للقتال ،
أو طريق للعبور ، أو ملعب للسور ، أو يريك الدنيا كما هي ، وذلك
أكبر الشعراء وأعلامهم في مراتب الالهام . أما الشاعر الذي تسأل

نفسك بعد قراءته : ما هي الدنيا ؟ وما مثالها في خلدك ؟ فلا تهتدي الى جواب ! فليس بالشاعر الكبير وان عد في المجيدين من الشعراء . فلا بد للشاعر الكبير من ادراك الدنيا كلها ، ولا بد لهذا الادراك من صورة تختلف كثيرا أو قليلا من سائر الصور ، وهذا هو الذي نعنيه بفلسفة الشاعر ولا تتخطاه الى معنى الفلسفة الشائع بين المفكرين . اذ لو قصدنا الى هذا لوجب علينا أن نقول ان الفلسفة أبعد المطالب عن ابن الرومي وأن ابن الرومي أبعد الناس عن الفلسفة ، بل لوجب علينا أن نقول أكثر من ذلك : ان قريحة ابن الرومي كانت نقيض القريحة التي يحتاج اليها الفيلسوف ، لأن الفيلسوف يجرد كل شيء ليراه بعين الفكر حيث تلتقى الكليات وتندم الفوارق والأجزاء ، وابن الرومي كان يجسم كل شيء ليراه بعيني الفنان في عالم الأنوار والأشكال والخطوط والحركات . وربما خطرت للقارىء وسأوس ابن الرومي وأوهامه وأسراره فحسبه من أهل الباطن الذين ينظرون الى الدنيا نظرة الروحانية ، وقرب ما بينه وبين الفلاسفة المجردين على هذا الاعتبار . فيجب علينا كذلك أن نبادر الى القول بأن ابن الرومي كان نقيض أهل الباطن المتعمقين كما كان نقيض الفلاسفة المجردين ، لأن أهل الباطن يتجاوزون الظواهر الى البواطن ويحسبون الظواهر وهما أو كذبا لا وجود له الا في الحس المضلل المخدوع . أما ابن الرومي فكان يعكس الأمر فيلبس الأسرار ثوب الظواهر ويلحق عالم الخفاء بهذا العالم المجسم المحسوس ، فالباطنيون ينفون الظواهر ويثبتون الأسرار وابن الرومي ينفي الأسرار ويثبت الظواهر ، وكان يلحى الناس لأنهم يغفلون عن نذير الخفاء ولا يتقونه كما يتقون نذير العيان . لأن الخفاء عنده ان هو الا عيان يراه ويلمسه ويتجنبه ويلقاه .

لقد كان الرجل « جديد » الإحساس في شبابه وهرمه ، فعلمه أبدأ عالم الطفولة الخالدة الذي يداعب سياجه أبدأ بهجة جديدة أو خوف جديد : تنقولة خالدة ولكنها مروعة لفرط ما ألح عليها من السقم

والألم . فهي في هذه المأدبة الالهية التي تسمى 'بالدنيا فاغرة الحس أبدا لكل طارىء جديد من طوارئ الاغراء والترويع ، طفولة لم تزدها السنون الا امعانا في الطفولة واغراقا في اللعب وشوقا الى الحلوى ورهبة من العصا واحتياالا على هذه الرهبة ، فلن ترى في شعره كله قولة واحدة الا هي قولة الطفل الكبير الذي يفهم أضعاف ما يفهم الكبار ولكنه لا يحس الا كما يحس الأطفال .

أيتكلم عن الصبر؟ أيتكلم عن العزلة؟ نعم ويتكلم عن الزهد والعفة والتقوى وعما شئت من الحكم والنصائح!؟ وزد عليه أنه يتكلم عنها كلام النية والعقيدة لا كلام الخبث والرياء ، ثم ماهو الا أن تعروه بادرة واحدة من بواذر الفرح أو الحزن وغواية واحدة من غوايات الربيع أو الخريف حتى تذهب جميع هذه الحكم والنصائح في الرياح وينطلق الطفل الكبير مصفقا للتمعة الجديدة أو صارخا من الألم الجديد لأن الكلمة العليا في هذه « الفلسفة » للاحساس الطارىء لا للفكر السابق أو للاحساس القديم

أسميها اذن فلسفة « ابيقورية » تشد اللذة أينما كانت وتهرب من الألم أينما كان؟؟ ان كنت تسمى الطفل الذي يتهافت على الحلوى ويجفل من العصا « ابيقوريا » فلك أن تعد ابن الرومي في جماعة الأبيقورين ، ولكن الأبيقورية في رأيي ليست « جدة » الاحساس المتفزز للمرات والآلام وانما هي فتور الاحساس واستكانة الشيخوخة الى ما يريح ، ونفورها مما يزعج ويثير . وهي في معناها الشائع نقص في الاحساس وليست بزيادة فيه . والا فهل تظن أبا نواس شعر بلذعة الألم أو بنضرة السرور قط؟؟ هذا هو الأبيقوري في الأبيقورين . . . وهو كما تعلم واحد من أولئك المترفين الذين يطلبون اللذة ويشفقون من الألم لأنهم فاترون فارغون لا لأنهم مرهقو الحس مفعمون بالحياة . أما ابن الرومي فكان يألم ويسر لأن حياته هي الألم والسرور ، أو لأنه لا بد له من أن يحس ولا بد للاحساس من أن يكون بعض الألم وبعض السرور ، وليس في وسعك أن تعظله من الاحساس بهذا أو بذاك

الا اذا عطلته من الحياة ، وليس في وسعه هو أن يطلب اللذة باختياره
أو يجتنب الألم باختياره . لأن الجدول الرقراق لا يطلب الصفاء
ولا يجتنب الكدر ، وانما يصفو ويكدر لأنه ماء ولن يكون الا من
الماء .

فعالم ابن الرومي هو عالم الطفولة الخالدة لا عالم الشيخوخة
الوادعة أو عالم « الأيقورين » .

والطفولة الخالدة هي الاحساس الجديد بالألم والاحساس الجديد
بالسرور . ولقد دام له هذا الاحساس الجديد كاحسن ما يدوم بعد
فقد الشباب ، ولكنه لفرط طمعه في الحياة كان لا يقنع الا بأن يجمع
بين « بشاشة الأوطار » وقدرة الشباب .



مركز بحوث ودراسات في العلوم الإسلامية

الفصل السادس

صناعة ابن الرومي

قولاً لمن عاب .. عاب شمر مادحه
ركب فيسه اللحاء والخشب البيا
أما ترى كيف ركب الشجر
بس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بان يهـلب ما يـلب
سق رب الأرباب لا البشر

يتفق لقارئ الشعر أن يعرض له في مطالعته بيت غير منسوب الى صاحبه فينسبه الى شاعر معروف عنده ثم يجد بعد البحث أن فراسته قد صدقت وأن البيت لذلك الشاعر بغير خلاف ، ولكنه قد يعلم السبب الذي دعاه الى نسبة البيت اليه وقد يتعذر عليه أن يرد ظنه الى سبب غير البداهة التي لا تعلق . لأن سمات الشعراء التي تبدو في قصائدهم وأبياتهم بعضها ظاهر سهل تتبعه والاستدلال عليه وبعضها خفي يجري في الكلام مجرى الملامح في الوجوه . تعرفها وتعرف بها الأبناء والآباء ولكنك لا تردّها الى سبب محدود .

وليس كل الشعراء ذوي ملامح واضحة يعرفهم بها القراء ، ففي العربية مثلاً ألوف من الشعراء لا تعد منهم مائة بين أصحاب الملامح الواضحة التي تعرفهم بها في القصيدة الواحدة بله البيت الواحد . وفي طليعة هؤلاء من الشعراء المحدثين - غير ابن الرومي - المتنبي والمعري والشريف الرضي ، والبقية درجات في هذه الخصلة تعرفهم بسهولة حيناً ، ولا تعرفهم حيناً الا بعد جهد وتحقيق .

بعض هذه الملامح أو العلامات نفسى لا تعود اليه في هذا الفصل لأنه سبق في مواضع متفرقة من الفصول المتقدمة ، وبعضه لفظى يرجع الى الصياغة وأسلوب التعبير والنزعة الفنية التي ينفرد بها الشاعر بين

الشعراء وان تساووا في الاجادة كما ينفرد الجميل بين ذوى الجمال
بسمة خاصة تستحب فيه وان تساووا كلهم في الجمال . وهذا الذى
نعنيه بالصناعة وتم به مباحث هذا الكتاب .

فالعلامات البارزة في قصائد ابن الرومى هي طول نفسه وشدة
استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة
النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة أبياتا متفرقة
يضمها سمط واحد ، قل أن يطرد فيه المعنى الى عدة أبيات وقل أن
يتوالى فيه النسق تواليا يستعصى على التقديم والتأخير والتبديل والتحويل .
فخالف ابن الرومى هذه السنة وجعل القصيدة (كلا) واحدا لا يتم
الا بتمام المعنى الذى أراده على النحو الذى نناه . فقصائده
« موضوعات » كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهى
حتى ينتهى مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ، ولو خسر فى سبيل
ذلك اللفظ والفصاحة .

ولا ريب أن هذا الاستقصاء كان سببا من أسباب الاطالة ولكنه
لم يكن كل السبب ، لأن ابن الرومى كان يطيل القصائد حفاوة
بالممدوحين واكباراً لشأنهم واظهارا لعنايته بارضائهم ، وكان يرى فرضا
عليه للمدوح أن يستصعب ولا يستسهل ، فاذا طرق القوافى السهلة
اعتذر من تقصيره كما قال لعبيد الله بن عبد الله من قصيدة نيفت على
سبعين ومائتى بيت :

كل مدح فى غيركم فثاب	ما أثبت عبادة الأوثان
هاكها ، لا أقول ذلك مدلا	قول ذى نخوة بها وامتنان
بين أثنائها مدبح نفيس	من لبوس الملوك والفرسان
ذو قواف كأنها حلق الأصد	اغ فى البيض من خدود الغوانى
راق معنى ورق لفظاً فيحكى	رائق الخمر فى رقيق الصحان
ان تكن سهلة القوافى فليست	فى المعانى بسهولة الوجدان
فابتذلها فى يوم لهوك واعلم	انها بعد من ثياب الصيان
وابسط العذرى ارتخاص القوافى	واتباعى سهولة الأوزان

أنت أجبأتني الى ما تسراء
أى وزن وأى حرف روى
خاق عن مأثراتك الشعر الا
ليس مدح يفى بمدحك الا
لا ولا حمد كفاء نعماك الا
بالذى فيك من فنون المعانى
لهما بالمديح فيك يمدان
فاعلات مفاعل فاعلان
صلوات المليك فى القرآن
حمد سبع من الكتاب مثنان

أو كما قال لأبى القاسم التوزى الشطرنجى من قصيدة ناهزت مائة
وخسين بيتاً :

ولك العذر مثل قافيتى في
وتأمل فانها ألف المسد
ك اتساعاً فانها كالفضاء
لها مدة بغير انتهاء

وله رأى فى اطالة الشعراء وامالته يقول فيه :

كل امرىء مدح امرءاً لنحواله
لو لم يقدر فيه بعد المستقى
غيرى فانى لا أطيل مدائجى
وأعد ظلماً أن أقل مديحنه
وأطال فيه فقد أراد هجاءه
عند الورد لما أطال رشاءه
الإ لأوفى من مدحت ثناءه
عمداً وأسخط ان أقل عطاءه

على أنه كان يستريح الى الاطالة كما يستريح « الجواد الكريم »
الى سعة المضمار ، لأنها تشبع لذة القدرة على النظم والتمكن من اللغة
وتنفى ظنة العجبة التى كانوا يعيرونه بها ويتهمون به فى شعره من أجلها
فلغبطة فى نفسه - لا لارضاء المدوح وحده - كان يركب القوافى
الصعبة ويتعمد رياضة الحروف العصية ، فيذل له أعصاها حتى الثاء
والحاء والذال والزاي والظاء والعين والهاء وغيرها من الحروف النادرة
فى الروى الناقصة فى شعر أقدر الشعراء ، وكانت فيه غيرة القول
ونخوة المنافسة وهمة الوثوب الى الغاية . فكان هذا « الجواد الكريم »
يطون للسباق كلما مرت به خيل السباق ، فاذا سمع الكلام الجيد لم
يرح أن يعارضه بكلام من بحره وقافيته ومعناه ، ولم ينس أن يجرب
قوته الى جانب كل قوة ويحرك شاعريته الى جانب كل شاعرية . ففى
ديوانه مطرضات كثيرة للنابغة وأبى مسلم وأبى نواس والحمدونى

ودعبل وغيرهم ممن تروى لهم الأبيات المستحسنة والحكم المأثورة .
ومثل هذا لا يقصر في المضمار اذا نشطت القريحة وتفنحت أشواط
الكلام .

وحبه هذا للمعارضة وتجربة القدرة هو الذي كان يدعو الى النظم
في هذا المعنى أو ذلك من المعانى الطريفة التى كانت تروقه في شعر بعض
الشعراء . كالمثائق المعرم باللبس الجميل يستلمح الكساء على لابسه
فيود لو يكون له كساء من طرازه وصفه ولكنه لايفكر في سرقة
واغتصابه ، مثال ذلك : قال أبو تمام :

غربته العلى على كثرة الأهل ل فاضحى في الأقربين جنيا
فأعجب هذا المعنى ابن الرومى فقال :

رب أكرومة له لم نخلها قبله في الطبع والتركيب
غربته الخلائق الزهر فى التناجيس وما أوحشته بالتغريب

مركز تحقيقات كليات العلوم راسدى

وقال :

أعاذك أنس المجد من كل وحشة فانك فى هذا الأنام غريب
وقال :

فأنس الله نفساً أنت صاحبها فانها من معاليها بمفترب

لولا عجائب لطف الله ما نبت تلك الفضائل فى لحم ولاعصب
وقال :

وحيد فريد فى المحامد أنس بوحدته مستأثر بالفضائل
وقال :

الله يكلؤه والله يؤنسه فانه بمعاليه قد اغتربا
ويروى صاحب الأغاني بيتا آخر ينظر اليه ابن الرومى مثل هذه
النظرة اذ يقول ابراهيم بن العباس :

تقاصر عنها الأمل
وظاهرها للقبيل

لفضل بن سهل يد
فباطنها للندي

فيقول ابن الرومي

أصبحت بين خصاصة ومذلة والمرء بينهما يموت هزيبلا
فأمدد الي يدا تعود بطنها بذل النوال وظهرها التقيلا

وجاء في الجزء الثالث من زهر الآداب أن الحسين بن الضحاك
أنشد أبا نواس قوله :

كانما نصب كأسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك
فمر نكرة منكرة : فقال له الحسين : مالك ؟ فقد رعنتني ! قال : هذا
المنى أنا أحق به منك ، ولكن سترى لمن يروى . ثم أنشده بعد أيام :

إذا عب فيها شارب القوم خلت يقبل في داج من الليل كوكبا

قال صاحب زهر الآداب : « وقال ابن الرومي فكان أحسن منهما » :

أبصرته والكاس بين قمر يقبل عارض الشمس
فكانها وكان شاربها

فهذه المأخذ القليلة جداً في شعره تعاب ولكنها أخلق بأن تعد من
المعارضة والمسابقة ولا تعد من السرقة والغصب . أو هي على كل حال
ليست من سرقة المعدم الذي لا رزق له الا رزق غيره . لأنها لو سقطت
من شعره جملة وسقط معها عشرة أضعافها لما نقصت ثروته ولا مست
قدرته على التوليد والابتكار أقل ماس . ولو جازت المقاصة في هذا
الباب لكان ابن الرومي دائماً طالبا ولم يكن مدينا مطلوبا ، لأز
ما أخذ من الشعراء أقل بكثير مما أخذه منه الشعراء .

وهناك المعاني الشائعة والنكات الشعبية العامة التي ليست لأحد
ولكنها لكل أحد . أي التي يأخذ منها كل انسان ويضيف اليها كل
انسان ، أو التي هي كالهواء يتساوى منه نصيب من يشاء . فمن هذه
المعاني الشائعة حتى في هذا الجيل وحتى بين الأميين الذين لا يقرءون

الشعر والأدب أن اللحية تشبه بالمخلاة . وينسب الى سعيد بن وهب
في كتاب الوزراء والكتاب أنه قال في قصة لا محل لذكرها هنا :

قل لمن رام بجهل مدخل القبي الفرير
بعد ما علق في خد به مخلاة الشعر
لته يدخل ان جا من الباب الكبير

وفي كنيته عن اللحية « بمخلاة الشعر » على هذه الصيغة ما يفيد
أن النكته « معهودة » وأن الاشارة اليها على هذا النحو غمزة مفهومة،
فن الخطل في النقد أن يقال ان ابن الرومي عمد الى بيت سعيد بن
وهب فسرقه حين قال :

علق الله في عذاريك مخلاة ولكنها بغير شعر

فان سعيد بن وهب وابن الرومي في هذا الاقتباس يستويان ، ويزيد
ابن الرومي بتصرف جديد في المعنى . وهو أن المخلاة فارغة ؟
وقد يلحق بهذا قول صاحب الصناعتين بعد ما أورد البيتين الآتين
مثلا للمبالغة في الهجاء :

يقتر عيسى على نفسه وليس يباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فهو يقول « والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى
وانما أخذه مما حكاه أبو عثمان . . . أن بعضهم قبر احدى عينيه وقال
أن النظر بهما في زمان واحد اسراف » فصاحب الصناعتين أصاب حين
نفي ابتكار ابن الرومي للمعنى ولكن من تراه أولى منه بفضل الابتكار؟
ولقد كان ابن الرومي يخطيء لو أنه عدل عن نظم معناه هذا لأن
أبا عثمان سبقه بتلك الحكاية ، فحسبه منه أنه تصرف فيه وأنه مسح
المبالغة عنه ، لأنه لم يقل أن « عيسى » يتنفس من منخر واحد ولكنه
قال انه لو استطاع لفعل !

لكن الحذقة التي لا تقاس بها شيء من هذا هي زعم بعض النقاد
أن ابن الرومي سرق البيتين اللذين أنشأهما قبيل وفاته وهما :

غلط الطيب على غلطة مورد عجزت موارد عن الاصدار
والناس يلحون الطيب وانما خطأ الطيب اصابة المقدر

قأبو عبد الله بن عبدوس الجهمياري صاحب « كتاب الوزراء
والكتاب » يروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال « اذا
نقصت المدة كان الهلاك في العدة » ثم يزعم أن ابن الرومي سرق البيتيز
من هذه الكلمة . . وصاحب زهر الآداب يزعم أنه أخذهما من يحيى
ابن خالد حين « دخل على الرشيد فأخبر أنه مشغول فرجع فبعث اليه
الرشيد : خنتني فاتهمني . فقال اذا نقصت المدة كان الحثف في الحيلة
والله ما انصرفت الا تخفيفا »

ولا نظن أن عصرا مضى من عصور الاسلام خلا من أناس يؤمنون
بأن الحذر لا يبغي من القدر ، أو يقول عامتهم كما يقول العامة في
زماننا « وقت القضا يعنى البصر » . فقول ابن الرومي أن « خطأ
الطيب اصابة المقدر » انما هو عقيدته لا يزعم أحد أنه سرقها الا اذا
زعم أن المسلم في هذا العصر يسرق عقائده من المسلمين في العصور
السابقة ! ثم يبقى بعد ذلك أن قوله « خطأ الطيب اصابة المقدر »
هو أبلغ تعبير جديد عن ذلك المعنى القديم . وما كان النقاد ليتورطوا
في مثل هذا النقد لولا أن التعسف في اظهار السرقات كان في زمن
من الأزمان - أو في زمن الجمع والتأليف - آيتهم على سعة الرواية
والعلم باقدار الشعراء .

وتلاحظ في صناعة ابن الرومي لازمة الأفعال المزيد والمشتقات
التي يستخدم منها في جميع الصيغ والأوزان : فأسماء الفاعل والمفعول
والزمان والمكان وصيغ التفضيل والمبالغة والصفات المشبهة والمصادر
تكثرت في شعره كثرة لم نلاحظها في شعر غيره ، ونحسب أن الافراد
في استخدام المشتقات والأفعال المزيدة هو الوسيلة التي لا بد منها
للشاعر العربي الذي يريد أن يتناول المعنى من جميع نواحيه ويتدرج
به في مختلف درجاته . اذ ليس في اللغة العربية ظروف كالظروف التي

يشتقها الا فرنج من معظم الصفات والأسماء باضافة صغيرة في أول الكلمة أو في آخرها فتدل على المعنى المقصود وتدل كذلك على اختلاف الدرجة والقوة في أداء ذلك المعنى . فاذا أراد الشاعر العربي أن يلتفت الى هذه الفروق فلا بد له من الاستعانة على ذلك بالمشتقات والأفعال المزيدة كما كان يفعل ابن الرومي . الا أنه كان يسرف في جمعها معا حتى تنبها الاذن في بعض الأبيات . كقوله :

صاغة صواغة صيغا بدعا لم تلق في خلد

أو قوله :

أبصر بيضاء في القذال فلا نفر كنفر رأته نفره

أو قوله :

يترك بالحول حول حولها وهو سواء وموق مائقها

أو قوله :

قلت أن تغلبوا بغالب مغلوب فحسبى بغالب الغلاب
وهي ركافة منه كان ينساها في استطراده وربما كان يهونها عليه
وسواسه . لأن طبيعة الموسوس لا تنفر من التكرار كما تنفر منه سائر
الطبائع . على أنه كان يجمع بعض المشتقات والحروف المتشابهة
المخارج فتساع - وقد تستحسن - في أصعب القوافي كما قال في
الجيمة :

سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجع
ولا برح القاع الذي أنت ربه يرف عليه الأقحوان المفلج

فان للراء والحاء « راحة » في القلب تزداد بالتكرار وتنهد لما
بعدها من الظل الممدود والتضعيف المقبول في هذه القافية العصية .

أو كما قال من قافية الخاء

يا صارخا في جوع ليس تصرخه للظالمين غدا في النار مصطرخ

أو من قافية الفاء :

ومنعم كالماء يشفى ذا الصدى كشافه ويشف مثل شفيه
ويوقعه الاستطراد - ولك أن تقول الاستفراق في المعنى - تارة
في اهمال اللفظ وتارة أخرى في الأساليب الثرية التي لا يفسح غيرها
للاسهاب والأطناب والتفصيل والتفريع والمراجعة والاستدراك . فينظم
في هذه الحالة وكأنه يثر ، الا أنه لا يخلو من الشاعرية ولا يسف الى
طبقة « المتن » المنظوم و « الألفيات » التي ليس فيها من الشعر
الا أنها موزونة مقفاة .

ومع هذا تستطيع أن تقول انه لم يجعل اللفظ شغلا شاغلا في
صناعة ولم يحفل به الا لأداء المعنى الذي يريده . فيخيل اليك وأنت
تطرد في قراءته أنه يرتجل القصائد ارتجالا ويفيض بها فيضا لمطاوعة
لفظه وغزارة مدده . فهو يجيد في تركيب أبياته واحكام قوافيه ولكنه
لا ينتزع الاجادة بالجهد والترويض ، وما عليه الا أن يعنى ما يقول
فيقول ما يعنى بغير اخلال ولا التواء ، وما عليه الا أن يرسم فيجىء
البناء على ما رسم وتقوم الأركان على ما دعم .

ومن الشعراء من تلمح له الكلمة في قصيدة وكأنها تمن على الشاعر
بفضل وتستطيل بدالة . لأنها أطاعته ولبت رجاءه ورضيت بمقامها في
حنظيرته . فاذا بحثت عن أمثال هذه المفردات والتراكيب في قصائد
ابن الرومي فليست واجدها هناك ، لأن كلماته تقبل الى مواضعها
وكانها تعلم أن الفضل في مقامها للشاعر لا لها وأن الدالة في اختيارها
له لا عليه ، ومن ثم لم يشغل باللفظ ولم يبد على معناه أثر الجهد فيه ،
وبهذا سلم من لعب الجناس اللفظي والمحسنات الموهبة مع أنه نشأ
في العصر الذي نشأت فيه هذه المحسنات . وعجيب هذا منه وهو
المتطير الذي كان يلقي باله الى أقل تجانس في الكلمات وأضعف
تشابه في الحروف ليستخرج منه النذر والبشائر ويعلق عليه القنوط
والأمل ، ولكنه عجيب في الظاهر دون الحقيقة . لأنه انما كان يسالي
بالكلمات حين كان يأخذها مأخذ المتطيرين وهي حينئذ لها معنى عنده

ومن ورائها نبأ وفيها شعور . فليست هي خواء ولا تمويهها ولا بهرجا
زائفاً كهرج العابثين والمزوقين ، انما كان يجانس لمعنى يراه هو ويراه
من تطير مثله ولا يجانس لتزويق فارغ ولهو سخي ، فاذا لم يكن
متطيراً فلا جناس ولا اكتراث باللفظ الا لما فيه من معنى ظاهر مستقيم
وما له من فصاحة ونضارة ، أو يتفق له جناس اللفظ كما كان يتفق
للشاعر الجاهلي والشاعر المخضرم قبل عهد التميمي والصناعة ، فلا
غرابة في أن نجد له أو لشاعر مخضرم مثل هذا البيت :

فيسيك بالسحر الذي في جفونه ويصيك بالسحر الذي هو نافث
أو مثل هذا البيت :

تصيك ان حكمت وان طلبنا لديك العرف كنت حيا تصوب
أو مثل هذا البيت :

ليس ينفك طيرها في اصطحاب تحت أظلال ايكها واصطخاب
وهكذا كان في كل تحميمه الذي لا تصف فيه وليس هر بالكثير
البارز في ديوانه الكبير . فاذا جنس في غير ذلك فهو عايب متعمد
للعبث وليس بملفق محسنات ولا بطالب تزويق كما قال .

لو تلفت في كساء الكسائي وتلبست فروة الفراء
وتخلت بالخليل واضحى سيبويه لديك رهن سباء
وتكونت من سواد أبي الأسو د شخصاً يكنى أبا السوداء
لأبي الله أن يعذك أهل العدا م الا من جملة الأغبياء
فالذي يقرؤه هنا لا يخطر له بته أنه يزوق ويخرف ولا يشك
لحظة في أنه يعبث ويهزل ، وأنه لا يحاول أن يبيع الناس بهرجا بضمن
ذهب وعرضا بضمن جوهر

أما ما يستشهد به البديعيون من كلامه كقوله في غير الجناس :

آرلؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات اذا دجون نجوم
فيها معالم للهدى ومصباح تجلو الدجى والأخريات رجوم

فهو أقرب الى التقسيم الفلسفى منه الى محسنات اللفظ وترصيعاته .

وغنى القول أننا لم نقصد بما تقدم أن ابن الرومى كان على سذاجة الجاهل والمخضرمين فى صوغ الشعر وفهم فنون البلاغة . فان هؤلاء كانوا ياتون بالقول البليغ ولا يعرفون علته ، وكانوا يطربون للشعر ولا يتوخون مذاهب نقده ، وليس فى وسع شاعر عباسى أن يكون كذلك بعد ما أولع القوم بالبحث فى جميع العلل والأسباب واصطلحوا فى البلاغة على الحدود والأسماء وخرجوا من حالة «العقو» الى حالة « الوعى » ومن سهو الجنة التى كانوا غافلين فيها عن النعيم والعذاب والخجل والعيب الى يقظة الدنيا التى يؤخذون فيها بالتكاليف ويدركون فيها المحاسن والعيوب ، وابن الرومى أولى ألا يكون على تلك السذاجة الجاهلية أو المخضرمة وألا يسهو عن محاسن كلامه وعيوبه وهو الذى لم يسه قط عن شئ ، فيه ولم يكن له من هم الا أن يحصى خطرات ذهنه وخلجات فؤاده ، فهو شاعر ناقد وبليغ له مذهب فى البلاغة ورأى فى المعانى وحجة فى الاختيار . ونوادره فى ذلك قليلة ولكن النادرة التى ننقلها بعد كافية للإبانة عن وجود هذه الملكة فيه وعملها فى نقد كلامه ونقد كلام غيره قيل انه سمع هذه الأبيات :

أيها الطيب المليح القد	مجدول مهتف
أنا من ميلك فى مث	يك مرعوب مخوف
لا تيسلن فانى	خائف أن تنقص

وهى لابن أبى فتن (١) . فقال فى البيت الآخر : انما أراد منه أن يسيل من لينة ونعسة أعضائه فأسرف حتى أخطأ ، وذلك أنه جعل اللين للمفرد يتقصف . وانما كان ينبغى أن يقول لو عقد لانعقد من لينة فضلا عن أن يسيل وهو سليم من التقصف : ثم أسرع الى معارضة القائل بهذين البيتين :

أيها القائل اني خائف أن تتقصف
ليس هذا الوصف الا وصف مصلوب مجفف

فملكة الابتكار في ابن الرومي كانت مصحوبة بملكة الاتقاد ،
وفصاحته كانت فصاحة الذي يحاسب نفسه ويحمل تكليفه لا فصاحة
غير المكلفين في جنة السهو والتوفيق !

كذلك لا يفهم من سهولة شعره وتدقيقه وأخذ بعضه بأطراف بعض
أنه كان قليل التهذيب له والرجعة اليه . فربما فرغ من القصيدة وأفضى
بها الى ممدوحه ثم عاد الى تنقيحها والزيادة عليها وردّها مرة أخرى
كما فعل في المهرجانية التي تتبعها وأطالها وكتب في ذلك يعتذر الى
عبيد الله بن عبد الله .

قصيدة كرها مثقفها عليك ان ثقفت على مهل
أعجلها الوقت عن رياضتها فأقبلت ريشا على عجل

مراحمته كغيره من رسله

لم أحتشم كرها عليك ولا سدى منها مواضع الخلل
لأننى عالم بأنك لاتعسب ب فيما أصلحت من عمل
وليس مثلى ينام عن خلل فى مدح ممدوحه ولا زلل

على أنه - لطول رياضة الكلام الموزون - قد أسلست له طريقة
فى النظم يقصر بها المعنى على الظهور ولو اضطر الى الحشو واللف
والاعتراض فلا تشعر الا وقد استدار له البيت على أحسن تركيب
وأصبح الحشو فى يديه حسنا يزيد المعنى ولا يعيبه . فاذا أراد أن
يقول « لاتكذب الأخبار بالهوى » ولم يساعده الوزن قال :

لاتكن بالهوى تكذب بالأخبار

رختي تهين ما لا يهان

فأكسب المعنى قوة لم تكن له فى عبارته البسيطة . لأنه حين صاغ
البيت هذه الصياغة كأنما ينهى عن « خلق » التكذيب لاعتن « فعل »

التكذيب مرة واحدة أو مرات . فمعنى « لاتكن مكذبا الأخبار بالهوى » غير معنى « لاتكذب الأخبار بالهوى » . لأن العبارة الأولى تفيد زيادة فى النفى لاتدخل فى مدلول العبارة الثانية : تفيد النهى عن « طبيعة » التكذيب أو عن أن « يكون » الانسان مكذبا ، ولا تقتصر على استنكار التكذيب فى هذه الحادثة أو فى تلك .

وإذا أراد أن يقول أن البوم أفضل الطير وحال الوزن دون هذا المعنى البسيط قال :

واعبر أن أفضل الطير ، فى الطير ، وفينا ، كروسات البوم .

فبلغ فى اظهار فضل البومة مالا تبلغه العبارة الأولى . لأنه بين فشلها بالنظر الى مقاييس الطير وبالنظر الى مقاييس بنى الانسان : فهي فاشلة كما يراها نظائرها فى عالم الطيور وفاشلة كما نراها نحن فى عالمنا الانسانى ، وذلك معنى لاتجده فى قول من يقول : ان البومة أفضل الطوائر ، وتلك كانت طريقته فى الحشو « المبارك » المقبول ، وفى تدوير النظم حتى يستدير له على أحسن تقويم .

وقد كان ابن الرومى كأبناء عصره يقدم الغزل بين يدي مدحه ووصفه جريا على سنة لم يكن فى ثقافة عصره مايدعوه الى استغرابها والنظر فى تنقيحها ، الا أنه يعمل هذه السنة ويتصرف فى تقديم الهجاء بالغزل فلا يقصره على الوصف والمديح ، فيخرج بذلك بعض الخروج من كم التقليد والمحاكاة العمياء ويختار لصناعته بعض الاختيار .

ألم تر أننى قبل الأهاجى أقدم فى أوائلها النسيب
لتخرق فى المسامع ثم يتلو هجائى محرقا يكوى القلوبا
وقد يتصرف غير هذا التصرف كما قال :
واشغل قريضك بالنسيب وبالفكاهة والمسزاح

كذلك كان يحكى أبناء عصره فى تصعيب اللفظ وتعهد الغريب حين كان ينظم فى الطرد ووصف الأسد وما اليه . لأن الشعراء العباسيين جعلوا الطرد خاصة معرضاً للبداءة الشعرية والفحسولة العربية . فكانوا فى ذلك على حد ما يقال عرباً أكثر من العرب وجاهليين أكثر من الجاهليين .

أما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربية ولاسيما فى القرآن . ومن هنا لم يذكر كلمة «أشياء» الا ممنوعة من الصرف ، وهى مصروفة فى قول بعض القياسيين من النحاة لأنها جمع شئ . فهى أفعال جمع فعل وليست فعلاء مؤنث أفعال التى تمنع من الصرف ، فمن المواضع التى وردت فيها الكلمة قوله : « حرمت بالمشيب أشياء حلت » وقوله . « قبلاً لأشياء يأتى البحرى بها » وقوله :

فيك أشياء لو وجدن قديماً  نظمتها الملوك فى التيجان
وقوله :

فيك أشياء من يواليك مسرور بها والعدو منها مغيظ
وقوله :

واليك الشكاة منها ومن أشياء تبتز ذا الحجا معقوله
وقوله :

ياحور ما للحبيب يفعل بى أشياء لا يستحلها الحرج
وقوله :

وفيه أشياء صالحات حماكها الله والرسول

وانما تابع المفسرين فى هذا ولم يتابع القياسيين من النحاة لأن كلمة أشياء وردت فى سورة المائدة بمنبوذة من الصرف ، اذ جاء فى الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم »

بفتح الهمزة في أشياء ، وتعليل المفسرين لذلك « ان أشياء هنا اسم جمع كطرفاء غير أنه قلبت لامه فجعلت لفاء ، وقيل افعلاء حذف لامه . — جمع لشيء كهين أو شيء كصديق فخفف » وهذه المخالفة للنحاة القياسيين هي كما ترى أدل على العلم منها على الخطأ ، فتم يكن ابن الرومي ممن يسهل وقوعهم في الخطأ النحوي والا ظهر منه ذلك في مواضع شتى مع اطالته واكثره وجرأته على تذليل النحو لمراده . وتقول جرأته لأننا لانعد من خطأ الجهل قوله :

دعنى وايا أبى على الأعور المعور الخبيث

اذ لا يخفى على المتدبىء أن « ايا » ضمير فصل يتصل بالضمائر الموصولة ولا يتصل في الكلام الفصيح بالأسماء . فابن الرومي اذا وصل الضمير المفصول بالاسم لا يفعل ذلك جهلا بالقاعدة التي يعلمها المتدبئون وانما يفعله وهو مجترىء عليه عالم بمكان هذه الكلمة من الخطأ والصواب ، وعلى ذكر التجوز في صرف المنوع ومنع المصروف بقول ابن الرومي كان من أقل الشعراء تجوزاً في « عروضه » وأكثرهم حرصاً على أوزانه . ولا بأس بأن نذكر له هنا بيتين قالهما في مرض وفاته ورواهما عنه أبو عثمان الناجم وهما :

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك للعشيرة دون لومك
قمتع من أخيك ، فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك

فقد ذكرها المعري في رسالة الغفران فعاب عليها أنها مقيدان وقال « وما علت أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيدا الا في بيت واحد يتداوله رواة اللغة » ، والبيت :

كان القوم عشوا لحم ضأن فهم نعجون قد مالت طلاهم
وهذا البيت مؤسس ، والذي قاله ابن الرومي من غير تأسيس ،
والحق أنه لاخلل في وزن البيتين من حيث العروض ، وانما كان
للمعري في نقده هذا أشبه بالفقهاء منه بالأدباء ، ولو اختل البيتان

أشد خلل لما قيست بهما صناعة ابن الرومي في جميع شعره . لأن المرء لا يقاس بنظم مرتجل يلقي به القاء وهو وجود بنفسه .

وقد تلاحظ على ابن الرومي تعبيرات كالتى تسمى في عصرنا هذا بالتعبيرات الافرنجية فى مثل البيت

كما لو هجاكم شاعر حل قتله
كذاك فأوفوا مادحا دية القتل

وقد يلاحظ ذلك فى اكاره الهتفات مثل قوله « ضلة ! ضلة ! » « سوءة . سوءة » و « فى سبيل الشيطان منك نصيبى » الى أشباه ذلك من اللفظات الكثيرة فى تعبيرات اللغات الأوربية . فيرد على الخاطر أنه كان - لهذا - يعرف الاغريقية ويتأثر بها فى أسلوبه ، أو يرد على الخاطر أن هذه التعبيرات من أثر العجبة فى سليقته والعادة فى لسانه . ولكنها ملاحظة لاتستلزم هذه النتيجة ولا نستطيع أن نعزها بملاحظات أخرى من قبيلها . ومن السهل جدا أن نقول أن أمثال تلك التعبيرات القليلة سرت الى ابن الرومي من دراسة الكتب المترجمة ومعالجة التديلات المنطقية فى كلامه ومساجلاته ، وأن الهتفات مألوفة فيمن كان له مزاج كمزاجه المتوفز عرييا أو أعجيبا بلا خلاف . ذلك أسهل من القول باللغة الأعجبية الذى استضعفناه فيما تقدم من الكلام على تعليم الرجل ومعلوماته .

فى أى باب من أبواب الشعر كان ابن الرومي يجيد خاصة ؟

سؤال لا بد أن يخطر لنا فى معرض الكلام على صناعته وأسلوبه وأرى أن الكثيرين سيقولون - أو قد قالوا - انه هو باب الهجاء لأنه اشتهر به وشاع أنه مات بسببه ، فلنعلم اذن أنهم مخطئون فى هذا الحكم لأن ابن الرومي كان يجيد فى أبواب الشعر كلها على حد سواء ويعطى قصائده جميعا بمقدار واحد من عنايته واتقانه .

وخذ مثلاً أقواله فى الحكمة وهى أقل ما اشتهر به تجدد له مئات من الأبيات التى تسير مسير الأمثال وتخرج من عداد تلك الأفسكار المطروقة التى يتفهبق بها من يحبون الاشتهار بالبيت الحكيم والمثل السائر ، ولو أننا رجعنا الى أبياته التى مرت بنا فى هذا الكتاب لما ألفينا بينها تفاوتاً فى الطبقة بين غرض وغرض وباب وباب ، وإنما اشتهر بالهجاء لأن الهجاء أشهر وأمير لا لأنه يجيد فيه أكثر من اجادته فى المديح أو فى الغزل أو الصفات ، فلو أن الألسن تتسائر بالوصف البارع كما تتسائر بالهجاء اللاذع نغضى وصف ابن الرومى على هجائه لكثرة ما قال وأجاد فى الوصف حتى خلال قصائد الهجاء .

وأغرب من هذا الاستواء فى طبقة القول أنك تقرأ الأبيات التى مرت بك فى هذا الكتاب فتحسب أنها نظمت كلها فى عمر واحد ولا تدري أيها شعر الشباب وأيها شعر الكهولة والشيخوخة الا ما يندب فيه شبابه ويبرم بسنه ، فانظر مثلاً الى الأبيات التالية :

قل لأيوب والكلام تسجل	والجوابات ذات يوم تدا
اسكتوا بعدها فلا تذكروا الله	وم ، حياء . فاتم الآجال
انا شؤمى فيما تقولون عزا	ل ، ولكن شؤمكم قتال
بالذى أدرك المؤيد منكم	وابن سعدان تضرب للأمثال
زرتموه والصالحات عليه	مقيلات فادبر الاقبال
حين درت له أفويق دنيا	ه دلفتم له فكان الفصال
ان شؤما حلت به عقدة المذ	ك لشؤم تزول منه الجبال
ليس بدعامن الحوادث أن يعز	ل وال وتخفق الآمال
انما البدع أن تزول أمور	لم يكن يهتدى اليها الزوال
كالذى جاق بالمؤيد منكم	بعد ما . نوطت به الآمال
ذلك شؤم يا بنى أم شسيخ	يمكن القائلين فيه المقال
ذلك شؤم فيه سمام الأكاعى	ناجز النقد ، ليس فيه مطال
ذاك شؤم كالسيل عفى على الة	طر جلال كما يكون الجلال
ذاك شؤم لو جاور البحر يوم	ين لأمسى وليس فيه بلال

فهذه قطعة نظمها في نحو الثلاثين من عمره ، لأنها نظمت في نكبة
« المؤيد » . فقابل بينها وبين القطعة التالية التي نظمها وهو في
الخامسة والخمسين .

كبرت وفي خمس وخمسين مكبر
وشبت ، فألحاظ المها عنك نقر

إذا ما رأتك البيض صمدت وربما
غدوت ، وطرف البيض نحوك أصور

وما ذلتك الغايات بصدها
وان كان من أحكامها ما يجسور

أعر طرفك المرأة وانظر فان نبا
بعينيك عنك الشيب فالبيض أعذر

إذا شئت عين الفتى وجهه نفسه
فصين سواء بالشناة أجدر

أو قابل بينها وبين هذه القطعة التي نظمها قيل وفاته على لسان
العزير :

وأكبر منها أنها لا تكدر	أيادي بنى الجراح عندي كبيرة
عليك ، ولكن المواعيد تذكر	هم القوم ينسون الأيادي منهم
وأغفلت حتى قيل أشعث أغبر	وان كنت قد أهملت بمد رعاية
سريع ، وأما نفعه فمؤخر	وقلدت شغلا ضره لي معجسل
وأصفره كفا ، فكم أتصبرا	أروح وأغدو فيه أنصب عنامل

.

ويجذب أمثالي وواديك أخضر	أيعطش أمثالي وواديك فائض
وأنتك بيت الحمد بالطول تمر	أبي ذاك أن الطول منك سجية
بحكم هوى ، فالحق عندك مؤثر	وانك لم تؤثر على الحق لذة
فأفضلها الأمر الذي تتخير	وما زلت تختار الأمور بحكمة

فانظر حين تقرن هذه الأبيات بعضها ببعض هل ترى بينها من تفاوت في الصناعة أو اختلاف في روح الشعر ونسج الكلام وطريقة التركيب وتناوؤ المفردات ؟ فهي وغيرها من قصائده التي نظمت من العشرين الى الستين طبقة واحدة من هذه الناحية لا يستطيع أن تتحقق فيها مزية سن على سن ولا فترة على فترة . وتعليل ذلك صعب في الشعراء المطبوعين غير ابن الرومي، أما هو فلا صعوبة في تعليل هذا الاستواء في تركيبه والتشابه في روحه ونسجه ، لأنه ينسج من نزل واحد وبضاعة واحدة ، وهي الشعور الجديد أو شعور الطفولة الفنية التي لازمتها في حياته من المبدأ الى النهاية فلم يتغير فيه الا القليل بعد ما درس نصيبه من اللغة والعلم واستوفى مادته من الزن والصياغة، وكأنه الشجرة التي نضجت مبكرة وبلغت تمامها ورسخت في تربتها ، فثمرتها اليوم كثمرتها بعد سنوات عشر أو بعد عشرين وثلاثين ، ولا عيب في ذلك الا أن تكون الثمرة بسراً لاخير فيه . أما اذا كانت ثمرة جنية كأطيب الثمر في النضرة والحلاوة فالتبكير اذن أصلح من التأخير والبقاء على طبقة واحدة أحب وأكمل من التغيير .

فالكلمة الأولى والأخيرة في هذا المبقرى النادر أنه كان شاعراً في جميع حياته حياً في جميع شعره ، وان الشعر كان لأناس غيره كساء عبد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له جسماً لا تكون بغيره حياة .

خاتمة

بالكلام عن صناعة ابن الرومي تمت الصورة التي استخرجناها له من مجموعة شعره ومتفرق أخباره . وحسبنا أن تتم هذه الصورة لتكون قد بلغنا الغاية من وضع هذا الكتاب وأقمنا - في عرض الطريق - أوضح الأدلة المحسوسة على وحدة المقاييس بين تعبيرات الشعر وتعبيرات الحياة . ونحسب أننا قد أقمنا هذا الدليل في وقت الحاجة إليه عند قراء الأدب الغربي بيننا ، قبل قراء الأدب العربي وحده بفرعيه من قديم وحديث . لأننا نعيش في عصر شعاع فيه بين كثير من الأوربيين أن الشعر شيء بمعزل عن خوالج الحياة ، وانا لا ينبغي أن نتنظر منه مطلبا آخر غير الرونق والطلاوة ، وما الى ذلك من ظواهر قسامة لاتتجاوز البشرة الى ما وراءها من قلوب ونفوس وضماير .

وغير عجيب أن يشيع هذا الرأي الفائل بين الأوربيين في العصر الذي نحن فيه وهو عصر السامة و « الفردية » وآداب الصالونات والمجالس . اذ ماذا تنتظر من شعر يقرؤه انسان قد سئم المشغل العليا وكذب بالاغراض الرفيعة وفقرت فيه قوة العقيدة ؟ وماذا تنتظر من شعر يقرؤه انسان تفرض عليه « الفردية » أن يظل فردا معزولا بين أفراد معزولين ؟ وماذا تنتظر من شعر يقرؤه انسان أنيق لا يريد أن يسمع من جليسه في الصالون أو النادي أو القهوة الا شقشقة لسان وأحاديث فراغ ؟ انك لاتنتظر من هذا الانسان أن يتطلب في الشعر ما يتطلبه الانسان الذي تنشط نفسه للعقيدة ولو نشاط المكافحة والثوران أو يطلبه الانسان الذي تتصل بينه وبين الأحياء من حوله وشائج دم لاتزال تنقل منه اليهم كما تنقل اليه ، أو يتطلبه الانسان الذي يحس أن الكون مجال حياة وأسرار يولد فيه مخلوقا حيا عريق الأضول في آباد ليس لها نهاية ، لاعضوا في « صالون » أو جليسا في قهوة أو سمير في سهرات مجنون .. كلا ! انك لاتنتظر من انسان

السامة والفردية والصالون أن يقرأ شعرا كالذي يقرؤه انسان النشاط
القلبي والشائج الآدمية والكون الأبدى المستهول الوضوح والخفاء
على السواء ، فغير عجيب كما قلنا أن يشيع رأى أصحاب الروتق والطلاء
فى هذا العصر ، وما بقى فيه للانسان من مطلب عزيز متفق عليه غير
مطلب الراحة الملساء والهدوء الناعم من مزعجات الجهاد .

فاذا كنا ، مع استخراج صورة ابن الرومى من شعره ، قد وفقنا
لاظهار الوحدة العامة بين الشعر والحياة أو بين الفن والحياة كلها -
فذلك حسبا من مقصد جدير بالالتفات خلىق أن يتقرر بيننا قبل أن
يشيع فى أذواقنا رأى السأم والأثرة واثافة المتبطلين .

لكننا نرجو أن تكون قد وفقنا لارضاء التاريخ الى جانب ارضاء
التصوير وارضاء الوحدة بين الشعر والحياة ، وحسبنا فى هذا أيضا
أنا سندع ترجمة ابن الرومى هنا خيرا مما تسلمناها من شتات الماضى
سحة فى الأخبار ورجحانا فى الاحتمالات ، ومن هذه الأخبار أخبار
تتعلق بسولده ووفاته ، وأخبار أخرى تتعلق بأخلاقه ومعيشته ، ومنها
أخبار نلقاها الناقلون بالتسليم وجرت فى التراجم مجرى المقررات
ولا مصدر لها الا خطأ عارض فى طبع بعض التواريخ . كالخبر الذى
ينقل عن ابن خلكان ويقال فيه أن المتنبى روى عن ابن الرومى
شعره وبينهما ما بينهما من بعدى الزمان والمكان فيأخذ الناقلون
ويقبله منهم من يقبل ويحار فيه من يحار ، وانما هو اسم «المسيبى»
حرفه الطابعون الى اسم « المتنبى » فسرى الخطأ سريانه فى الكتب
الحديثة بلا شذوذ وغير ذلك بكثير ليس يغنيا فى صدد هذه
الخاتمة أن نحصيه وما شاكلة ونحا نحوه فى جميع المصادر والمنقولات
لأننا نقصد الى تصحيح ما لاح لنا خطؤه ولا نقصد الى احصائه على
المخلصين .



وبعد فمن تمام التعريف بابن الرومى أن نختم كتابنا بمختارات له

لم نعتد فيها الدلالة التاريخية التي توخيناها في شواهد الفصول السابقة ، ولا ريب أن هذه الشواهد معرض حسن تبدو فيه شاعرية المترجم في نواح كثيرة متنوعة . ولكننا نعتقد أن المختارات التي تقرأ لذاتها لا لموقعها من الترجمة أخرى أن تسم المعرفة بشاعريته من جميع نواحيها وهامى أولاء تلك المختارات معروضة فيما يلي لتدل على معدن شعره لا على أحسن ما فيه :



مركز بحوث ودراسات في الدراسات الإسلامية

الطبيعة والحياة

(الربيع شباب الطبيعة)

وغدا يسوى النبت بالقسم
خضرا ، وأزهر غير ذى كسم
فكانه قد طم بالجلم (١)
متأرجح الأسحار والقمم
والطير فيه عتيدة الطعم
وحمامه تضحى بمختصم
ياقنوت تحت لآلىء تؤم
فكانه در على لم
فقداء يهز ثابت الجمم (٢)
هار حسبك شافى قرم
صيف يكسه لسكالهم
نعمان أنت محاسن النعم
آلاء ذى الجبروت والعظم
ليرين كيف عجائب الحكم
وتضىء فى محلوك الظلم
لم تشتعل فى ذلك الفحم
ما احمر منها فى ضحى الرمم (٣)
نهلت وعلت من دموع دم
أضحت بها الوجنات فى ذمم
تزهى بها الأبصار فى القسم
الاتطول بارىء النسبم

ضحك الربيع الى بكى الديم
ما بين أخضر لابس كسما
متلاحق الأطراف متق
متبلج الضحوات مشرقها
تجد الوحوش به كفايتها
فظباؤه تضحى بمنتطح
والروض فى قطع الزبرجد وال
طل يرققه على ورق
حشد الربيع مع الربيع له
والدولة الزهراء والزمن المسز
ان الربيع لكالشباب وان ال
أشقائق النعمان بين ربي
غدت الشقائق وهى واصفة
ترف لأبصار كحلن بها
شغل تزيدك فى النهار سنى
أعجب بها شملا على فحم
وكانما لمع السواد الى
حدق العواشق وسط مقل
هاتيك أو خيلان غالية
يا للشقائق انها قسم
ما كان يهدى مثلها تحفا

(١) يطمه بالجلم يملوه بالمقص

(٢) جمع جملة والمقصود بها هنا رهوس الشجر

(٣) المطر الخفيف الدائم

(السحاب)

متهلل زجل ، تحن رواعد
سدت أوائله سبيل أواخر
فسجا ، وأسعد حاله بدره
وتنفت في الصبا فتبجت
حتى اذا قضيت لقيمان الملا
طقت رواياه تجر مزادها
وتضاحك الروض الكئيب لصبوه
وتنست نفحهاؤه فكأنه
وتفرد المكاء فيه كأنه
في حجزتيه ، وتستطير بروق
لم يدر سائقهن كيف يسوق
منه - سواعد ثروة وعروق
منه الكلى ، فأديمه معقوق
عنه حقوق بعدهن حقوق
فوق الربى ، ومزادها (١) مشقوق
حتى تنفق نوره المرتوق
مسك تفضوع ، فأره مفتوق
طرب تملل بالفناء مشوق

(روضة)

وروضة عذراء غير عانسة جادت لها كل سماء راجسة

رائحة بالفيث أو مغالسه

فأصبحت من كل وشى لابسه
ضاحكة النوار غير عابسه
فيها شمس للبهار وارسه
تروقت النور منها الناكسه
خضراء ما فيها خلاه يابسه
كأنها معشوقه مؤانسه
كأنها جماجم الشماسه
بعين يقظى وبجيد فاعسه

لؤلؤة الطل عليها فارسه

وخرم في صيفه الطياله
كأنما تلك الفروع المائسه
وصفوة النعمان والقوابسه
تكاد تحت الظلمات الدامسه
يحكى الطواويس غدته مطاوسه
تغمسها في اللازورد غامسه
من ناصح الحمره ربا قالسه
تهوى اليها كل كف قابسه

(١) المزاد ما يوضع فيه الزاد

الرجس

يا حبذا الرجس ريحانة
كأنه من طيب أرواحه
يا حسنه في العين يا حسنه !
كأنما الطل على نوره
لألف مفسوق ومصبوح
ركب من روح ومن روح
من لامح للشرب مملوح
ماء عيون غير مسفوح

الهجرة في الصحراء

وهاجرة بيضاء يعذى بياضها
أظل اذا كافحتها وكأنتي
بديومة لا ظل في صحصحانها
تري الآل فيها يلطم الآل مائجنا
سوادا كأن الوجه منه محمم
بوهاجها دون اللثام ملثم
ولا ماء لكن قورها (١) الدهر عوم
وبارحها المسموم للوجه الطم

خابط الليل في القياض

وليل - غشاليل من الدجن فوقه -
عفا جلبه آي الهدى من سمانه
لبست دجاء الجون ثم هتكته
عذافرة تنقض من كل زجرة
يخوض عليها لجة الهول راكب
نجيب من الفتيان فوق نجية
فريدين، يمضيها وتمضيه في الدجي
يربها الهدى حدساً، وتنجو برحله،
على ظهر مرت (٢) ليس فيه معرج
ينوح به بوم وتعزف جنة
يخال بها من رز هذا وهذه
تمسفته اما لخفض أناله
فليس لنجم في غواشيه منجم
وأعلامه من أرضه فهي طسم
بوجناء ينميا غرير وشدقم (٣)
كما انقض مردى (٤) المنجنيق الملمم
هو السيف الا أنه لا يثلم
من العيس، في يهاء والليل أيهم
كسراء يمضيها وتمضيه لهزم
ودون الهدى سد من الليل مبهم
ولكن مخب للركاب ومسعم (٥)
فيعوى لها سيد ويضبح سسم (٦)
اذا اختلف الصوتان عرس وماتم
واما سأم الخفض، والخفض يسأم

(٢) فحلان مشهوران من الأبل

(٤) أرض قفر لآليات بها

(٦) نعلب

(١) أصغر الجبال

(٣) المردي حجر زبرجده

(٥) السم السريع السير

الاسفار

الى ، وأغراني برفض المطالب
وان كنت في الأثراء أربح راغب
بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
فقير أتاه الفقر من كل جانب
قوى : وأعياني اطلاع المغايب
وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
وأستار غيب الله دون العواقب
ومن أين والغايات بعد المذاهب

أذاقتني الأسفار ماكره الفنى
فأصبحت في الأثراء أزهده زاهد
حريصاً جباناً ، أشتهى ثم اتهمى
ومن راح ذا حرص وجبن فانه
تنازعنى رغب ورهب كلاهما
فقدمت رجلا رغبة فى رغبة،
أخاف على نفسى وأرجو مفازها،
الا من يرينى غايتى قبل مذهبي!

سفر البر

رهب اعتساف الأرض ذات المناكب
على من التفرير بعد التجارب
لقيت من البحر ايضاض الذوائب
شغفت لبغضيها بحب المجادب
تحامق دهر جد بى كالملاعب
يعابثنى مذ كنت ، غير مطاب
برحلى أتاها بالغيوث السواكب
تمايل صاحبها تمايل شارب
واخصاب مزور عن الماجد ناكب
مميل غريق الثوب لهفان لاغب
ولا نزل ، ايان ذلك لساغب؟
وفى سهر يستغرق الليل واصب
بن الوكف تحت المدجنات الهواضب
تصر نواحيه صرير الجنادب
كما انقض صقر الدجن فوق الأراب

ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة
وصبرى على الأقتار أيسر محملا
لقيت من البر التباريح بعد ما
سقيت - على رى به ألف مطرة
ولم أسقها ، بل ساقها لمكيدتى
الى الله أشكوسخف دهرى فانه
أبى أن يفيث الأرض، حتى اذا ارتمت
سقى الأرض من أجلى فأضحت مزلة
لتعويق سيرى أو دحوض مطيتى،
فملت الى خان مرث بناؤه
فلم ألق فيه مستراحاً لمتعب
فمازلت فى خوف وجوع ووحشة
يؤرقنى سقف كأنى تحته
تراه اذا ما الطين أثقل منه
وكم خان سفرخان فانقض فوقهم

ولم أنس ما لاقيت أيام صحوه
وما زال ضاحي البر يشرب أهله
فان فاته قطر وثلج فانه
فذاك بلاء البر عندي شاتياً،
ألا رب نار بالفضاء اصطليتها
اذا ظلت البيداء تطفو أكامها
فدع عنك ذكر البر ، أنى رأته
كلا نزليسه صيفه وشتاؤه
لهات مميت تحت يضاء سخنة
يجف اذا ما الريق أصبح عاصباً،
فينع منى الماء والريح جاهد،
وما زال يبغيني النوف موارباً
فطوراً يفاديني بلص مصلت ،
الى أن وقانى الله مجذور شره
فأقلت من ذؤبانه وأسكوده

من الصر فيه والثلوج الأشاهب
بسوطى عذاب جامد بعد ذائب
رهين بساف تارة وبخاصب .
وكم لى من صيف به ذى مثالب
من الضح يودى لفتحها بالحواجب
وترسب فى غمر من الآل ناضب
لمن خاف هول البحر شرالمهارب
خلاف لما أهواه غير مصاقب
ورى مفيت تحت أسحم صائب
ويغدق لى والريق ليس بعاصب
ويغرقنى والرى رطب المحالب
سيحوم على قتلى - وغير موارب
وطوراً يمسينى بورد الشوارب
بعزته ، والله أغلب غالب
وخرا به افلات أتوب تائب

السفر بحرا بديلة

وأما بلاء البحر عندي فـ
ولو تاب عقلى لم أدع ذكر بعضه
ولم لا؟ ولو ألقيت فيه وصخرة
ولم أتعلم قط من ذى سباحة
فأيسر اشفاقى من الماء أننى
وأخشى الردى منه على كل شارب
أظلم اذا هزته ريح وللآلات
كأنى أرى فيهن فرسان بهمة
فان قلت لى قد يركب اليم طاميا

طوانى على روع من الروح واقب (١)
ولكنه من هوله غير تائب
لواقيت منه القمر أول راسب
سوى النوص، والمضغوف غير مغالب
أمر به فى الكوز مر المجانب!
فكيف بأمنيه على نفس راكب
له الشمس أمواجاً طوال الغوارب
يليجون نحوى بالسيوف القواضب
ودجلة عند اليم بعض المذائب (٢)

فلا عذر فيها لامرئ هاب مثلها،
فان احتجاجي عنك ليس بنائم
لدجلة خب ليس لليم ، انها
تظامن حتى تطمنن قلوبنا ،
وأجرافها رهن بكل خيانة
يرانا - اذا هاجت بها الريح هيجة
نوائل (١) من زلزالها نحو خسفها،
زلازل موج في غمار زواخر ،
ولليم أعدار بعرض متسونه
ولست تراه في الرياح مزلزلا
وان خيف موج عيد منه بساحل
ويلفظ ما فيه ، فليس معاجلا
يعلل غسرقاه الى أن يغيثهم
فتلقى الدلافين الكريم طباعاها
مراكب للقوم الذين كبا بهم ،
وينقض ألواح السفين فكلها
وما أنا بالراضى عن البحر مركبا

وفى اللجة الخضراء عذر لها تب
وان ييانى ليس عنى بعازب
ترامى بحلم تحته جهل واثب
وتغضب من مزح الرياح اللواعب
وغدر ، ففيها كل عيب لعائب
تزلزل فى حوماتها بالقوارب -
فلا خير فى أوساطها والجوانب
وهداث خسف فى شطوط خوارب
وما فيه من آذيه المتراكب
بما فيه - الا فى الشداد الغوالب
خلى من الأجراف ذات الكباكب
غريقا بغت يزهد النفس كارب
بصنع لطيف منهم خير مصاحب:
هناك رعالا عند نكب النواكب
فهم وسطه غرقى وهم فى مراكب
منج لدى نوب من الكسرنائب
ولكننى عارضت شغب المشاغب

الطرد والقنص

(صيد الطير)

ولو أوجست مفداى ما بتن هجما
جسومهم شتى وأرواحهم معا
فلو أرسلت كالنبيل لم تعد موقعا
بأفديك . لبساه مجيبا فأسرعا
وجارحة قلبا من الجمر أصمعا
خرايط حمرا تحل السم منقعا
من البندق الموزون قل وأقنعا
لهن الى الأنصاف ساقا وأذرا
فظلت سجودا للرماة وركما
وظلت على حوض المنية شرعا
تخال أديم الأرض منهن أبقعا
نشئت من ألافها ما تجمعا
قصرنا فواه دون ما كان أزمعا
أناخ به منا منيخ فجمعجا
إذا ما علا روق الضحى فترفعا
ليحضر وفداً أو ليجمع مجعما
على لجة : بدعا من الأمر مبدعا

وقد أعتدى للطير والظير هجع
بخلين تما بي ثلاثة اخسوة
مطيعين أهواء توافت على هوى
إذا ما دعا منا خليل خليله :
كأن له فى كل عضو ومفصل
فأثروا الى آلاتهم فتقلدوا
محملة زادا خفيفا مناطه
وقد وقفوا للحائئات (١) وشمزوا
وجدت قسى القوم فى الطير جدنا
فظل صحابى ناعمين بيؤسها
طرايح من سود وبيض نواعس
تؤلف منها بين شتى ، وإنما
فكم ظاعن منهن مزعم رحلة
وكم قادم منهن مرتاد منزل
كان بنات الماء فى صرح منه
زرابى كسرى بثها فى صحانه
ترك ريسا نى خريف ، وروضة

أدوات القتل

الرماة

لهم عدة تكفيهم كل عدة : بنات المنايا والحنى الموتر
يزلون عن أكباد كل حنيسة خفافاً مع الآجال تملو وتقصر
نواها نواهم فى المنايا ، كأنسا مواقعها فيما يشاءون تقدر
لها ألسن ما تستفيق لهاها يكاد لعاب الموت منهن يقطر

سيف

خير ما استعصمت به الكف عذب ذكر حده ، أنيث المهز
ما تأملته بعينيك أرعدت صفحتاه من غير هز
مثله أفزع الشجاع الى الدر ع فعسالى به على كل بز
ما يسالى أصمت شفتاه فى محز أو جازتا عن محز

مجالس الشراب واللهو

القيان والاتراك

(فى مجلس القاسم)

أظل اذا شاهدت يوم نعيمه
بمرى من الدنيا جميل ومسمع
تحت الحسان المحسنات كثوسه
من الوضع اللبس الشفاء كأنما
يرفعن أصواتا لدانا وتارة
كفلن لنا لما اصطفتن حيانا
فما برحت تهدي الينا عجائب (١)
فتاة من الأتراك ترمى بأسم
كان زمير القاصبات أعارها
ظللنا لها نصبا تشك قلوبنا
وما « جنسار » بالمقصر شاؤها
لطيفة قد الشدى تسند عودها
تظامن عن قد الطوال قوامها
ورقاصة بالطبل والصنج كاعب
أتيح لها فى جسمها رفد رافد
اذا هى قامت فى الشفوف أضاءها

كأنى فى الفردوس فوق الأرايك
لدى ملك بالحق ، لا متمالك
بمدح له قد سار جم المسالك
يفهن بأفواه الطبء الأوارك
ينمنن وشيا غير وشى الحوائك
بترحيل اضياف الهموم السوادك (٢)
عجائب تصبى كل صاب وناسك
يصبن الحشافى السلم لافى المعارك
شجاء وسجع الباكيات الضواحك
بذاك الشجا الفتان لا بالنيازك
ولا المتعدى قصداهدى المسالك
الى ناجم فى ساحة الصدر فالك
وأربى على قد القصار الحواتك
لها غنج مخنث، وتكره فاتك
وان نالها فى خصرها نهك ناهك
سناها فشفقت عن سبيكة سابك

سبايا اليهن استبء عقولنا
ممالك ملكن اقتدار الممالك

السوداء الحسناء

(في مجلس عبد الملك بن صالح)

سوداء لم تنتسب الى برص الشفة
ليست من العبس الا كف ، ولا
بل من بنات الملوك ناعمة
في لين سمورة تخيرها الفر
تذكرك المسك والفوالى والس
هيفاء زيت بخص محتضن
غصن من الأبنسوس ألف من
يهتز من ناهديه في ثمر
أكسبها الحب أنها صبغت
فانصرفت نحوها الضائر والأبر
يفتر ذلك السوداء عن يقق
كأنها والمزاح يضحكها
سجاء كالمهرة المطهمة الده

ر ولا كلفسة ولا بهسق
الفلح الشفاه ، الخبائث العرق
تنشر بالبدل ميت الشبق
اء ، أو لين جيد الدلق (١)
ك ذوات النسيم والعبق
أوفى عليه نهود معتق
تؤتزر معجب ومنتطق
ومن دواجي ذراه في ورق
صبغة حب القلوب والحدق
صار يعنقن أيما عنق
من ثمرها كاللاليء النسق
ليل تفرى دجاه عن فلق
سجاء تنبضو أوائل السيق

الشراب في الخمائل

وصفراء بكر ، لا قذاها مفيب
ينم على الأمرين فرط صفائها
ولا سر من حلت حشاه مكم
وسورتها حتى يسوح المجعج

هو الورد في بيض الكتوس ، وان بدت

لعينك في بيض الوجوه فعندم

مذاق ومسرى في العروق كلاهما
إذا نزلت بالهم في دار أهله
أقامت بيت النار تسعين حجة
الذ من البرء الجديد وأنعم
غدا الهم وهو المرهق المتهم
وعشراً يصلح حولها ويزمزم

(١) حيوان يقرب من السنور في الحجم

سقتنى بها يضاء ، فوها وكأسها شيها مذاق عند من يتعلم
لدى روضة فيها من النور أعين ترقق دما ، بل ثفور تبسم
يضاحك روق الشمس منها مضاحك
مدامعه من واقع الطل سجم

كستعبر مستبشر بعد حزنة لين خليط قوضوا ثم خيسوا
يفازلنى فيها غزالان منها ريب الفيافى والريب المتوم
إذا نصبا جيديها فكلاهما سواء وأبريق لدى مقدم (١)
ثلاثة أظب نجرها غير واحد لذى اللهو فيها كلها متنعم
غزال ، وأبريق رذوم : وغادة تحسرك من أوتارها وتنغم



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

(١) المقدم الذى عليه القدم وهو شبه مصفاة

الموسيقى والغناء

في وحيد الغنية

يا خليلي تيمنى وحيد
غادة زانها من العفن قد
وزهاها من فرعها ومن الخدي
أوقد الحسن ناره في وحيد
فهي برد بخدها وسلام
لم تضر قط وجهها وهو مساء
ما لما تصطليه من وجتها
مثل ذلك الرضاب أطفأ ذلك
فقوادى بها معنى عييد
ومن الظبي مقلتان وجيد
ن ذلك السواد والتوريد
فوق خد ما شابه تخديد
وهي للعاشقين جهد جهيد
وتذيب القلوب وهي حديد
غير ترشاف ريقها تبريد
الوجد لولا الأباء والتصريد (١)



وغيرير بحسناها قال : صنفها !
يدهل القول انها أحسن الأش
شمس دجن ، كلا المنيرين - من شمس وبدر - من نورها يستفيد
تجلى للناظرين اليها
ظبية تسكن القلوب وترعا
تغنى ، كأنها لا تغنى
لاتراها هناك تجحظ عين
من هدو وليس فيه انقطاع
مد في شأو صوتها نفس كاف
وأرق الدلال والفنج منه
قراه يموت طورا ويحيا
فيه وشي ، وفيه حل من الذ
قلت : أمران ، هسين وشديد
ياء طرا ويمر التحديد
فشقى بحسناها وسعيد
ها ، وقمرية لها تفريد
من سكون الأوصال ، وهي تجيد
لك منها ، ولا يدر ويريد
وسنجو وما به تبليد
كأنقاس عاشقها مديد
وبراه الشجا فكاد يبيد
متلذ بسيطه والنشيد
فم مصوغ يختال فيه القصيد

كل شيء لها بذاك شهيد
عنده يوجد السرور الفريد
ولها الدهر سامع مستعيد
راجح حلمه ، ويفوى رشيد
بهواها منهن حيث تريد
وتر الرجف فيه سهم شديد
أيقن القوم أنها ستصيد
وهي في الضرب زلزل وعقيد
رظلوا وهم لديها عبيد
برقاها ، وما لديهم عبيد

طاب فوها وما ترجع فيه .
ثعب (١) ينقع الصدى ، وغناء
فلها الدهر لائم مستزيد
في هوى مثلها يخف حلیم
ما تعاطى القلوب الا أصابت
وتر العزف في يديها مضاه
وإذا أنبضته للشرب يوماً
معبد في الغناء وابن سريج
عيها أنها اذا غنت الأحرا
واستزادت قلوبهم من هواها



عن وحيد فحقها التوحيد
فلها في القلوب حب وحيد
ضل عنه التوفيق والتسيد
وهو المسترث والمستزيد
وهي تزهد حياته وتكيد
عنده والذميم منها حميد
ما لها فيها جيماً نديد
وهي بلوى، يشيب منها وليد
من هواها، وحيث حلت قعيد
وخلفى ، فأين عنه أجد ؟
ان شيطان جها لمريد
كرة الطرف مبدىء ومعيد
أم لها كل ساعة تجديد؟
عرض يملى غرائباً ويفيد

وحسان عرضن لي، قلت: مهلاً
حسنها في العيون حسن وحيد
ونصيح يلومني في هواها
لو رأى من يلوم فيه، لأضحى
ضلة للفؤاد يخسر عليها
سحرته بمقلتيها فأضحت
خلقت فتنة غناء وحسناً
فهى نعمى ، يمد منها كبير
لى حيث انصرفت منها رفيق
عن يمينى وعن شمالى وقدامى
سد شيطان جها كل فج
ليت شعري اذا أدام اليها
أهى شيء لا تسأم العين منه؟
بل هى العيش لا يزال متى است

منظر ، مسع ، معان من الله .
لا يدب الملل فيها ، ولا ين
حسنها في العيون حسن جديد
هو ، عتاد لما يحب عتيد
قض من عقد سحرها توكيد
فلها في القلوب حب جديد

أخذ الله ياوحيد لقلبي
حظ غيري من وصلكم قررة ال
غير أنى معلل منك نفسى
ما تزالين نظرة منك موت
تتلاقى ، فلحظة منك وعد
قد تركت الصحاح مرضى يمي
ضافنى حبك الغريب ، فالوى
عجبا لى ، ان الغريب مقيم
قد مللنا من ستر شىء مليح
هو فى القلب وهو أبعد من نج
منك ما يأخذ المدلل المقيد
مين ، وحظى البكاء والتسويد
بعادات خلا لهن وعيد
لى ميت ، ونظرة تخليد
بوصال ، ولحظة تهديد
دون نحولا وأنت خوط يمد
بالرقاد النسيب فهو طريد
بين جنبى ، والنسيب شريد
نشسته ، فهل له تجريد!
م التريا فهو القريب البعيد

رثاء بستان الغنية

انا الى الله راجعون لقد
ما أولع الدهر فى تصرفه
يعدو على نفسه فيلبها ،
كم ملبس لايعاب هتسكه
أودى ببستان وهى حلتته
أطار قمرية الغنفاء عن الأر
لله ما ضمنت حفيرتها
أضحت من الساكنى حفائرهم
مطيبى كسل تربة رخبث

غال الردى سيرة من السير
بكل زين له ومفتخر
الاعتاد المعددى النمر
عن جلدة منه شثة الوبر (١)
فقد غدا عاريا من الحبر
ض فآى القلوب لم يطير
من حسن مرأى وطهر مختبر
سكنى الفوالى مداهن السرور
ومؤنسيها بشر مجتسور

يا حر صدرى على ثلاثة أمواه هريقت في التسرب والمدر
 ماء شباب ونعمة مزجا بماء ذاك الحياء والخفسر
 لو يعلم القبر من أتيح له لاتحفر القبر غير محففر
 أو لأباها ، فسان حينذ عن رسمه درة من الدرر
 ان ترى ضمها لأفضل محجو ج لصب وخير مغمسر
 أقست بالفضج من ملاحظها وسحر ذاك السجو والقتر
 لو عقرت حول قبرها بقسر الأوس مكان القلاص والمهر
 والدر نظم على التراب منهن ، وأشكاله من العتسر
 واتحرت في فنائنه بهم الحرب وصيد الملوك من مفسر
 ثم سقيت الدماء تربتها لم أشف مافي الفؤاد من وحر
 نكك يا نفس فأنحري أسفا فان هذا أوان متحسر
 ما حسن أن تذوب مهجتها ومهجتي لم ترق ولم تسر
 لا ينكر الدهر بعد مهلكها هلك ذوات الجلال والخطر



 مرآت حقیقت کبیر علی صدری

بستان يا حمرتا على زهر فيك من اللهو ، بل على ثمر
 بستان لهني لحسن وجهك والاحسان ، صارا معا الى العفر
 بستان أضحي الفؤاد في وله ياترحة السمع منه والبصر
 بستان مامنك لامرئ عوض من البساتين ، لا ولا البشر
 بستان أسقيت من مدامعنا الدمع ، وأعقت عقبية المطر
 بل حق سقياك أن تكون من الصهباء ، صهباء حصص أو جدر
 بل من رحيق الجنان يقطب بالمسك ، سلالاته بلا عسكر
 بل من نجيع القلوب يمزج بالعطف وصفو الوداد لا الكدر
 يا نعمة الله في برتسه أصبحت أحدي فواقر الفقر
 يا غضة السن يا صغيرتها أمسيت أحدي المصائب الكبر
 أنى اختصرت الطريق يا سكنى الى لقاء الأكفان والحفر
 أنى تجشمت في الحوادث ما جشمت من كره ذلك السفر
 أحملك من مورد قصدت له لايتهى ورده الى صدر

يا شمس زهر الشموس ، يا قمر الأقمار حسناً يا زهرة الزهر
أبعد ما كنت باب مبتهيج
أصبحت كالتراب غير راجحة
أصابنا الدهر فيك أكمل ما كذ
لم تقتحمك العيون من صغر
فكيف تسلك والأسى أبدا
كل ذنوب الزمان مفتسر
تبطل العود عند فقدكم
وغاب عنا السرور بعدكم
وفاض ماء النعيم يتبعكم
فان سمعنا لمزهر وترا
أما وثوم البلى وقسوته
يا بشرا صاغه المصور من
بل من شعاع العقول حين ترى العي
لا تحسبوني عنيت بعدكم
لا تحسبوني أنست بعدكم
لا تحسبوني استرحت بعدكم
لا تحسبوا العين بعدكم سرحت
يا بى لها ذاك أن ناظرها
وكيف بالنوم للمباشر أطرا
سقى ورعياً لعيشة معكم
أمتعنى دهرها بغيظته
كانت لياليه كلها سحراً
لهو أطفنا بى كره لذته
ولم نل من جناه نهمتنا
وكم قد شربت الرضاب فى قبل

للفس أصبحت باب معتبر
به ، وقد ترجحين بالبدن
ت ، فما رزونا بمجتبر
ولا قلتك النفوس من كبر
فى كبر ، والسلو فى صغر
وذنبه فىك غير مفتسر
وازدجر اللهو كل مزدجر
واحتضر الهم حين محتضر
وانهر الدمع كل منهمر
حن ، فهاتيك عولة الوتر
لقد محا منك أحسن الصور
نور على سنة من الفطر
ب بعين الذكاء والعبير
عنكم بشمس الضحى ولا القمر
الى هديل الحمام فى الشجر
الى نسيم الشمال بالسحر
فى مسرح من مسارح النظر
فى شغل بالسهاد والعبير
ف حبات الحيات والابر
أصبحت من عهدا بمفتقر
على الذى كان فيه من قصر
وكان أيامهن كالسكر
وما فضضنا خواتم العذر
وان حظينا بسوق الزهر
كانت، ولكن شربت بالعر (١)

جدي فم فيه لؤلؤ وجنى نده
غناؤه يشتكى حرارته
كتم لنا فتنة من الفتن الـ
ل بماء السحاب في النقر
وريقه يشتكى من الخصر
خر بلا شهرة من الشهر

كأننى ماطلعت مقبلة
في كفك العود وهو يؤذن بالأحـ
اذ مشيكم مذكري غناءكم
واذ فسادى بكم يذكرنى
كان عيني ما أبهرتك ضحى
كأنها ما رأتك كالملك الأصـ
يا أحسن العالمين حاضرة
كأنها ما رأتك صنادة
يسمن ، أو يستفدن منك شجا
كأننى ما اقترحت ما اقترحت
كأننى ما استعدت مقترحي
وصنت خدأ كساه خالقه
ولو تكبرت كنت معذرة ،
كأننى ما نعمت منك بمرتا
رضيت من منظر بطيف كرى
لولا التعزى بذاك آونة

على يوماً بأملح الطرر
سان ايدان صادق الخبر
مشى الهوينى سواكن البقر
« لنفسدن الطواف فى عمر » (١)
فى مجلسى سـوالوشاة فى سقر
وأكمل الناس عند معتجر
والصدح الورق عكف الزمر
والتمر يتسار من قري هجر
نقى ، فساعفتنى بلا زور (٢)
يوما فكررتة بلا ضجر
الحسن ، فصعرتة عن الصعر
والمسك مالا يعاف بالذفر
ح نعيم ولا بنبتنكر
يمرو ، ومن مسمع بمدكر
لانقطر القلب كل منقطر (٣)

(١) يشير الى قول عمر بن ابي ربيعة من ابيات له

« ابصرتها ليلة ونسوتها
قالت لها اختها نعماتها
بمشين بين المقسم والحجر
لانفسدن الطواف فى عمر »

واعلم بستان كانت تضى هذه الابيات

(٢) الزور المل

(٣) اى لولا التعزى يوصلها فى الخلد .

اللهو حريماً في البدو والحضر
التسهاد بل بالمشيب في الشعر
ذاك وان كان غير محتقراً
نفس ما يتقى من الضرر

ما اتتهك الدهر قبلكم لذوى
أبكيك بالدمع والدماء بل
بل بنحول العظام محتقراً
بل باجتنا ب الشفاء بل بتوخي ال

فانه عنك لؤم مصطبر
وهو على من سواك من خور
جنة عدن غداً وفي نهر
من بذاك الدلال والخور

لا أسأل الله حسن مصطبر
وحزن نفسي عليك من كرم
وقد يعزى الفؤاد أنك في
سيشفع الخور فيك أنك من

هجاء ابي سليمان المظني

فانها نعمة من النعم
كأنني صائم ، ولم أصم
أخذ السياق (١) الحثيث بالكظم
سح فاه لأعظم اللقم
ف ، وعرس الهوم والسدم (٢)
« من أوحشته البلاد لم يقم (٣)
أشرب كأسى ممزوجة بدمى
سيك عهداً لم تؤت من قدم
يريك ماقد عهدت في أمسك الأذنى ، كشيء في سالف الأمم
حار لولا تعجل الهرم
تسادموا كأسهم على ندم
هل بالديار الغداة من صم !
« أحستا » والقوم من في وكم (٤)

ومسمع لا عدمت فرقته
يطول يوم اذا قرنت به
اذا تغنى السيديم ذكيتيره
يفتح فاه من الجهاد كما يه
مجلسه ماتم اللذاذة والقصب
ينشدنا اللهو عند طلغته:
كأنني طول ما أشاهده
تشهده فرط ساعتين فين
يريك ماقد عهدت في أمسك الأذنى ، كشيء في سالف الأمم
عشرته عشرة تبارك في الأع
اذا الندامى دعوه آونة
نبرد ، حتى يظل ينشدنا :
يستظم الشرب أن يقال له

(١) الاحتصار

(٢) الهم مع الندم

(٣) كناية عن اللهو ان يستوحش ليرحل

(٤) شدة الحزن والجزع

وكيف للقوم بالتصنيع ؟ لا كيف
يظهر في وجهه اساءته
يسود من قبح ما يجيء به
يرتاح منه الى الأذان كما
يشدو بصوت يسوء سامعه
أبح فيه شذور حشرجة
نبرته غصّة ، وهزته
لو قدس الله ذو الجلال به
يفزع الصبية الصغار به
يقسوه له القلب - حين يسمعه -
أحلف بالله لا شريك له
ما عرف الله قبله أحداً

، ولو صوروا من السكرم
كانها مسحة من الحمم
حتى كأن قد أسف بالفحم
يرتاح ذو شقة الى علم
تبارك الله باريء النسم
منظومة في مقاطع النغم
مثل نيب التيوس في الغنم
لم يرفع الله طيب السكرم
اذا بكى بعضهم ولم ينم
على أجسائه بلا جرم
فانها غاية من القسم
ما فضل نعمائه على النقم

مركز تحقيقات كميتر علوم رسولي
هجو شنظف

شنظف يا عوذة السموات والأر
ان كان ابليس خالقاً بشراً
صورك المارد اللعين فأعطت
ض وشمس النهار والقمر
فأنت - عندي - من ذلك البشر
ك يدها مقابح الصور

هجو كتيزة

شاهدت في بعض ما شاهدت مسمه
تظل تلقى على من ضم مجلسها
لها غناء يثيب الله سامعه
ظللت أشرب بالأرطال لا طربا
ة كأنما يومها يومان في يوم
قولا ثقيلاً على الأسماع كاللوم
ضعفى ثواب صلاة الليل والصوم
عليه بل طلباً للسكر والنوم

مناعم الخوان

طلاب الآداب

(قصيدة فيها وصف ودعابة قالها في أبي شيبة بن الحاجب وكان قد دعاه واستتر عنه)

نجاك يا ابن الحاجب الحاجب، وأين ينجسو منى الهارب؛
أبعد احرازك ايماننا هاربتنا واعتذر الحاجب؛
يا عجباً اذ ذاك من حالة دافعنا فيها هو الجاذب
حقاً لقد أوليتنا جفوة يحل منها البلد العائب
أنظر بعين العدل تبصر بها أنك عن منهاجه ناكب



لهفى وقد جاءتك جفتالة كل مفسد ساغب لاغب
من كل شذان الحشا لهم (١) يأكل مالا يأكل الحاسب
فكاه كالعصرين من دهره كلاهما في شأنه دائب
ذى معدة ثعلبها لاحس وتارة أرنبها ضاغب
تعلوه حمى شره نافض لكن حمى هضمه صاغب
كانما الفروج في كفه فريسة ضرغامها دارب
وان غدا الشبوط قرناً لهم فخذ شبوطهم التارب
أقسمت لونك لاقيتهم نابك من من أضراسهم نائب

أبشر بكر عاجل اننى بالثأر في أمثالها طالب
لا تحسبني عنك في غفلة عودى وشيك أيها الصاحب

(١) لهم اكل جميع ما على المائدة

قلت لصحبي حين راوغيهم:
سيصنع الله لنا في غمد
كروا علم، الشيخ بتطفيلة
وان زواه منكم جانب .
جوسوا عليه الأرض واستخبروا
لا تنجون منكم فراريجيه
لا تفلتن منكم شبايطة
جدوا فقد جد بكم لاعبا
وليكن الكر على غرة
مقالة قت بها خاطبا

« لاتحزنوا ، قد يشهد الغائب
ان كان أكدي يومنا الخائب
عن عزيمة كوكبها ثاقب
فلا يفتكم ذلك الجانب
حتى يروح الخبر العازب
لا وهب المنجى لها الواهب
لاأقلت الطافي ولا الراسب
وقد يجد الرجل اللاعب
والصيد في مأمنه سارب
وقد يصيب الغرة الخاطب

فاعتزم القوم على غارة
يهدى أبو عثمان كردوسها (١)
يرقل والراية في كفيه

ساند فيها الراجل الراكب
هذاك ، ذاك الطاعن الضارب
قد حنفا الرامح والنائب

والقوم لا قسوك فأعددهم
يسر فراريجك مقرونة
تلك التي مخسبرها ناعم
واذكر بقلب غير مستوهل
أنك من جيران قطر بل
فاسق حليب الكرم شرابه
أحضرهم البكر التي ما اصطلت
تلك التي ما بايتت راهبا
تلك التي ليس لها مشبه

ما يرتضى الأكل والشارب
بها شبايطك يا كاتب
تلك التي منظرها شاحب
يعروه من ذكرى القرى ناخب
وعندك اللقصة والحالب
اذ ليس من شأنهم الرائب
نارا ، فكل خاطب راغب
الاجفا قنديله (٢) الراهب
في الكاس الا الذهب الذائب

(١) طائفة الخيل

(٢) كناية عن اشرافها والاكتفاء بسناها

أو أمها الكبرى (١) التي لم يزل
حققها بالشمس أن ربيت
أعجب بتلك البكر محجوبة
مغلوبة في الدن مسلووبة
بين ترى في الزق مسحوبة
تقتص من واطرها صرعة
الا حمام الأيك في أيسكة
ذات نسيم مسكه فائح
هاتيك هاتيك على مثلها
والنقل والريحان من شأنهم
ولا تنم عن فرجس مؤنس
ريحان روح منهب عطره،
لم يقلح الصيف له صفحة
وزخرف البيت ، كما زخرفت
واجلب لهم حسناء في شدوها
محسنة ليست بخطاءة
بيضاء خسوداً ردفها ناهد
مملوكة بالسيف مفضوبة
تستوهب الجيد اذا أتلت
نعيم من نادمها دائم
كانها والبيت مستضحك
أدمانة تنزب في روضة
واصيب عليهم تحفياً جملة
واغرم لهم من بعد ذا كله

ليل من طلعتها جانب
في حجرها ، والشبه الغالب
مكروبة يجلى بها الكارب،
لها اتصار غالب سالب
اذ حكمت أن يسحب الساحب
ليس لها باك ولا نادب
أو عازف للشرب أو قاصب
وذات لون ورسه خاضب
حام ولاب الحائم اللائب
فلا يعب فقدهما عائب
يشحك عنه الزمن القاطب
والروح اذ ذاك هو الناهب
ولا سقاء عوده الشاسب (٢)
روضة حزن جادها هاضب
لكل ما سرهم - جالب
طائرها الهادل لا الناعب
غيداء رودا ثديها كاعب
لها دلال مالك غاصب
من ظبية أفزعها طالب
وبرح من فارقها واصب
والعود في قبضتها صاحب
جاوبها خشف لها نازب (٣)
يحمى بهن الموعد الكاذب
ما نقل الملاح والقارب

(١) أو لا شبه لها لا أمها الكبرى وهي الشمس التي تمزق طلعتها الظلام

(٢) اليابس

(٣) غزاة نصوت فيجاوبها ولدها - كناية عن مجاوبة العود لفضاء المغنية

وتب من الذنب الذي جتته كما يقولوا حين ترضيهم:
فقد يقال (١) المذنب التائب يا جندا المنهزم التائب

اعتب يوم صالح فيهم لا يس على أمثاله عاتب
ولا يكن يوماً إذا ما انقضى صيح به : لا رجع الذاهب
عجل لهم ذاك ولا تهجم ولا يتب منك بهم واتب
فليس من يادب اخوانه مؤدبا للقوم بل ادب
أخلفنا نوءك موعوده فلا تصبنا ريثك الحاصب
حاشاك أن يلقاك مستطر ومزتك الصاعق لا الصائب

اللوزنج

(وهو حلواء يشبه القطائف تؤدم بدهن النوز)

لا يخطئني منك لوزنج إذا بدا أعجب أو عجيبا
لم تغلق الشهوة أيوبها إلا أبت زلفاه أن يحجبا
لو شاء أن يذهب في صخرة (٢) لسهل الطيب له مذهبا
يدور بالنفخة في جامه دوراً ترى الدهن له لولبا
عاون فيه منظر مخبراً مستحسن مساعد مستعذبا
كالحسن المحسن في شدوه تم فأضحى مطرباً مضرباً
مستكثف الحشو ولكنه أرق قشراً من نسيم الصبا
كانما قدمت جلاليه من أعين الفطر الذي قببا
يخال من قوة خرشائه (٣) شارك في الأجنحة الجندبا
لو أنه صور من خبزه ثغر لكان الواضح الأشنبا
من كل بيضاء يحب الفتى أن يجعل الكف لها مركبا
مدهونة زرقاء ، مدهونة شهباء ، تحكى الأزرق الأشنبا
ملذعين وفم ، حسنت

ذيق لها اللوز فلا مرة مسرت على الذائق الا أبى
واتقند السكر نقاده وشاوروا فى نقده المذهبا
فلا اذا العين رأتهما نبت ولا اذا الضرس علاها نبا

التسبوت

فلا يبعد التسبوت من متلبس ظهرته الحسنى ، ومن متجرد
اذا نش فى سفوده عند فضجه وأخرج من سرباله المتسورد
فتى رعى مرعى بدجلة مخصبا أبى أن يراه زائد غير محمد
الى أن أصابته من الدهر نوبة وقد صار أقصى منية المتجود
فأصدره الصياد عن خير مورد وأورده الشواء أخبث مورد
وجاء به الحمال أطيب مطعم الى الطيب المنفاق غير المصدرد
ويا حبذا امعانا فيه فاضجا كما جاء من تنوره المتوقد
وانى لمشتاق الى عود مثله وان كنت أبدى صفحة المتجدد

الدجاجة

وسميطة صفراء دينارية ثمناً ولوناً زفها لك حزور (١)
عظمت فكادت أن تكون أوزة ونوت فكاد اهابها يتفطر
فلنسا نقشر لحنها عن جلدها وكان تبرأ عن لجين يقشر

(١) غلام حزور بلغ القوة

الفواكه

(فواكه ايلول)

لولا فواكه ايلول اذا اجتمعت من كل نوع ورق الجو والماء
اذن لما حفلت نفسى متى اشتملت على هائلة الجالين غبراء

(الموز)

انه (الفوز) مثل ما فقدته (الموز)
ولهذا التأويل سماه (موزا)
رب فاجعله لى صبوحا وقيلا
وأرى - بل أبت - أن جوابي
نكهة عذبة وطعم لذيذ
لو تكون القلوب مأوى طعام
أنى للحقيق بالشبع السائق
ت) لقد بان فضله لا خفاء
من أفاد المعانى الأسماء
وغبوقا وما أسأت الغذاء
« لاتعالط ، فقد سألت البقاء »
شاهدا نعمة على نعماء
نازعته قلوبنا الاحشاء
من آكله وان كان ماء

كرمة بعنب الرازقي

ورازقى مخطف الخصور
لم يبق منه وهج الحرور
لو أنه يبقى على الدهور
له مذاق العسل المشور
كأنه مخازن البلور
الا ضياء فى ظروف نور
قرط آذان الحسان الحور
ونكهة المسك مع الكافور

وبرد مس الخصر المقرور

باكرته والظهير فى الوكور
بفتية من ولد المنصور
حتى أتينا خيمة النساطور
- وعذر اللذات فى البكور -
املا للمعين من البذور
قبل ارتفاع الشمس للذور

فانتقض كالطاوى من الصقور بطاعة الراغب لا المجبور
ثم جلسنا مجلس المجبور على حفاني جدول مسجور^(١)
أيض مثل المهرق المنشور أو مثل متن المنصل المشهور
ينساب مثل الحية المذعور بين سماطى شجر مسطور

فنيلى الأوطار فى سرور

وكل ما نقضى من الأمور تعلقة عن يومنا المنظور
ومتعة من متع العرور



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم ورسول

المرأة والحب

النساء

أجنت لك الوجد أغصان وكتبان
وفوق ذينك أعناب مهدة
وتحت ذلك عناب تلوح به
غصون بان عليها - الدهر - فاكهة
ونرجس بات سارى العطل يضربه
ألفن من كل شيء طيب حسن
ثمار صدق اذا عاينت ظاهرها
بل حلوة مرة ، طوراً يقال لها
يألت شعري - ولت غير مجدية
لأى أمر مراد بالفنى جمعت
تجاورت فى غصون لسن من شجر
تلك الغصون اللواتى فى أكمتها
يلو بها الله قسوماً كى يبين له
وما ابتلاهم لأعنان ولا عبث
لكن ليثبت فى الأعناق حجته
ومن عجائب ما يمنى الرجال به
مناضلات ببيل لاتقوم له
مستظهرات برأى لايقوم له

فيهن نوعان تفاح ورمان (١)
سود لهن من الظلماء ألوان (٢)
أطرافهن قلوب القوم قنوان (٣)
وما الفواكه مما يحمل البان
وأقحوان منير النور ريان (٤)
فهن فاكهة شتى وريحان
لكنها حين تبلو الطعم خطبان (٥)
شهد، وطوراً يقول الناس ذيفان (٦)
الاستراحة قلب وهو أسوان
تلك الفنون فضمتهم أفنان ؟
لكن غصون لها وصل وهجران
نعم وبؤس وأفراح وأحزان
ذو الطاعة البر من فيه عصيان
ولا لجهل بما يحويه ابطنان
ويحسن العفو، والرحمان رحمان
مستضعفات لنا منهن أقران
كتائب الترك يزجيهن خاقان
قصير عمرو، ولا عمرو ووردان

(١) (الأغصان) إشارة الى القدود و (التفاح) الخدود و (الرمان) النهود

(٢) كرم الأعناب إشارة الى مسترسل الشعور

(٣) (العناب) البنان المخضوب

(٤) (الترجس) إشارة الى الأعين و (الأقحوان) الثغور الناصعة الشبايا

(٥) جمع أخطب مر ويقال أمر من تبع الخطبان

(٦) سم .

من كل قاتلة قتلى ، وآسرة
يولين ما فيه اغرام ، وآونة
ولا يدمن على عهد لمعتقد
يميل طورا بحمل ثم يعدمه
أسرى وليس لها فى الأرض أنخان
يولين ما فيه للمشخوف سلوان
أنى ؟ وهن كما شبن بستان
ويكتسى ثم يلفى وهو عريان

امتزاج روحين

أعانقها ، والنفس بعد مشوقة
وألم فها كى تموت حزازتى
وما كان مقدار الذى بى من الجوى
كان فؤادى ليس يشفى غليله
اليها : وهل بعد العناق تدان ؟
فيشتد ما ألقى من الهممان
ليشفيه ما ترشف الشفتان
سوى أن يرى الروحين تمتزجان

لمحة التوديع

رب كعاب فى حجاب لم تزل ،
لم تكتحل مقلتها سوى الكحل
مازلت منها فى مطال وعلل
خلست منها نظرة على وجل
ثم أجتهد غيابات الكلل
مثل الغزال عنقا ومكتحل
ولا تحلى جيدها سوى العطل
حتى إذا ما قدر البين تزل
آخرها أولها من العجل

الشباب الراحل

أبين ضلوعى جمرة تتوقد
خليلى ما بعد الشباب رزية
فلا تلحيا ان فاض دمع لفقده
ولا تعجبا للجلد ييكى، فربما
شباب الفنى منجلوده وعزاؤه
وفقد الشباب الموت، يوجد طعمه
رزئت شبابى عودة بعد بدءة
سلبت سواد العارضين وقبيله
وبدلت من ذلك البياض وحسنه
على ماضى ؟ أم حسرة تتجدد؟
يجم لها ماء الشئون ويعتد
فقل له بحر من الدمع يثمد
تفطر عن عين من الماء جلمد
فكيف ؟ وانى ؟ بعده يتجلد
صراحاً ، وطعم الموت بالموت يفقد
وهن الرزايا بادئات وعسود
بياضها المحسود اذ أنا أمرد
بياضاً ذميماً لا يزال يسود

أنيق، ومشنوء الى العين أنكد
وأقبح ضحاكين شيب وأرد (١)
فقد جعلت تقذى بشيبي وترمد
مواقعها في القلب، والرأس أسود
وقد جعلت مرمى سواك تعمد
وتأسى اذا تكبن عنك وتكمد
ومن صرفت عنه من القوم مقصد (٢)
كموقعها في القلب، بل هو أجد
منكبها عنا الينا مسدد
قصير الليالي، والشيب مخد
الى أن يضم المرء والشيب ملحد
بعدل، فلا هذا ولا ذاك سرمد
نهار مشيب سرمد ليس ينفد
فقالوا نهار الشيب أهدي وأرشد
ولكن ظل الليل أندى وأبرد
وهل لشباب ضل بالأمس منشد؟
قناتي، وأضحت كدنتي (٣) تتخذ
جنيب العصا أناد أو أتأيد
قرائن - من أدنى مدى - وهي فرد
سليمى وريا عن حديثي ومهدد
فهن روان يعتبرن وصدد

لستان ماين البياضين : معجب
تضاحك في أفنان رأسي ولحيتي
وكنت جلاء للعيون من القذى
هي الأعين النجل التي كنت تشتكى
فما لك تأسى الآن لما رأيتها
تشكى اذا ما أقصدتك سهامها
كذلك تلك النبل من وقعت به
اذا عدلت عنا وجدنا عدولها
تتكب عنا مرة، فكانما
كفى حزنا أن الشباب معجل
اذا حل، جارى المرء شاو حياته
أرى الدهر أجرى ليله ونهاره
وجار على ليل الشباب قطامه
وعزاك عن ليل الشباب معاشه
وكان نهار المرء أهدي لسعيه
أيام لهوى هل مواضيك عود؟
أقول وقد شابت شواتي، وقوست
ودب كلال في عظماسى أدبني
وبورك طرفي، فالشخوص حياه
ولدت أحاديثي الرجال، وأعرضت،
وبدل اعجاب الفوانى تعجبا

(١) الأرد من ذهت أسنانه

(٢) مصاب

(٣) اللحم المكتنز

لما تؤذن الدنيا به من صروفها
والا فما يكيه منها وانها
اذا أبصر الدنيا استهل كأنه
وللنفس أحوال تظل كأنها
يكون بكاء الطفل ساعة يولد
لأفسح مما كان فيه وأرغد
بما سوف يلقي من أذاها يهدد
تشاهد فيها كل غيب سيشهد

لعبت بأولى الدهر، فاغتال شرتي
فصبراً على ما اشتد منه ، فانما
يذيق الفتى طوري رخاء وشدة
ومالي عزاء عن شبابي علمته
وأن مشيبي « واعد » بلحاقه
بأخرى حقوق ، والجرائم تحقد
يقوم لما يشتد من يتشدد
حوادثه ، والحوال بالحوال يطرد
سوى أنتى من بعده لأخلد
وان قال قوم أنه « يتوعد »

دمعة على الشباب

مراحمته كميتر علوم رسولى

لا تلح من يسكى شيبته
عيب الشيبية غول سكرتها
لسنا نراها حق رؤيتها
كالشمس لا تبدو فضيلتها
ولرب شيء لا يينسه
الا اذا لم يسكها بدم
مقدار ما فيها من النعم
الا زمان الشيب والهزم
حتى تغشى الأرض بالظلم
وجدانه الا مع العدم

حلم زائل

رأيت سواد الرأس واللهم تحته
فلما اضمحل الليل زال نعيمه
كليل وحلم بات رائيه ينعم
فلم يسق الا عهد المتوهم

الأحداث السياسية

مصرع

ابى الحسن يحيى بن احفاد على

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج
ألا أيهذا الناس طال ضريركم
أكل أوان للنبي محمد
تيمون فيه الدين شر أئمة -
طريقان شتى : مستقيم وأعوج
بالرسول الله فاخشوا، أوارتجوا
قتيل زكى بالدماء مخرج
فله دين الله ، قد كان يبرج (١)

بنى المصنفى! كم يأكل الناس ثلوكم؟
أما فيهم راع لحسق نبيسه
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم،
ألا خاب من أنساء منكم نصيبه
لبواكم - عما قليل - مفرج
ولا خائف من ربه يتحرج
كان كتاب الله فيهم مجمع (٢)
متاع من الدنيا قليل وزبرج

أبعد المكنى بالحسين شهيدكم
لنا وعلينا - لاعليه ولا له -
وكيف نبكى فائزاً عند ربه
وقد نال في الدنيا سناء وصيته
فان لا يكن حيا لدينا ، فانه
وكنا نرجيه لكشف عمائة
فساهمنا ذو العرش في ابن نبيه
أيحيى العلى لهفى لذكراك لهفة
لمن تستجد الأرض بعدك زينة
سلام وريحان وروح ورحمة
ولا برح القاع الذى أنت جاره
تضىء مصاييح السماء فتسرح
تسحسح أسراب الدموع وتنشج
له فى جنان الخلد عيش مخرفج (٣)
وقام مقاماً لم يقمه مزليج (٤)
لدى الله حى فى الجنان مزوج
بأمثاله أمثالهها تبليج
فهاز به ، والله أعلى وأفلج
يباشر مكواها الفؤاد فينضج
فتصبح فى أثوابها تبرج؟
عليك، ومدود من الظل سحسج
يرف عليه الأقحوان المفلج

(١) مجمع الكتاب لم يبين حروفه ولم يقد به

(٢) زليج فلانا فلا تقدم

(٣) مرج الدين اضطرب وقد

(٤) هبش واسع نام

ويا أسفى الا ترد تحيسة
 ألا انما ناح الحنائم بعدما
 ألا أيها المستبشرون ييومه
 أكلكم أمسى اطمأن مهتاده
 فلا تشمتوا وليخسأ المرء منكم
 فلو شهد الهيجا بقلب أيكم (١)
 لأعطى يد المعانى ، أو ارتد هاربا
 ولكنه مازال يغشى بنحسره
 وحاش له من تلكم ، غير انه
 وأين به عن ذلك ؟ لا أين - انه
 كأنى به كالليث يحمى عرينه
 كدأب على فى المواطن قبله
 كأنى أراه والرماح تنوشه
 كأنى أراه اذ هوى عن جواده
 فحب به جما الى الأرض اذ هوى
 أرديتم يحيى ! ولم يطو أبطل (٢)
 تأت لكم فيه منى السوء هينة
 تمدون فى طغيانكم وضلالكم

سوى أرج من طيب رمسك يارج
 ثويت ، وكانت قبل ذلك تهزج
 أظلت عليكم غمة لا تفرج !
 بأن رسول الله فى القبر مزعج !
 بوجه كأن اللون منه اليرندج (٣)
 غداة التقى الجمعان والخيل تمعج
 كما ارتد بالقاع الظليم (٤) المهيج
 شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج
 أبى خطة الأمر الذى هو أسمع
 اليه بعرقه الزكين محسرج
 وأشباله لا يزدهيه المهجج
 أبى حسن والغصن من حيث يخرج
 شوارع كالأشطان تدلى وتخرج
 وغفر بالترب الجبين المشجج
 وحب بها روحا الى الله تعرج
 طرادا ولم يدبر من الخيل منسج
 وذلك لكم بالعى أغرى والهسج
 ويستدرج المفرور منكم فيدرج

أجنوا بنى العباس من شنانكم

وأوكوا (٥) على ما فى العياب وأشرجوا (٦)

وخلوا ولاية السوء منكم وغيرهم
 فأحر بهم أن يفرقوا حيث ليججوا
 نظار لكم أن يرجع الحق راجع
 الى أهله يوما ، فتشجوا كما تشجوا

(١) جلد أو طلاء اسود (٢) فلو نزل يحيى بن الحسين لمرتك وقلبه متخوف كقلب

أيكم لسم نفسه للاسر أو لولى هاربا

(٣) ذكر النعمان

(٤) الأبطل الخاصرة والمنسج ما بين العريف وموضع اللبد

(٥) أوكى القرية شديما بالوكاء

(٦) اشرج الخريطة : داخل بين شراجها وشديها

ولا لكم من حجة الله مخرج
 وبينهم ، ان اللواقح تنتج
 تدوم لكم ، والدهر لونا ان أخرج
 سيسموا لكم والصبح في الليل مولج
 له زجل ينفي الوحوش وهزمج (١)
 بوارق لا يستطيعون المحمج (٢)
 يرى البحر في أعراضه يتموج
 وخيل - كأرسال الجراد أو وثج (٣)
 بأمثالها يثنى الأبي فيعجج (٤)
 تنفسه عن خيلهم حين ترهج
 لظل عليهم حصبها يتدحرج
 فتيل بأطراف الرديني مرج
 هنالك خلخال عليه ودملج
 والله أوس آخرون وخزرج
 تماماً ، وما كل الحوامل تخدج
 ظمائن لم يضرب عليهن هودج

على حين لا عذري لمعتذريكم
 فلا تلقوا الآن اللواقح بينكم
 غررتهم لأن صدقتهم أن حالة
 لعل لهم في منطوى الغيب ثائراً
 بمجر تضيق الأرض من زفرائه
 اذا شيم بالأبصار أبرق بيضه
 توامضه شمس الضحى ، فكأنما
 يؤيده ركنان ثبتان : رجليه
 عليها رجال كالليوث بسالة
 تدانوا ، فما للنعق فيهم خصاصة
 فلو حصبتهم بالفضاء سحابة
 كان الزجاج اللهدمياب فيهم
 يود الذي لا قوه أن صلاحه
 فيدرك ثار الله أنصار دينه ،
 ويقضى « امام الحق » فيكم قضاءه
 وتظعن خوف السبي بعد اقامته

كما يتعادي شملة النار عرفج (٥)
 يكاد أخوكم بطنة يتمسج
 ثقال الخنلى أكفالكم تترجرج
 من الريف ريان العظام خدلج
 فقد علزوا ، قبل الممات ، وحشرجوا (٦)

مه ! لاتعادوا غرة البغي بينكم
 أفي الحق أن يسوا خصاصاً ، وأتمم
 تمشون مختالين في حجراتكم
 وليدهم بادي الضوى ، ووليدكم
 ينفسى الألى كظتهم حشراتكم

(١) الهزجة اختلاط الصوت

(٢) المحدث النظر

(٣) أوثج أى أشد كثافة وانفاذاً

(٤) من فتح الراكب البعير جسده بخطامه ليقتف

(٥) نبات سهل (٦) علز أخذته القلق أو الهلع

من العرب الأمحاض أخضرا دعج
بنى الروم! ألوان من الروم نعج
وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجرا
أباهم ، فان الصفو بالرقق يمزج

وعيرتموهم بالسواد ، ولم يزل
ولكنكم زرق ، يزين وجوهكم
أبي الله الا أن يطيبوا وتخيشوا
وان كتتم منهم وكان أبوكم

بيفضائكم مادامت الريح تنأج (١)
سعى مثلها مستكره الرجل أعرج
تحش كما حش الحريق المؤجج
بوائجها من كل أوب تبوج (٢)

لعمرى لقد أغرق القلوب ابن طاهر
سعى لكم مسعاة سوء ذميمة
فلن تعدموا - ما حنت النيب - فتنة
وقد بدأت - لوتزجرون بريحها -

عدوسواكم - أفصحوا أو فلجلجوا
لكم كدماء الترك والروم تهرج
وغوغاؤكم جهلا بذلك تبهج
ولكن هنات في القلوب تنجج (٣)
لقد بينت أشياء تلوى وتحنج
وان ولياكم . فالوشائج أوشج
ليالى لا ينفك منكم متوج
بوائق شتى ، بابها الآن مرتج
وجبلهم مستحكم العقد مدمج

بنى مصعب ! ما للنبي وأهله
دماء بنى عباسكم وعليهم
يلى سفكها العوران والعرج منكم ،
وما بكم أن تنصروا أولياءكم
ولو أمكنتكم فى الفريقين فرصة
اذن لاستقدتم منهما وتر فارس ،
أبى أن تجبوهم . يد الدهر . ذكركم
وأنى على الاسلام منكم لخائف
وفى الحزم أن يستدبر الناس أمركم

بنى مصعب ! لن يسبق الله مدلج
ستظفر يوما بالشفاء ، فتشج

نظار فان الله طالب وتره
لعل قلوبا قد أطلتم غليلها

(١) ناجت الريح اشتدت

(٢) البوائج الدواهي - بينها - هبها - وهبها اليه

(٣) تتردد وتنحمر

شخصيات واعلام

بطل الشطرنج

(فى ابى القاسم التوزى الشطرنجى)

يا أخى يا أخا الدماثة والرة
أتسرى الضربة التى هى غيب
ثاقب الراى نافذ الفكر فيها
ويلايك سبغة فيظلو
تهزم الجمع أوحديا وتلوى
وتحط الرخاخ بعد الفرازين فتزد
ربما هالنى وحير عقلى
ورضاهم هناك بالنصف والربع،
واحتراس الدهاة منك واعصا
عن تدابيرك اللطاف اللواتى
بل من السر فى ضمير محب
فأخال الذى تدير على القسور
وأظن افتراسك القرن فالأ
وأرى أن رقعة الأدم الأحمر
غلط الناس لست تلعب بالشـ
أنت جديها ، وغيرك من يلعب
لك مكر يدب فى القوم أخفى
أو ديب الملل فى مستهامين
أو مسير القضاء فى ظلم الغيب
أو سرى الشيب تحت ليل شباب
دب فيها لها ، ومنها اليها
تقتل الشاه حيث قتت من الرة

ة والظرف والحجى والدهاء
خلف خمسين ضربة فى وحاء
غير ذى فترة ولا ابطاء
ن على ظهر آلة حدياء
بالصناديد أيما الواء
اد شدة استعلاء
أخذك اللاعبين بالبأساء
وأدنى رضاك فى الأرباء
فك بالأقوياء والضعفاء
هن أخفى من مستر الهباء
أدبته عقوبة الأفضاء
م حروبا دوائر الأرحاء
قرن منايا وشيكة الأرداء
أرض عللتها بدماء
طرنج لكن بأنفس اللعباء
ان الرجال غير النساء
من ديب الغذاء فى الأعضاء
الى غاية من البفضاء
الى من يريده بالتسواء
مستحير فى لمة سحاء
فاكتست لون رثة شمطاء
سعة طبيا بالقتلة النكراء

غير ما ناظر بعينيك في الدس
بل تراها وأنت مستدبر الظ
ما رأينا سواك قرنا يولى
رب قوم رأوك ريموا فقالوا
والفؤاد الذكي للمطرق المعر
تقرأ الدس ظاهراً فتؤديه
ت ولا مقبل على الرسلاء
هر بقلب مصور من ذكاء
وهو يردى فوارس الهيجاء
هل تكون العيسون في الأقاء
ض عين يرى بها من وراء
جميعاً كاحفظ القسراء



مركز تحقيقات کامپیوتر علوم اسلامی

طباع وشمائل

فى يحيى بن على المنجم

رب أكرومة له لم نخالها قبله فى الطبع والتركيب
غربته الخلائق الزهر فى الناس ، وما أوحشته بالتغريب
المعى يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء المغيب
لا يروى ولا يقرب كفاً ، وآكف الرجسان فى تليب
يدرك الطلب بالبدية دون العقب ، قبل التصعيد والتصويب
حازم الرأى ليس من طول تجريب ، لبيب وليس عن تليب
لين عطفه فان ريم منسه مكسر العود كان جد صليب

فى القاسم

مركز تحقيقات كميتر علوم رستوى

عجبت لمن حزمه حزمه تكون يده يدي حاتم
عجبت لمن جسوده جسوده تكون له عقدة العازم
عجبت لمن حلمه حلمه تكون له صولة الصارم
عجبت لمن حده حده تكون له رأفة الراحم
أرى كل ضد الى ضده من الخير فى طبعه السالم

رسائل استعطاف وعتب

عتب على سوء مقابلة

قرأت في وجهك عنوانا
تالله أنسى - ما ذكرت الصبي
يسوم التقيينا فتجهمتني
وكيف أنسى ذلك مستيقظا
ظلت من بعد فأوهمتني
لاقيتني ساعة لاقيتني
كانما كنت تضمنت لي
أو ظم بحر الصين في طرفه
أو كل ما لم يستطع فعله
يا حسن الوجه لقد شئت
أنت ملول حائل عهدك
تصرم ذا الوصل ، وتضحى الى
حتى اذا واصل ، صارمه
وتستلين الدهر ذا خشنة
وتعقد الوعد ، فانجازه
حتى اذا أنجزته مرة
وما أحب الواعدى مخلفأ.
حذرتني الناس فقد أصبحت
أهنتني جسدا فأعززتني

أذنتي بالغدر ايذانا
بل ما ذكرت الله لهفانا -
تجهم المسديون ديانا
ولست أنسى ذلك وسنانا
أنك قد عاينت شيطاننا
أثقل خلق الله أجفانا
رد شبابي كالذي كنا
أو كسح أروند وثملانا
عيني ولا موسى بن عمراننا
فاضم الي حسنك احسانا
تصيفك والساعات ألوانا
من يجتوى وصلك ظمأنا
أو سمته صدا وهجرانا
فظا ، وتستخشن من لانا
خلف اذا انجازاه أنا
منتته سرا واعلاننا
كلا ، ولا المتسن منانا
نفسى لا تألف انسانا
رب امرىء عزيان عانا

الى آل وهب

اتخذتكم درعا وترسا لتدفعوا
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر
فان أتم لم تحفظوا المودتى
نبال العدى عنى فكنتم نعالها
على حين خذلان اليمين شمالها
ذماما فكونوا لا عليها ولا لها

قفوا موقف المعذور عنى بمعزل
وخلوا نبالى والمدا ونبالها
هى النفس اما أن تعيش بغبطة
والا فغنم أن تزول زوالها

طلبت لديكم بالعتاب زيادة
وعظفاً فأعتبتم باحدى البوائق
فكنت كمستسق سماء مخيلة
حياً ، فأصابته باحدى الصواعق

أحييتنى بالأمس ثم تيمتتى
ولو أننى أحييت ميتاً عشقتة
برفضى واقصائى، وحقى أن أدنى
لحسن الذى أثرت فيه من الحسنى



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

هجاء

شئ ليس له وجود

قل لابن بوران ان كان ابن بوران
يا باطلا أو همتيه مخايله
ما أنت الا خيال طاف طائفه
قد كنت أحسبه شيئاً فأهجو
فان شكى فيه جل ايماني ؛
بلا دليل ولا تثبت برهاني
وما هجائك الا هجر وسنان
حتى أزاح يقيني فيه حسابي

(في اسماعيل بن بلبل)

صبرا أبا صقر فكم طائر
زوجت نعمى لم تكن كقرها
وكل نعمى غير مشكوره
لا قدست نعمى تسربلتها
خسر صريعاً بعد تحليق
فصانها الله بتطليق
رهن زوال بعد تمحيق
كم حجة فيها لزنديق
كيمياء أنجد

عجب الناس من أبي الصقر اذ وا
ولعمري ما ذاك أعجب من أن
ان للجسد كيمياء اذا ما
يفعل الله ما يشاء ، كما شا
و بعد « البطالة » الديوانا
كان علجاً فصار من شيبانا
مس كلباً أحاله انسانا
، متى شاء ، كائنا ما كانا

تأين !!

أقول اذ هتف الداعي بمصرعه
نعت من جمدت غزر العيون له
ومن يقل له الداعي بمغفرة
فان تصيبك من الأيام جائحة
يا منكرأ ونكيرأ أوجعاه فعد
بعداً وسحقا له من هالك نطف
لييك ! لبيك ! من داع بتبين
فلم تفض عبرة من عين محزون
وينشد الناس فيه بيت يقطين
لم نبك منك على دنيا ولا دين
خلوتما بقليل الخير ملمعون
مشوه الخلق من نسل الشياطين

اعتزال الهجاء

يامن قسا لما شكرو
واعتمدني - لما رخص
ماصون مالك عن يدي
آليت لا أهجو طسوا
لا بل سأطرح الهجا
أمن الخسلائق كلهم
حلمي أعزز على من
فلاصصبرن وأكظمن
لسكني سأحب نف
وأريدها كل الأرا
وأرى مكاني ان تعسا
حتى يراني الله كي
ويمسولني فميتي التي
وليفسذوني بالكر
وساستعين على الفرا

ت الي تطسوله زماني
ت عليه من سقط المعاني
وأصون عرضك عن لساني
ل الدهر الا من هجاني
ء وان رماني من رماني
فليأخذوا مني أماني
غضبي اذا غضبي عراني
وان لظي غيظي كسواني
حي اذ قلاني من قلاني
دة اذ أباني من أباني
مه من تعساه عن مكاني
ف صيأتي قدرى وشاني
حق علىه كما يراني
مة انه قدما غذاني
ق الصبر ان شوق دعاني

صور مسوخة

يصف نفسه

من كان يبكي الشباب من جزع
لأن وجهي بقبح صورته
إذا أخذت المرأة ، سللني
شعفت؟ بالخرد الحسان وما
كي يعبد الله في الفلاة ، ولا يش
فلمت أبكي عليه من جزع
ما زال بي كالمشيب والصلع
وجهي - ومامت - هول مطلعي
يصلح وجهي الا لذي ورع
هد فيه مساجد الجميع

أقول

وأما يد البصري في كل صفحة
أأوعده بالشعر وهو مسلط
ألم أره لو شاء بلع تهامة
على أنه ينعي الى كل صاحب
يخبر عنها أن فيها تسلما
ألم تعلموا أن الرحا عند تقرها
فلاتقبلوا ذلك التفارق ، واحذروا
فأقلع من سيل وأغرف من رفش (١)
على الأنس والجان والطيروالوحش
وأجبالها، طاحت هناك بلاأرش (٢)
ضروسا له تأبي على الثور والكبش
وذلكم أدهى وأوكد للجرش
وتجرشها تأتي على الصلب والهش
شباه، ولو أمسى مسجى على نعش

مقارنة

وجهك يا عمرو فيه طول
مقابع الكلب فيك طيرا
وفي وجوه الكلاب طيلول
يزول عنهما ولا تزول

(١) الأرض : الدبة

(٢) الرقش ما يجرب به التراب

وفيه أشياء صالحات
والكلب واف وفيك غدر
وقد يحامى عن المواشى
وأنت من بيت أهل سوء
وجوههم للسورى عظمات
نستغفر الله قد فعلنا
ما ان سألتك ما سألنا
صمت وعيت فلا خطاب
مستفعلن فاعل فمقول
بيت كمنناك ليس فيه
حماكها الله والرسول
ففيك عن قدره سنفول
وما تحامى ولا تصول
قصتهم قصة تطول
لكن أقسماءهم طبول
ما يفعلن المائق الجهول
الا كما تسأل الطلول
ولا كتاب ولا رسول
مستفعلن فاعل فمقول
معنى سوى أنه فضول

الفث السمين



لنا صديق كذا صديق
من أقبح الناس ، لا أحاشي
إذا بدا وجهه لقوم
كأنه عندهم غريم
وهو على ما وصفت منه
غث على أنه سمين
من كان منهم ومن يكون
لاذت بأجفانها العيون
حلت عليهم له ديسون
متهم وده ظنين

كبرياء الحجاب

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب
عبوس إذا حيته بتحيسة
يظل كأن الله يرفع قدره
إذا ما رأى عاد أعمى بلا عمى
ومن شيم الحجاب أن قلوبهم
يخافون أن يحظى سواهم بحظهم
مخا الله ما فيه من الكسر بالكسر
فيالك من كبر ومن منطلق نزر
بماحط من قدرى وصغر من أمرى
وصم سميعا ما بأذنيه من وقر
قلوب على الآداب أقسى من الصخر
فهم من سؤال السائلين على وحر

(ثقيل)

كان للأرض مرة ثقلان فلها اليوم ثالث بفلان
أتقى غصة اسمه علم اللسه فأكنى عن ذكره بالمعاني
يا ثقيل الثقال أقذيت عي نى ليت أنى كما أراك ترانى
من يكن غايبا بيب ففؤادى يبغضك اليوم عانى

(بارد ثقيل)

يا أبا القاسم الذى ليس يدرى أوصاص كيانه أم حديد
أنت عندى كماء برك فى الصي ف ثقيل يعلوه برد شديد

(فى آخرى)

وأخرق تفرمه نفضته سفاها وتطفئه تفسله
فأخلاقه تارة وعرة وأخلاقه تارة سهله

(أصدقاء كثير والسلام)

ولى أصدقاء كثير والسلا
إذا أنا أدلجت فى حاجة
فلى أبدأ معهم وقفة
وفى موقف المرء عن حاجة
ترى كل غث كثير الفضو
يحدثنى من أحاديثه
أحاديث هن كمثل الضرب
أولئك لا حيمهم مؤنس
م على وما فيهم نافع
لها مطلب نازح شاسع ،
وتسليمة وقتها ضائع
تيمهما شاغل قاطع
ل ، مصحفه مصحف جامع
بما لا يلذ به السامع
ع ، آكله أبدأ جنائع
صديقا ، ولا ميتهم فاجع

تجارب وعظات

الظنون

يا أخى ، أين رجع ذلك اللقاء
كشفت منك حاجتى هنوات
تركنى ولم أكن سىء الظن
قلت - لما بدت لعينى شنعاء:
ليتنى ما هتكت عنكن ستر
قلن : لولا انكشافنا ماتجت
قلت : أعجب بكن من كاسفات
قد أفدتنى - مع الخبر بالصا
قلن : أعجب بمهتد يتنى
كنت فى شبهة فزالت بنا عذ
وتمنيت أن تكون على الحد
قلت : تالله ليس مثلى من ود
غير أنى وددت ستر صديقى
قلن : هذا هوى فخرج على الحد
ليس فى الحق أن تود لخسل
بل من الحق أن تنفر عنهن
ان بحث الطبيب عن داء ذى الد
دونك الكشف والعتاب فقوم
وإذا ما بدا لك العر (١) يوماً
قلت : فى ذلك موتكن ، وما الم
قلن : ما الموت بالكرب إذا كا

(طينة الناس)

واعلم بأن الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم اذن لفاح الحمأ اللاذب

(اعتزال الناس)

ذقت الطموم فما التذذت كراحة من صحبة الأشرار والأخيسار
أحب قوما لم يجبووا ربهم الا لفسردوس لديه ونار

(المعدم في امان)

ماراح مغبونا بصفقة خاسر من باع متعة فائت بأمان
أمن امرىء من رزء شىء فاته ، والمدركوه مراقبو الحدثان
وكفى عزاء لامرىء من فائت الا يخاف عليه صرف زمان

(القناعة)

إذا ما كساك الله سربال صحة ولم تخل من قوت يحل ويعذب
فلا تغبطن المترفين فانهم على حسب ما يكسوهم الدهريسلب

(من هو الكريم ؟!)

ليس الكريم الذى يعطى عطيته على الثناء وان أغلى به الثمنا
بل الكريم الذى يعطى عطيته لغير شىء سوى استحسانه الحمنا

(جزاء الاحسان)

ولقد كافأ بالنعى امرىء كافأ النعمى بإخلاص الوداد
ان يكن نول نيلا من يد فلقه نول نيلا من فؤاد

(الدرهم والسيف)

لم أر شيئا صادقا نفعه للمرء ، كالدرهم والسيف
يقضى له الدرهم حاجاته والسيف يحميه من الحيف

(الشرير)

وليس بشرير ضليع بحجة
ولا واسم عرض امرىء كان ناله
وما بى زهد فى التفضل : أنه
ولكنما الشرير من عم شره ،
وعاد باذعان له وتودد
وكافأ احسانا بسوء ولم يزل
رمى باطلا بالحق حين يخاصم
بسوء - وان لامته فيه اللوائم
لفضل ، ولكن للرجال شكائم
وسولم بدءا فأتلى لا يسام
أخوه فلم تنفعه تلك التمائم
يراجم بالمكروه من لا يراجم

(الظلم)

لا تتقام المظلوم أربى على الظالم
صاحب الظلم ان تأملت كالرا
يجتلى أمره فيعلم أن قد
فهو من لوم نفسه حين يظلم
قد أمرت حياته وشجته
لو تجافى الخصيم عنه وأغضى،
لم ، من ظلمه على المظلوم
تبع فى المرتع الويلى الوخيم
باع ليل الكرى بليل السليم (١)
برحاء النديم والتنديم
لكفاه بنفسه من خصيم

(الام)

لا تكثرن ملامة العشاق
ان البلاء يطاق غير مضاعف
لا تطفن جوى بلوم انه
فكفاهم بالوجد والأشواق
فاذا تضاعف كان غير مطاق
كالريح تفرى النار بالاحراق

(السلو)

أبت نفسى الهلاع لرزء شىء
أتهلع وحشبة لفراق الف
كفى شجواً لنفسى رزء نفسى
وقد وطنتها لحلول رمس

(الصبر)

أرى الصبر محموداً وفيه مذاهب، فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب!
هناك يحق الصبر، والصبر واجب، وما كان منه كالضرورة أوجب
هو المهرب المنجى لمن أهدت به مكاره دهر ليس منهن مهرب
لبوس جمال، جنة من شماتة، شفاء أسي، يثنى به ويشوب

(افراء الشيب)

وتولى الشباب فازدبت ركضاً في ميادين باطلى اذ تسولى
ان من ساءه الزمان بشيء لأحق امرىء بأن يتسلى

(الفناء)

إذا اختط قوم خطة لمدينة تقاضتهم أضعافها للمقابر
وفى ذلك ما ينههم أن يشيدوا وأن يقتنوا الا كزاد المسافر

(الحرب الأهلية)

وما قتل بعض الحى بعضاً بناهك قواه اذا ماجاه حى يحاربه
ومالطم بعض الموج فى البحر بعضه يمانعه تفريق من هو راكبه

(يجنون الحرب وغيرهم وقودها)

رأيت جناة الحرب غير كفاتها اذا اختلفت فيها الرماح الشواجر
كذلك زناد النار عنها بنجوة ولكنما تصلى صلاها المساعر

(الاغضاء الا عن الخصلة)

يا أبا القاسم الذى كنت أرجو ه لدهرى قطعت متن الرجاء
لا أجازيك عن غرورك ايا ي غروراً وقت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وما ذا ك لبخل عليك بالاغضاء
أنت عيني، وليس من حق عيني غض أجنفانها على الاقضاء

الشعر

(دفاعه عن شعره)

قلت لمن قبال عرضت على الأخفش (١) ما قتلته فما حمده
قصرت بالشعر حين تعرضه على ميين العمى اذا اتقده
ماقال شعراً ، ولا رواه ، فلا ثعلبه كان ، لا ولا أسده
فان يقل أننى رويت ، فكالدفاتر جهلاً بكل ما اعتقده
أرمت زينى بأن تعرضنى لدحه ، فالذليل من عضده
أم رمت شينى بأن تعرضنى لثلبه ؟ فالسليم من قصده (٢)
انشدته منطقي ليشهده فغاب عنه عمى وما شهده
وقال قولاً بغير معرفة افكا - فما حل افكه عقصده
شعري اذا نأمله الا ان كان ذو الفهم والحجى عبده
لكنه ليس منطقياً بع اللسه به آية لمن جحده
ولا أنا المفهم البهائم والطير سليمان قاهر المرده
ما بلغت بى الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقرده
وحسب قرد أراه يحسدنى أن يسكن الله قلبه حمده
لا خفف الله عنه من حسدى وزاده الله فوقه كمده
ولا تزل صورتنى اذا طلعت لناظريه قذاه بل رمده

(حملة على البحتري)

الحظ أعى والى ذلك لم نره للبحتري بلا عقل ولا أدب
قبحاً لأشياء يأتى البحتري بها من شعره العث بعد الكد والتعب
كأنها حين يصغى السامعون لها ممن يميز بين النبع والغسرب
رقى العقارب، أو هذر البناة اذا أضحوا على شعف الجدران فى صخب
وقد يجيء بخلط فالنحاس له وللأوائل ما فيه من الذهب

(١) هو على بن سليمان الأخفش

(٢) الدليل من آزره الأخفش والسليم من قصده الأخفش بسوء

يسىء عفا ، فان أكدت وسائله
عبد يغير على الموتى فيسلبهم
ما ان تزال تراه لايسأ حلالا
شعر يغير عليه باسلا بطلا ،
يقول مستمعوه الجاهلون به :
والحكم فيه مبن غير ملتبس
اذا آجاد فاوجب قطع مقوله
وان آساء فاوجب قتله قوداً

أجاد لصا شديد البأس والكلب
حر الكلام بجيش عير دى لجب
أسلاب قوم مضوا في سالف الحنب
وينشد الناس آياه على رقب
أحسنت يا أشعر الحضار والعيب
لو ريم فيه خلاف انحق لم يصب
فقد دهمى شعراء الناس بالحرب
بمن يميت اذا ابقى على السب

التساي

خيلى قد عللتمانى بالأسى
وما راحة المرزوء فى رزه غيره
وضرب من الظلم الخفى مكانه
لأنك ياسسوك الذى هو كلمه

فأنعمت ما لو أننى أتعلل
أيحصل عنه بعض ما يتحمل؟
تعزيتك بالمرزوء حين تأمل
بلا جرم ، لو أن جورك يعدل

حلم اليقظة

المرء فى حال التيقظ هاجم
وآخو الحجا أبدا يجاهد طبعه

يرنو الى الدنيا بمقلة حالم
فتراه هو محارب كسالم

التكلف

فى الناس ذو حلم يسنه نفسه
وكلاهما نعب يحارب شيمة

كيما يهاب وجاهل يتحلم
غلبت فأض بحملها يتألم

الدهر الشاعر

الناس كالشعر تلقى الأرض جائشة
والدهر شاعر آفات يفوه بها

بالجمع يزجى ، وخير منهم رجلى
للناس يفكر تارات ويرتجل

الحزم

إذا طرف من حبلك انحل عقده تداعت وشيكا باتنقاض مرائره (١)
فلا تفلن أمرا وهي منه جانب فيتبعه في الوهي لاشك سائره

الأصدقاء

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثسر ما تراه يحول من الطعام أو الشراب
إذا انقلب الصديق غداً عدواً مينا والأمر الى انقلاط
ولو كان الكثير يطيب كانت مصاحبة الكثير من الصواب
وما اللجج الملاح برويات وتلقى الري في النطف العذاب

جمع المال

المال يكسب ربه مالم يفض في الراغبين اليه - سوء ثناء
كالماء تأسن بشره إلا إذا حبط السقاة جمامه بدلاء

في الثقال

ليس حسد الجفون في مرها انه حوم ولا نفيها أذى الأقداء
انما حسدتها اذا هي حالت بين طرف العيون والبغضاء

المناسك

حرك مناك اذا هممت تمت فانهمسن مسراوح
لا تيسأسن فان رزق ق الله غساد رائح

حنثه من الشعر

ويح القوافي مالها سفسفت حظي كأني كنت سفسفتها

(١) أمر الحبل فتله شديداً ، والمرير من الحبال ما اشتد فتله

ألم تكن هوجاً فسدتها؟ ألم تكن عوجاً فثقتها
كم كلمات حكت أبرادها وسطتها الحسن وطرفها
ما أحسنت ان كنت حسنتها ما ظرفت ان كنت ظرفتها
أنحت على حظي بمبراتها شكراً ، لأنى كنت أرهقتها
فرقته حين رقتها ، وهفته حين هفقتها
وكثفت دون الغنى سدها حتى كأنى كنت كثقتها
أحلف بالله لقد أصبحت فى الرزق آفتى وما أفقتها
لم أشكها قط بتقصيرة فيها ، ولا من حيفة حفقتها
حرمت فى سنى وفى ميعتى قرأى من دنيا تضيقتها
لهفى على الدنيا وهل لهفة تنصف منها ان تلهقتها
كم آهة لى قد تأوتها فيها ، ومن أف فأفقتها
أغدو ولا حال تسنتها فيها ، ولا حال تردقتها

فهرست

صفحة		صفحة	
٧١	اصله ونشأته	٣	تمهيد
٧٢	أبوه		
٧٤	أمه		الفصل الأول
٧٥	أخوه		عصر ابن الرومي أو القرن
٧٨	أولاده وزوجته		الثالث للهجرة
٨٢	تعليمه	٩	حالة الحكومة والسياسة
٩١	مزاجه وأخلاقه	١٧	نظام الاقطاع
١٣٥	مهيشته	٢٠	الحالة الاجتماعية
١٥٦	لماذا فشل ؟	٢٨	الحالة الفكرية
١٧١	طيرته	٢٨	الشعر
١٧٩	عقيدته	٤٢	الدين والأخلاق
١٩١	مجاوزه		
٢٠٦	هو وشعراء عصره		الفصل الثاني
٢١٣	ممدوحوه		العصر والرجل
٢٢٣	وفاته	٤٧	أخبار ابن الرومي
		٥٢	
	الفصل الرابع		الفصل الثالث
٢٣١	عبقريه ابن الرومي		حياة ابن الرومي كما
٢٣٤	عبادة الحياة		تؤخذ من معارضة
٢٤٩	حب الطبيعة		أخباره على شعره
٢٥٥	التشخيص والتصوير	٦٩	

صفحة		صفحة	
٣٠٤	الموسيقى والفناء		الفصل الخامس
٣١٢	مناعم الخوان		
٣١٧	الفواكه	٢٦٧	فلسفة ابن الرومي
٣١٩	المرأة والحب		
٣٢٣	الاحداث السياسية		الفصل السادس
٣٢٧	شخصيات وأعلام		
٣٢٩	طبائع وشمال	٢٧١	صناعة ابن الرومي
٣٣٠	رسائل استعطاف وعتب	٢٩٠	خاتمة
٣٣٢	الهجاء	٢٩٣	الطبيعة والحياة
٣٣٤	صور ممسوخة	٢٩٩	الطرد والقنص
٣٣٧	تجاريب وعظات	٣٠٠	ادوات القتل
٣٤١	الشعر ومتفرقات شتى	٣٠١	مجالس الشراب واللهو